

الإسلام والشريعة

الدكتور فايز ترحيني

دار الفكر اللبناني
بيروت

الإيمان والشكر



الإسلام والشريعة

الدكتور فايز ترحيني

دار الفكر اللبناني
بيروت

دار الفكر للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ١٩٩٠

مكتبة دار الفكر للنشر والتوزيع - تحت إشراف طاهر بن عبد الله
٨٦٣٣٩٣ - ٣١١٨٧٨
موسم ١٩٩٩ أو ١٩٩٠ / ١١
توزيع: DAFKIL 23648 LE - بيروت، لبنان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٩٠

الإهداء

إليك يا أول الأنبياء وآخر المرسلين،
يا من بعثت بالهدى والنور ودين الحق، فبلغت رسالتك، اللهم
اشهد.
إليك يا رسول الله أهدي هذا الكتاب.

فايز

المقدمة:

الأدبُ نوعان: أدبٌ إنشائي، وأدبٌ وصفي. والكتابةُ قسمان كتابةً بالتَّبعية، وكتابةً بالأصالة.

فالأدبُ الإنشائي هو الكلامُ نظماً ونثراً، هو القصيدة التي يُشدها الشاعر، والرّسالة التي يُنشئها الكاتب. هو الآثار التي يُحدثها صاحبها لا يُريد بها إلاّ الجمال الفنيّ في نفسه لِتُمثّلَ نحواً من أنحاء الحياة الإنسانيّة.

وأما الأدبُ الوصفي فهو الذي يتناول الأدبَ الإنشائي مفسّراً ومحلّلاً ومؤرّخاً، هو مزاجٌ من العلم والفن، أو قلّ من البحث والدّوق. وكتابي هذا يندرج في إطار الأدب الوصفي.

والكتابة بالتَّبعية هي التي يتهجّها صاحبها كي ينقلَ أفكار السّامعين نقلاً أميناً أو مُستوعباً لا فرق. والكاتب التّبعيّ مثلهُ كمثلِ مُوصِلِ رسائل وكفّ، فلو لم يُسبقْ لما استطاع أن يقدّم فكراً على الإطلاق.

وأما الكتابة بالأصالة فهي التي لا تأتي إلاّ بعد مُدارسةٍ وطولِ أناةٍ، وتعمّقٍ كافٍ في مَناحي الفكر جميعاً. فالكاتبُ بالأصالة هو الذي يُنوّعُ قراءاته، يُؤصلها، يُنقيها من الشوائب، يَضهرُها بمصهره الخاص، فتتختمُ في وعيه

ولا وعيه، ثم يخلق منها إبداعاً فكرياً دون المتابعة الإيجابية لأجلها،
أو المخالفة السلبية للشهرة، وأرجو أن يندرج كتابي في هذا الإطار.

تراني وأنا في حضرة الإسلام تَمَلَّكُنِي الرَّهْبَةُ، فأنا السَّابِحُ الضعيف في
محيطِ تُراثي أبدي سَرمدي، لكنَّه رُووفٌ رَحِيمٌ. كم كنت أشعر بالغبطة
والاعتزاز في أثناء استنطائي لمصادر الإسلام وأُمَمِ كُتبه، وكم كنت أشعرُ
بالارتياح النَّفسي حين أَمِيطُ اللَّثَامَ عن قضية ما زالت عالقةً في أذهان طلابي
وكثير من الدارسين. فكنت أفتشُ، أنقبُ، أستنطقُ، أكونُ رأياً، أناقشه، أقرره،
فأسجله على صفحاتي، لا أعودُ مُجَدِّداً إلى مُدارسته وحذف ما علق به من
شوائب أو الفاظٍ قلقة. فأنا أؤمن أنَّ اللَّفْظَةَ المُفْرَدَةَ تَحْتَمِلُ معناها الخاص،
ولا يمكن أن تتجاوزه إلى مرادفتها مهما تقارب الشَّبه بينهما. فاللَّفْظَةُ المُفْرَدَةُ
كالإنسان الفَرْدِ، لا بُدُّ أن تَمِيزَه فروقاتٌ وسماتٌ تمنع التَّوَامَةَ الحقيقية، وهذه
حِكْمَةُ الخالق. والفرق بين اللَّفْظَةَ واللَّفْظَةَ كالفرق بين الفرد والفرد تماماً، وهنا
تكمُن أهمية العربيَّة. ولكني رغم ذلك كثيراً ما انتابني قلقٌ من تقصير، وتملَّكُنِي
تخوُّفٌ من ضعفٍ أو وهن، فأنا في حضرة الإسلام.

حاولت أن أضع في كتابي مَرَاءٍ فِكْرِيَّةٍ متقابلة، فتقابل مرأتين في الواقع
لا يُعْطِي صورتين حصراً وتحديداً، بل عشراتٍ منها متلاحقة. وتقابل فِكْرٍ
وأفكارٍ يُحَدِّثُ مئاتٍ من الفِكْرِ المتفاعلة المُتَشَابِكَةِ المُتَدَاخِلَةِ إيجاباً أو حتى
سلباً، ويتفاعل الأفكار غنى فِكْرِيٌّ لا يُحَدِّدُ بزمانٍ، ولا يقع في مكان، وهذا
ما أرجوه لكتابي.

حاولت في هذا الكتاب - وعملي يندرج في إطار المحاولة - أن أدرس
الإسلام، أتعرب منه وأقرب طلابي. فالفهم الحقيقي يُؤدِّي إلى معرفة يقينيَّة
تُقَرِّبُ الدِّينَ من العلم، فأنا لا أجد تعارضاً بين الدِّينِ الواعي والعلم اليقيني،

خصوصاً وأنتي أدركت إبان تدريسي لمادة أدب صدر الإسلام، أن عدداً كبيراً من طلابي لا يُلمون إماماً كافياً بالإسلام، ولا يعرفون الكثير عن مباحث القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فضلاً عن تأثر شعراء الإسلام بالقرآن والحديث ألفاظاً وصوراً وقيماً ومعاني.

إزاء هذا الواقع كان لا بُدَّ لي من منهج أتبعه لتحقيق الغاية التي أصبو إليها؛ وبعد طول تأمل وأناة وجدتُ نفسي أمام منهجٍ جديدٍ أعتقد أنني لم أسبق إليه رغم إشاراتٍ مبثورة في غير كتاب. هذا المنهج يقوم على استيعاب المبحث أو القضية التي أدرس استيعاباً مرضياً. وأعني تحديداً قضية الشعر في صدر الإسلام، هذه القضية التي لم تجلِّ الدراسات بُعد حقيقة تمثلها للإسلام. فتراني أنكبُّ على دراسة قصائد شاعرٍ ما أو بعض أبياته المُفردة، في ضوء إشعاعات القرآن الكريم وقيمه ومبادئه، محاولاً الفصل في مدى تمثُّل ذلك الشاعر للإسلام تمثُّلاً حقيقياً واعياً، أو البقاء في إطار الإسلام السياسي الذي صيغ نتاج كثير من شعراء ذلك العصر. ولكم كانت النتائج مفاجئة فحسان بن ثابت مثلاً لم ينجح في تمثُّل الإسلام بعمق، في حين كان كعب بن مالك كمثَّل شعراء البادية أكثر تمثُّلاً ووعياً وصدقاً، وهذه النتائج أرجو أن تتابع أو تنقض من قِبَل طلاب الدراسات العليا والباحثين الأكاديميين.

جاء هذا الكتاب ليفتح باب الدراسة الأكاديمية الواعية أمام النابهين منذ اليوم. لنحصِّد بعدَ حينٍ نتاج عملنا، ونجلو ما غمض من قضايا شعر صدر الإسلام التي ما زالت مُبهمة أو مُشوِّشة. أقول النابهين فقط لأنني أدرك أننا نعيش اليوم في فترة إنحدار ثقافي أخشى أن تُؤدِّي بنا إلى الإنحطاط مُجدِّداً. فجيلنا - وخصوصاً في لبنان - جيلٌ حربٍ لم ترحم البَشَرَ والحَجَرَ مما جعل المشكلات الحياتية واليومية تزدهم أمامه كَرِيضَةَ الغنمِ، فتحوَّل دونه والتعمق الكافي.

فمعظم طلابنا يتبرّمون من إحالتهم إلى المصادر والمراجع، ويفضّلون قطفَ الثمار دانيّةً من أقرب سبيلٍ، فجاء هذا الكتاب حاجةً ملحّةً أرجو أن يسدّ نقصاً في المكتبة العربية.

وإنطلاقاً من ملاحظتي في أنّ طلاب اليوم يعانون نقصاً حاداً في الثقافة الإسلاميّة في شعر صدر الإسلام، إرتأيت أن أخفّف من حدّته بقدر ما منحني الله من طاقةٍ ومقدرةٍ وعزيمةٍ، آملاً أن أوفّق في ما عقّدت عليه العزم.

وبعد إحاطتي المبدئيّة بالإطار العام لمادة أدب صدر الإسلام، صمّمت أن أضع حوله كتابين: الأوّل وعنوانه: الخطابة في صدر الإسلام. والثاني وعنوانه: الإسلام والشعر وهو الذي نقف الآن بين يديه.

يتألف كتابُ الإسلام والشعر من ثلاثة فصول. الأوّل مُخصّصٌ للإطلالة على الإسلام وعلوم القرآن الكريم، وقسمته إلى ثلاثة أقسام. تحدّثت في الأوّل عن معنى الإسلام المُشتق من السّلام والمُسالمة، والخُضوع والانقياد، والطّاعة المُطلّقة لله تعالى. وعن مدلول لفظة مُسلم التي أطلقت أول الأمر على متّبعي الأنبياء والرّسل كافّة، ثم اقتصرت على مُعتنقي الإسلام الذي ساد على يد محمد نبيّنا الكريم.

وتناولت في القسم الثاني بعض تعاليم الإسلام إنطلاقاً من عقائد إسلاميّة كالإيمان بوحداية الله، وبعث النّبیین، ويوم الحساب، وإنطلاقاً من أعمالٍ كالصلاة والزكاة والحجّ، بالإضافة إلى بعض القيم الأخلاقيّة والروحيّة، مُشيراً إلى بعض أحكامها التي وردت في القرآن الكريم.

ثم خصّصت القسم الثالث، وهو عمادُ الفصل، لدراسة بعض علوم القرآن، دراسةً أفقيّةً مع شيءٍ من التعمق الكافي لاستيعاب الطّالب الجامعي، تاركاً التّبْحُر والغوص فيها للمتخصّصين في الدراسات الإسلاميّة. ثم شُعبت

هذا القسم إلى خَمْسِ شعب. درست في الأولى معنى الوحي وأنواعه، والقرآن الكريم وتسمياته: القرآن، الكتاب، الفرقان، والذكر. وأشارت في الثانية إلى نزول القرآن مُنْجِماً سِوَاءَ في ذلك آيَاتِهِ وسوره المَكِّيَّة أم المَدِينِيَّة، كما أشارت إلى النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ وغير ذلك.

وتحدّثت في الثَّالِثَةِ عن جمع القرآن وكتابتَه اللّذين أنجزا على ثلاث مراحل أو حلقات، إبتدأت المرحلة الأولى في عهد الرّسول الذي كان يأمر كَتَبَةَ الوحي بكتابة آيات القرآن على أدوات الكتابة المُتَيَسَّرَةَ آنذاك، بترتيب تَوْقِيفِيٍّ، ثم تلتها المرحلة الثانية في عهد أبي بكر فَجُمِعَتِ أشتاتُ الأدوات المُبْعَثَرَةَ، وَنُقِلَتِ في صحائفٍ احتفظت بها حفصة من أزواج الرّسول بعد وفاة كلِّ من أبي بكر ووالدها عمر بن الخطاب.

ثم كانت المرحلة الثَّالِثَةُ في عهد عُثمان، وكان جمعاً ممنهجاً إلى حدِّ ما. ومصحفه «الإمام» بجمعه وترتيبه هو المُعْتَمَدُ وَالْمُتَدَاوِلُ بعد أن أُدْخِلَ عليه الإِعْجَامُ وَالشُّكْلُ وَالتَّحْسِينَاتُ الكِتَابِيَّةُ وَالخَطِيَّةُ.

وأشرت في الرَّابِعَةِ إلى الأحرف السَّبْعَةِ التي تَنْحَصِرُ حسب إطلاعننا في: الاختلاف في وجوه الإعراب، والاختلاف في الحروف، والاختلاف في الأسماء إفراداً وتثنيةً وجمعاً، والاختلاف بإبدال الكلمات والألفاظ، ثم الاختلاف في تقديم هيئة الكلمة أو تأخيرها، والاختلاف في زيادة بعض كلماتٍ أو نقصانها، ثم الاختلاف في اللّهجات العربية.

كما أشارت إلى القراءات السبع وهي مذاهب في النّطْقِ كان يذهبُ بها شيوخ الإقراء، لكنّ المختلفين حول القراءات هذه مُتَّفِقُونَ أَنَّ آيَةَ قِرَاءَةِ تُوَافِقُ مصحف عثمان ولو إحتماً، وتوافق العربية ولو بوجه فصيح، ومشهورة بصحة إسناده، فهي قراءة صحيحة. وإذا اختلَّ ركنٌ أو أكثر فهي شاذة أو ضعيفة أو باطلة.

وتوقفت في الخامسة عند تحدي القرآن وإعجازه، وَلَيْسَ كَانَ الْقُرْآنَ مُنْزَلًا
من لذن ربٍ قادرٍ عليم، تحدى الله الناس جميعاً أن يأتوا بسورةٍ من مثله،
فَعَجَزُوا حَتَّى لَوْ كَانَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ لِبَعْضِهِمْ ظَهِيرًا. أمام هذا الواقع، كان لا بُدَّ
من الإشارة إلى بعض دلائل الإعجاز القرآني في كتب الأقدمين أو: «الإعجاز في
الْقَبَان»، وفي كتب المحدثين أو: «الإعجاز والمكِنَّة» وشمل الإعجاز العددي،
والإعجاز العلمي - والطبي .

وأما الفصل الثاني فخصَّصته لدراسة علوم الحديث، لأنَّ الحديث النبويَّ
الشَّريف مُتَمِّمٌ لأحكام الشَّريعة الإسلامية، مُوضَّحٌ لما غمَّضَ من تعاليمها.
وهذا الفصل قَسَمته إلى ثلاثة أقسام :

الأول وعنوانه: الحديث النبويَّ الشَّريف، درستُ فيه معنى كلِّ من
لفظتي: الحديث والسُّنة، ونقاط الاتفاق التي تُيسِّر التلازم بين اللفظتين. ثم
درست رواية الحديث وتدوينه، فالرُّسول الكريم لم يُدَوِّن الحديث النبويَّ
الشَّريف إلَّا في فترات لاحقة مما سهَّل الوضَّع عليه. وبالتالي شرَّع باباً
للاختلاف حوله إختلافاً يتناسب وحجم الاختلافات السياسيَّة والمذهبيَّة والحزبيَّة
والعصبية التي عَصَفَتْ بالعصر الإسلامي وما تلاه من عصور. لكنَّ المسلمين
إتَّخذوا لأنفسهم منهجاً في جمع أحاديث الرُّسول يقوم على دراسة السُّند والمُتَن
دراسةً متشددةً أحياناً ومُتساهلةً أحياناً أخرى، ونتيجةً لذلك جمع المسلمون
أحاديث الرُّسول في صحاحٍ ومسانيدٍ وسننٍ وغير ذلك .

ثم درست في القسم الثاني أنواع الحديث، وإذ هي أنواع كثيرة، لكنني
حصرتها - تسهيلاً - في أنواع رئيسية ثلاثة هي الصَّحيح والحسن والضعيف،
ويندرج تحت كل نوع أصناف منه وتسمياتٍ أخرى.

وخصَّصت القسم الثالث لدراسة أثر الحديث في الأدب. فوجدت أنَّ

علوم النحو والأصول، والبيان والتفسير، والفقه والحديث، هي علوم مترابطة لا يُمكن الفصل بينها فصلاً حازماً دقيقاً، وخصوصاً في ذلك الزمن، فالواحد منها يقوى بالآخر، ويأخذ من منهجه، ويستفيد من التقدم الذي يتحقق في غيره من العلوم.

وأما الفصل الثالث وعنوانه الشعر والإسلام، فقسمته إلى ثلاثة أقسام. تناولت في القسم الأول الشعر في ميزان الإسلام. فالشعر هو دائماً ديوان العرب ومرآة نفوسهم، والإسلام لم يتخذ منه موقفاً اعتبارياً أو عشوائياً، إنقص منه أول الأمر وقلل من أهميته حين كان يُهاجم الدين، ثم إتخذ سلاحاً للدفاع عن قيمه ومبادئه. فالإسلام نفى عن القرآن سمة الشعر، وعن الرسول صفة الشاعر، وفَرَّق بين شعراء «يتبعهم الغاوون» وشعراء «آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً».

وتناولت في القسم الثاني تسمية المُخضرم ومعانيه التي شملت: الكثرة والسعة، والقطع، والهجين، والمُدرَك لعصرين. كما تطرقت إلى مفهوم لفظة المُخضرم عند بعض القدماء والمحدثين.

ودرست في القسم الثالث الذي يُمثّل عماد الفصل: الشعر في صدر الإسلام، وكان لا بُدّ لي من تشعيبه إلى ثلاث شعب. درست في الأولى شعراء المدينة أو شعراء الأنصار وتحديداً حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة. وهؤلاء الثلاثة يمثّلون الحلقة الأولى التي نظم شعراؤها بعض تعاليم الإسلام وقيمه نظماً لأمس الجوهراً ملامسةً خجولةً، مِمَّا وَسَمَ شعرهم الإسلامي باللين والضعف إزاء شعرهم الجاهلي، فهم لم يوفّقوا التوفيق الكافي في تمثّل الإسلام وتعاليمه تمثلاً حقيقياً واعياً، لكن شعرهم كان على آية حال مثل صورة ذلك العصر الذي لم يستطع التخلص من عادات الجاهلية

وتقاليدها تخلصاً كافياً. ثم درست في الشعبة الثانية عدداً من شعراء المهاجرين كعبد الله بن جحش وأخيه عبد، وعبد الله بن الحارث السهمي، ومقطوعات لبعض الشعراء كصفية بنت عبد المطلب، وهند بنت أثاثة، ونعم بنت سعيد. بالإضافة إلى شعر بعض الوافدين على الرسول الكريم كعباس بن مرداس، وعبد بن الطيب، والنابغة الجعدي، وليد بن ربيعة، وكعب بن زهير، والحطيئة. وشعراء الوافدين يمثلون الحلقة الثانية من شعراء صدر الإسلام، لذلك جاء شعرهم أكثر صدقاً ووعياً وتمثلاً لقيم الدين الحنيف.

وأشرت في الشعبة الثالثة إلى الشعر المناهض للإسلام، شعراء مكة كعبد الله بن الزبيري، وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب، وشعراء الطائف كامية بن أبي الصلت، وأبي محجن الثقفي. ثم شعراء اليهود ككعب بن الأشرف. ولقد كان طبعي أن يتنكر من أسلم من هؤلاء إلى شعرهم الذي قالوه في أثناء شركهم، وأن يُهمله الرواة والمؤرخون، ولا سيما أن التأريخ للأدب الإسلامي لم يتم إلا في مراحل لاحقة بعد أن استقر الإسلام وانتشر، وما حفظ منه حتى اليوم لا يصح أن يُهمَل لأنه يكمل الصورة الحقيقية لشعر تلك المرحلة الزمنية من عمر الإسلام.

وبعد، فانا لا أدعي لكتابي الكمال، فانا أعمل ومن يعمل يُخطيء ويُصيب، لكنني أرجو أن أكون مُصيباً في كثير من أفكاري وطروحاتي، ولا سيما أنني أعمل بجديّة الباحث الأكاديمي الناقد لنفسه قبل أن ينتقده الآخرون. لكنني أدرك أيضاً أن الله خلق الإنسان بقدرات عقلية محدودة عاجزة عن اكتناه أسراره. سبحانه عزّ شأنك وجَلّت قدرتك، إنك أنت العليم البصير، لا تؤاخذني إن أخطأت أو قصرت، فانا لا أبغي سوى مرضاة وجهك الكريم.

فايز ترحيني
١٥ تموز ١٩٩٠

الإسلام وعلوم القرآن

لست شيخاً مُعَمَّماً، ولا رجلَ دين، ولا مُتخصّصاً في الدراسات الإسلامية المُعمّقة. بل مُسلمٌ بالتَّبعية، مُسلمٌ بالأصالة، مُسلمٌ بالافتناع.

وَلَيْنُ كَانَ فَهْمُ الإِسْلَامِ وَبِالتَّالِي الكِتَابَةِ عَنْهُ لَا يُقْتَصِرُ عَلَى المَعْتَمِينَ فَقَطْ دُونَ غَيْرِهِمْ، مَنْ شَاءَ فَلْيَكْتُبْ شَرْطَ الوَعْيِ الكَافِي، وَالمَسْئُولِيَّةَ الأَكَادِيمِيَّةَ فِي تَحْمُلِ وَزْرِ الكَلِمَةِ. فَالْأَمْرُ مُهِمٌّ وَخَطِيرٌ، خَطِيرٌ بِقَدْرِ أَهْمِيَّتِهِ. وَرَغْمَ ذَلِكَ ارْتَأَيْتُ أَنْ أَرْكَبَ هَذَا المَرْكَبَ الخَشِنَ، يَدْفَعُنِي إِلَيْهِ أَمْرَانِ: التَّقَرُّبُ مِنَ اللَّهِ عِزِّ شَأْنِهِ، وَطَبِيعَةُ عَمَلِي فِي تَدْرِيسِ مَادَةِ صَدْرِ الإِسْلَامِ الَّتِي تَتَطَلَّبُ لِكَيْ تُفْهَمَ فَهْمًا مَقْبُولًا بَعْضًا مِنْ إِطْلَاعٍ عَلَى قِيَمِ الإِسْلَامِ، وَمَعْرِفَةٍ لِبَعْضِ عُلُومِهِ، هَذَا مَا حَاوَلْتَهُ، وَعَمَلِي يَنْدَرِجُ دَائِمًا فِي إِطَارِ المَحَاوَلَةِ.

القسم الأول: - معنى الإسلام

إِكْتَسَبَ الدِّينَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ اسْمَهُ الخَاصَّ «الإِسْلَامَ» مِنَ الْقُرْآنِ الكَرِيمِ. وَلَكِنَّا إِذَا تَتَبَعْنَا مَادَةَ «سَلَّمَ» وَنَشَأَ كَلِمَةَ الإِسْلَامِ، وَجَدْنَا أَنَّ مَعْنَى السَّلَامِ المُسَالَمَةُ وَضِدَّ المُسَالَمَةِ الحَرْبُ وَالخِصَامُ. جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الكَرِيمِ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ

الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا^(١). ولعل في هذه الآية ما يُنبئنا بصوابية تسمية العهد الذي سبق محمداً بالجاهلية، والعهد الذي تلاه عهداً إسلامياً. فالجاهلية كمعصر ليست من الجهل الذي هو ضد العلم، بل هي من الجهل الذي يعني السُّفَه والغضب والأنفة غير المُبررة. قال عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهلُ فوق جهلِ الجاهلينا^(٢).

فالجاهلية، كمرحلة زمنية، كانت تُنصَحُ بشعائر وتقاليد كعبادة الأوثان والأصنام، والتفاخر بالأحساب والأنساب والسُّفَه والغضب غير المبررين، وهي عاداتُ ألغاهها الإسلام، محاولاً تكريس التواضع والاعتداد بالعمل الصالح، والعبء من قيم الإسلام الفكرية والروحية والأخلاقية والاجتماعية. وهذا ما يُنقِضُ مقولة عمرو بن كلثوم في الجهل، ليصبح معنى قوله، بأن عباد الله هم الذين يمشون على الأرض بالحلم، لا يمكن أن يجهلوا على من يجهل عليهم، وبالتالي تُبرر نزعة السلام التي جاء بها الإسلام.

ثم أخذت مادة «سلم» معنى آخر، وهو معنى الخضوع والانقياد. وفي هذا المعنى جاءت الآية الكريمة: ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾^(٣)، والآية: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾^(٤). وقد أطلقها القرآن الكريم بهذا المعنى على المؤمنين والكافرين جميعاً، لأنهم خاضعون لله مُنقادون له، بِحُكْمِ خَلْقِهِ لَهُمْ، رَضَوْا أَمْ كَرِهُوا، تسري عليهم قوانين العالم، فلا يستطيعون الخروج عليها أبداً. قال تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ

(١) الفرقان: ٦٣.

(٢) الشنقيطي (أحمد) شرح المعلقات العشر، قدم له فايز ترحيني - دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٤، ص ٩٢.

(٣) الزمر: ٥٤.

(٤) آل عمران: ٢٠.

يُرْجَعُونَ ﴿١﴾، فكلٌّ من في السموات والأرض مُسَلِّمٌ بهذا المعنى، أي خاضعٌ لأمر الله، منقادٌ ومطيعٌ لما وضع الخالق من قوانين طبيعية.

ثم اقتضت مادة «سَلَّمَ» في الاستعمال على من أسلم وجهه لله طوعاً، فكان المسلم هو الذي رضي بطاعة الله، فاجتمعت له الطاعة الطبيعية والطاعة بالإرادة. وقريبٌ من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢). وبهذا المعنى تُطلق كلمة مُسلمٍ على كلٍّ من خضع لله وأطاع أي نبيٍّ من الأنبياء، فأتباع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد كلُّهم مسلمون، قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٣). وقال تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٤). وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ (٥). وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ﴾ (٦).

ثم خُصَّت كلمة الإسلام بالدين الذي جاء به محمد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (٧).

(١) آل عمران: ٨٣.

(٢) الروم: ٣٠.

(٣) النمل: ٢٩ - ٣١.

(٤) البقرة: ١٣٢.

(٥) آل عمران: ٦٧.

(٦) آل عمران: ٥٢.

(٧) آل عمران: ٨٥.

فالإسلام كدين عمادته الخضوع لله والانقياد له ، تدرج في معناه من شمولية عمّت الناس جميعاً ، إلى خصوصية اقتصرت على من آمن بالدين الحنيف الذي أنزل وحياً على رسول الله محمد بن عبد الله .

فالإسلام اكتسب اسمه الخاص من القرآن الكريم ، حيث ورد هذا اللفظ في آيات كثيرة، إسماً للدين الذي أرسل به محمد بن عبد الله ، وللدين الإلهي في مستوياته جميعاً على مدى العصور قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ (١) . وقال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ (٣) . وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ (٤) . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥) . وقال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (٦) .

والإسلام كدين لم يُنسب إلى الرسول الذي بُعث به ، وإنما تجرّد عن آية تسمية أرضية ، أو نسبة إلى بشري . في حين أنّ غيره من الأديان أو الديانات

(١) آل عمران : ١٩ .

(٢) آل عمران : ٨٥ .

(٣) الانعام : ١٢٥ .

(٤) الزمر : ٢٢ .

(٥) الصف : ٧ .

(٦) المائدة : ٣ .

نُسِبَت إلى مؤسسيها أو إلى قبائلهم كما في اليهودية والمسيحية والبوذية والزرادشتية والمانوية وغيرها^(١).

ومعنى كلمة الإسلام تعني الطاعة المطلقة لله دون سواه، ودون إشراك أحد معه. فالفكرة الأساسية عن الإله الواحد، تجعل له السلطة المطلقة، وتماثل التصرف، والحاكمية في الكون والمخلوقات. فهو على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، ورب كل شيء، وإليه الأمر كله.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢). وبالتالي فلا يمكن أن توجد قوة في الكون وفي الحياة قادرة على معارضة الله في حكمه النافذ، وإرادته التكوينية، أو منازعته في سلطانه.

والقرآن الكريم حافل بالآيات التي تدل على أن الإسلام هو الطاعة المطلقة لله دون سواه، ودون إشراك أحد معه في أي شأن، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٣).

فالإسلام يرفض رفضاً حاسماً ونهائياً العبودية لغير الله، ويحصر العبادة التي تعني الطاعة المطلقة وطلب المعونة بالله وحده، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾^(٤) وموضوع

(١) راجع: شمس الدين (محمد مهدي) بين الجاهلية والإسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٤، ص ٤٣.

(٢) آل عمران: ٢٦.

(٣) آل عمران: ٦٤.

(٤) هود: ١٢٣.

الطاعة المطلقة، وهي التعبير العملي عن العبودية لله، هو الدين المسمى بالإسلام، بما هو نظام كامل للحياة، يشمل مساحة الحياة الإنسانية كلها: عمقاً وامتداداً في الزمان.

فالمؤمن بالإسلام يعتقد أن لكل فعل من أفعاله حكم في الشريعة الإسلامية عليه أن يلتزم به، ويكون أميناً عليه، وحينما يُسلم المرء فإنه يلتزم بالخضوع والتسليم المطلق لله الذي لا حدّ لقدرته وسلطانه، ومن خلال التزامه بهذا الدين عقيدة وشريعة تنتظم حياته جميعاً. وبذلك ينقطع عن الاعتماد على أية قوة غير قوة الله، مما يخلق منه إنساناً جديداً في حياته الشخصية، والعامّة، في الممارسة الأخلاقية والسياسية والاقتصادية، في التعامل مع الله عابداً مُنيباً، وفي التعامل مع الكون المادي المُسخّر له سيّداً فاعلاً.

ورسالة الإسلام ليست مذهباً إصلاحياً يتناول جانباً خاصاً من جوانب الحياة ويُهمل الجوانب الأخرى. إنّما هي عقيدة ثورية شاملة ومُستوعبة لمظاهر النشاط الإنساني جميعاً. فالإسلام يُركّز دائماً على إصلاح الإنسان من الداخل، بالإضافة إلى إصلاح مؤسسات المجتمع، وتنظيم العلاقات الإنسانية على أسسٍ تستمدّ معناها من الإنسان^(١).

القسم الثاني: تعاليم الإسلام.

تنقسم تعاليم الإسلام إلى عقائد وأعمالٍ، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾^(٢).

(١) راجع: شمس الدين (محمد مهدي) بين الجاهلية والإسلام، ص ٥٦.

(٢) البقرة: ٢ - ٤.

تضمنت هذه الآية الكريمة تعاليم الإسلام عقائد وأعمالاً. ففي العقائد نجد أن أساسها الاعتقاد بالله. وهذا الاعتقاد يكاد يكون عاماً بين الشعوب، فلا تكاد أمة مُبتدئة أو متحضرة تخلو من اعتقاد بإله، لكن فكرة الألوهية وأوصاف الآلهة تختلف بينها اختلافاً كبيراً. فالإسلام يصف الله بأوصافٍ - إذا جاز التعبير - مُستقاة من القرآن الكريم.

فالله ليس إله قبيلة، ولا إله أمة العرب وحدها، ولا إله الناس فقط. بل هو إله كل شيء، هو ﴿رب العالمين﴾. قال تعالى: ﴿الله ما في السموات وما في الأرض﴾^(١). وقال تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾^(٢).

بالإضافة إلى أن مظاهر الكون جميعاً صدرت عن الله وهو ﴿الذي سخر لكم البحر﴾^(٣). ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تُميدَ بكم﴾^(٤) و﴿الله الذي رفع السموات بغير عمدٍ ترونها﴾^(٥) ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾^(٦) - وقد أحاط علمه بكل شيء، وأحاطت قدرته كل شيء قال تعالى: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقط من ورقةٍ إلا يعلمها ولا حبةٍ في ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مُبين﴾^(٧) وهو

(١) البقرة: ٢٨٤.

(٢) البقرة: ٢٩.

(٣) النحل: ١٤.

(٤) النحل: ١٥.

(٥) الرعد: ٢.

(٦) نوح: ١٧.

(٧) الانعام: ٥٩.

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١﴾ و ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢﴾. وَاللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ أَحَدٌ، فَلَيْسَ فِي الْإِسْلَامِ تَعُدُّدِيَّةٌ أَوْ مَشَارَكَةٌ فِي الْأُلُوْهِيَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ﴿٣﴾. ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ﴿٤﴾.

وَقَدْ اخْتَارَ اللَّهُ أَفْرَاداً مِنْ خَلْقِهِ وَاتَّصَلَ بِهِمْ بِمَا يُسَمَّى «الْوَحْيِ» قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ ﴿٥﴾.

وَالْغَرَضُ مِنْ هَذَا الْوَحْيِ أَنْ يَعْلَمَ الرَّسُولُ النَّاسَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ بِلِسَانِ قَوْمِهِ، لِهَدَايَتِهِمْ إِلَى الْخَيْرِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ﴿٦﴾.

وَهَذَا الْوَحْيِ لَمْ يَكُنْ عَنْ طَرِيقِ تَجْسِيدِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا مِنْ طَرِيقِ رُوحِي، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿٧﴾.

وَأَصُولُ الْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ كُلِّهَا وَاحِدَةٌ، تَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعَدَمِ الشَّرْكِ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ ﴿٨﴾.

(١) العنكبوت: ٦٢.

(٢) الطلاق: ١٢.

(٣) البقرة: ١٦٣.

(٤) المائدة: ٧٣.

(٥) النساء: ١٦٣.

(٦) إبراهيم: ٤.

(٧) الشورى: ٥١.

(٨) يوسف: ١٠٩.

وهناك وراء هذه الحياة حياة أخرى وموعدها يوم القيامة أو اليوم الآخر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (١).

وفي ذلك اليوم يُثَابُ المرءُ على عمله الصالح، ويُعاقب على الطالح منه. فأعمال المخلوق تُسَجَّلُ في كتابٍ يَلْقَاهُ كُلُّ يَوْمٍ الْقِيَامَةَ منشوراً، قال تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (٢).

وجعل الله للمثوبة والعقوبة دارين: دار المثوبة وهو الجنة، ودار العقوبة وهي النار، كما جعل في الجنة نوعين من الثواب، نوع مختص باللذائذ الجسمية، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (٣).

ونوع روحي وهو رضوان الله والقرب منه، قال تعالى: ﴿ورضوانٌ من الله أكبرُ﴾ (٤).

كما جعل لدار العقوبة ناراً حامية ثم سخطاً من الله وغضبه. وجعل الله وراء هذا العالم المادي عالماً روحياً. وفيه نوعان من الأرواح: نوعٌ خَيْرٌ يُطِيعُ الله في ما أمره به، يجذب نفوس الناس إلى الخير ويُسمى عالم الملائكة، ونوع شرير يُغوي النفوس إلى الشر وهو عالم الشياطين (٥).

وإلى جانب العقائد التي أتى بها الإسلام هناك أعمال يجب على المسلم أداؤها وهي:

(١) المؤمنون: ١٥ - ١٦.

(٢) الإسراء: ١٣ - ١٤.

(٣) البقرة: ٢٥.

(٤) التوبة: ٧٢.

(٥) راجع: أمين (أحمد) فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٩، ص ٧٣.

الصلاة: وهي في أوقات معلومة، وليست الصلاة في نظرنا فريضة جسدية تُؤدَّى قياماً وقعوداً، بل هي صلة عميقة بين المُصلي وربّه، بالإضافة إلى أنها تُنظّم علاقة المُصلي بمجتمعه، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (١).

الزكاة: وهي أن يُؤخذُ قسم من مال الغني للفقير وللصالح العام، وقد ربط القرآن الكريم بين الصلاة والزكاة، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (٢).

وإلى جانب الصلاة والزكاة أوجب الإسلام حج البيت الحرام، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (٣).

ويتصل بالعادات التي أوجبها القرآن على المسلمين، ما يُسمى بالخُلُقِ الكريم والأخلاق الحسنة، ففي القرآن الكريم نوعان من الأخلاق، أولهما: تعليم آداب اللياقة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ (٤). وقال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ (٥).

والثاني: وهو أسمى ما تدعو إليه الأخلاق، ويمثل بالوفاء بالوعد، والصبر في الشدائد، والعدل مع مَنْ أحببت أو كرهت، والنفوس عند المقدر، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ

(١) العنكبوت: ٤٥.

(٢) المزمل: ٢٠.

(٣) آل عمران: ٩٧.

(٤) النساء: ٨٦.

(٥) النور: ٢٧.

وَالْمُنْكَرَ وَالْبَغْيَ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ .

والى جانب ذلك هدم الإسلام وحدة القبيلة، وجعل المؤمنين كلهم سواسية، لا تفاضل بين المسلمين إلا بطاعة الله وتنفيذ أوامره، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (٢) . وحتم الإسلام الطاعة لله ثم للرسول وأولي الأمر، ما أطاع أولو الأمر أوامر الله، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (٣) .

وإذا نظرنا إلى الإسلام من زاوية رؤيوية أخرى، نجد أنه أقر قيماً لا يمكن أن تُعدَّ وتُحصى، لأن الإسلام دينٌ كاملٌ وليس بعده كمالٌ، وفيه حلولٌ فِكْرِيَّةٌ لمشاكل البشر العالقة والطارئة، لذلك لا يُمكن الإحاطة بكنهه إحاطةً تامةً. وأما الكلام عن الإسلام وقيمه فيبقى دائماً في إطار المحاولة.

ففي القيم الروحية نجد أن الإسلام ركّز على الإيمان بوحداية الله، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (٤) وبالتالي لا عبودية لغير الله .

والإنسان في الإسلام مَشْدُودٌ إلى إرادة ربه ومشيتته لكنه حرٌّ في مشيئته الصغرى مما يجعله مسؤولاً أمام ربه عن عقيدته وأعماله وما كسبت يده، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (٥) . وقال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (٦) .

(١) النحل: ٩٠ .

(٢) الحجرات: ١٣ .

(٣) النساء: ٥٩ .

(٤) الإخلاص: ٢ وما بعدها .

(٥) الكهف: ٢٩ .

(٦) الإسراء: ٧ .

والإسلام لا يريد إنساناً آلياً في عباداته وأعماله، بل جعل الإيمان العقلي هو الإيمان الأصوب، فاحتكم إلى العقل في الدلالة على صحة البعث، قال تعالى: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (١).

وَيُنْجِي الْقُرْآنَ بِاللَّائِمَةِ عَلَى مَنْ لَا يَسْتَعْمِدُونَ عَقُولَهُمْ فَيُسَبِّحُهُمْ بِالْأَنْعَامِ الَّتِي لَا تَعْقِلُ، فَهَمَّ لَا يَخْتَلِفُونَ فِي شَيْءٍ عَنِ الصُّمِّ وَالْبُكْمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (٢).

وَيُشِيرُ الْقُرْآنُ إِلَى أَنَّ اللَّهَ وَهَبَ الْإِنْسَانَ فَضِيلَةَ الْعَقْلِ، وَمَكَّنَهُ مِنَ السَّيْطَرَةِ عَلَى مَخْلُوقَاتِهِ جَمِيعاً قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ (٣).

ولذلك كانت المعرفة المُستبصرة ركناً أساسياً في الإسلام، فمن أسلم من غير فهمٍ وتبصُّرٍ كان إسلامه منقوصاً، إذ أن الإسلام الصحيح يقوم على الفهم والاعتناء لا على المحاكاة والتقليد للأباء والأسلاف.

وانطلاقاً من هذه القناعة لا نجد تعارضاً بين الإسلام والعلم اليقيني قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤).

والى جانب ذلك حمّل الإسلام العلماء أمانة الدين الحنيف، وجعل لهم حقَّ الاجتهاد في فروعِهِ، وحقَّ استنباط الأحكام، فأصبح الاجتهاد بالرأي أصلاً من أصول الإسلام حين نفتقر إلى نصٍّ في الكتاب أو السنة.

(١) يس: ٧٨.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

(٣) يونس: ٥.

(٤) الزمر: ١٠.

وهكذا فإنَّ الإسلام رفع من شأن العقل الإنساني وجعله الحَكَمَ في فروع الشريعة، وحثَّ على استكمال سيطرته على الطبيعة وقوانينها، وأجاز له التزوّد بالمعارف جميعاً.

وفي الناحية الاجتماعية ألغى الإسلام فكرة القبيلة وما يربط بين أبنائها من نَسَب، وأوجد مكانها رابطة الأمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (١).

فأصبحت بذلك الرابطة الدينية، لا الرابطة القبلية هي التي توحد بين الناس، ولتوثيق عُرى تلك الرابطة نقل الإسلام حقَّ الأخذ بالثأر من القبيلة إلى الدولة.

وأخذ الإسلام يُرسي القواعد الاجتماعية لهذه الأمة التي أرادها أمة مثالية يتعاون أفرادها على الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر. فالناس سواسية في الصلاة والمناسك والحقوق والواجبات، والفرد لا يعيش لنفسه وحدها، وإنما يعيش أيضاً للجماعة.

وعني الإسلام أيضاً بتنظيم العلاقات الخاصة والعامة بين البشر، فنظّم الميراث والمعاملات التجارية والحياتية بين الناس قال تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ (٢).

كما عني بتنظيم حقوق المرأة فردّ إليها حقوقها وجعلها كُفُوًا للرجل، لها ما له من الحقوق قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٣).

وحرم الوأد والبغاء، ونظّم الزواج وجعله فريضة محببة إلى الله ونعمة من

(١) الأنبياء: ٩٢.

(٢) الأعراف: ٨٦.

(٣) البقرة: ٢٢٨.

نعمه قال تعالى: ﴿وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (١). وحلّل الإسلام الطلاق، لكنّه جعله أبغض المحلل إليه .

ولم يهمل الإسلام الناحية الإنسانية، فرفع من شأن المسلم اجتماعياً وعقلياً وروحياً. فحرره من الشرك وعبادة القوى الطبيعية، وأكثر من ذلك سحرها له ولمنفعتيه فلا غرو أن جعل الله الإنسان خليفته في أرضه ووكيله فيها، خلقه ليسودها، ويخضع كلّ ما في الوجود لسيطرته قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (٢) .

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ (٣) . ودعا الإسلام إلى تحرير العبيد، والتسامح الديني، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (٤) .

وحثّ على معاملة معتنقي الديانات السماوية الأخرى معاملة حسنة. ولكنه دعا إلى الدفاع عن الدين دون العدوان قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥) .

كما أنه حثّ على السلم والسلام فقال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (٦) .

(١) الروم: ٢١ .

(٢) البقرة: ٣٠ .

(٣) البقرة: ٣٤ .

(٤) البقرة: ٢٥٦ .

(٥) البقرة: ١٩٠ .

(٦) الأنفال: ٦١ .

وهكذا فإن الإسلام دين قيمٍ روحية وعقلية واجتماعية وإنسانية، دعا إلى استخدام العقل، وفضل الإنسان على العالمين، وأرسى القواعد المثالية بين البشر، وبذلك هو دين كامل موصى به من لدن رب عليم كريم.

القسم الثالث: علوم القرآن الكريم

لا شك في أنّ الله سبحانه وتعالى وهو العليم بكل شيء، كان يُدرك ما سيتعرض له القرآن من افتراءات وتَقَوّلاتٍ، تصدر في أكثرها عن مغرضين لا جهال. فالقرآن الكريم لم يُعْتَرِه تحريفٌ أو تبديلٌ رغم النزاع السياسي بين المسلمين، ولم تُغَيّر معانيه ومبانيه صُروفِ الدَّهرِ وإنقضاء الزمن، ولم يَنْقُصْ مُعْجَزَاتِهِ تَقَدُّمُ الْعِلْمِ وإرتقاء العقل البشري. فالله الذي أنزله مُنْجِماً على نبينا محمد، خَلَقَ الْعَقْلَ الْبَشَرِيَّ وَمَكَّنَهُ مِنْ عِلْمٍ واكتشافات واختراعات تترا، وكُلَّمَا تَقَدَّمَ الْعَقْلُ وارتقى وجد نفسه مسبوقاً بآيات من القرآن الكريم. لذلك نحن نقول: أن لا تَعَارُضَ بين الدِّينِ والعلم، فكلاهما من نِبْعَةٍ واحدة.

أولاً - مقدمة في معنى الوحي والقرآن:

خصَّ اللهُ سبحانه وتعالى كلاً من أنبيائه بمعجزة، وكانت معجزة محمد (ﷺ) القرآن الكريم، فأُنزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى الرَّسُولِ الْكَرِيمِ وَحِيّاً، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (١).

والوحي المُنْزَلُ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نَبِينَا مُحَمَّدٍ فِيهِ تَبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ مُعْجَزَتُهُ الْخَالِدَةُ الَّتِي عَجَزَ الْبَشَرُ عَنْ مَجَارَاتِهَا بِلَاغَةٍ وَفَصَاحَةٍ، وَفِيمَا اِحْتَوَى مِنْ حَقَائِقَ وَمَعَارِفَ. إِذْ لَا يُعْتَرِيهِ تَبْدِيلٌ أَوْ تَغْيِيرٌ أَوْ تَحْرِيفٌ.

(١) النجم: ٤.

والقرآن الذي بين أيدينا هو القرآن نفسه المُنزل على الرّسول الكريم،
ومن ادعى غير ذلك فهو محرّفٌ أو مُغالطٌ أو مُشْتبه، وكلّهم على غير هدى^(١)
فالقرآن ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(٢).

والوحي معناه الإلهام والفهم والاستنتاج، ولقد تمّ إنزال الوحي بأنواع
أربعة: الأول: كان جبرائيل يأتي الرّسول الكريم على صورة رجل إعرابي،
فيكلمه ويسأله ويُلقِي إليه ما يُريد إلقاءه بكلامٍ واضح مبين.

والثاني: كان جبرائيل يأتيه في مثل صَلْصلة الجرس، أو على هيئة التي
خلقه الله بها، وهي صورة ملك له أجنحة.

والثالث: النَّفْثُ في الرُّوع، وذلك يعني إلقاء المعنى في خاطر الرسول
إلقاءً.

والرابع: تكليم الله للرسول بلا واسطة، كما حصل في حادثتي الإسراء
والمعراج^(٣).

وبنتيجة هذا الوحي أنزل القرآن الكريم على الرّسول الكريم.

والقرآن هو كلام الله المُنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين بواسطة
جبرائيل. والقرآن يُعتبر بسوره وآياته جميعاً أصح وثيقة تاريخية تشريعية أدبية
عرفتها الحضارة الإنسانية قاطبة.

والقرآن لغة: مصدر مرادف للقراءة، وهو مَهْمُوز على وزن فُعْلان، مُشْتَق

(١) الموسوي الزنجاني النجعي (إبراهيم) عقائد الامامية الإثني عشرية، مؤسسة الوفاء،
بيروت، ١٩٨٣، م ١، ص ٤٩.

(٢) فصلت: ٤٢.

(٣) خضر (محمد) أدب صدر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨١، ص ١١.

من القرء بمعنى الجمع، أو هو من قرأ بمعنى تلا، ومنه قوله: ﴿إِن عَلَيْنَا جَمْعَهُ
وَقْرَآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١).

والعربُ في الجاهلية حين عرفوا لفظ قرأ، استخدموه بمعنى غير معنى
التلاوة. فكانوا يقولون: هذه الناقة لم تقرأ سلى قط، أي أنها لم تحمل مَلقوحاً،
ولم تَلدُ ولدًا، ومنه قول عمر بن كلثوم: هِجَانُ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينًا (٢).

أما قرأ بمعنى تلا، فقد أخذها العرب من أصل آرامي وتداولوها. وعلى
آية حال فإن تداول العرب قبل الإسلام للفظ قرأ الآرامي الأصل بمعنى تلا، كان
كافياً لتعريبه واستعمال الإسلام له في تسمية كتابه العزيز (٣).

والقراءة ضَمَّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، والقرآن
في الأصل كالقراءة مصدر قرأ قراءة وقرآنًا. وفي تسميته بالقرآن إشارة إلى حفظه
في الصدور، ولقد وردت كلمة القرآن في حوالي سبعين آية في الكتاب العزيز.

وإلى جانب التسمية الرئيسية القرآن، فهناك تسميات أخرى منها الكتاب،
إشارة إلى جمعه في السطور، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ
آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٤).

لأن الكتابة جمعٌ للحروف ورسمٌ للألفاظ. ومنها أيضاً الفرقان، قال
تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (٥).

(١) القيامة: ١٨ .

(٢) ابن منظور (محمد) لسان العرب، م ١، ص ٢٦، مادة اقرأ .

(٣) الصالح (صبيحي) مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٩،
ص ٢٠ .

(٤) آل عمران: ٧ .

(٥) الفرقان: ١ .

ولفظ الفرقان في الأصل آرامي أيضاً، ومعناه التفرقة بين الحق والباطل، والفرقان مصدر.

ومن تلك التسميات الذكر قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١). ولفظة الذكر عربية خالصة. وسمي القرآن بالذكر لما فيه من ذكر الله أو من التذكير والمواظ. ومنها كذلك التنزيل قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢). ولفظة التنزيل عربية خالصة، وهي تُشعر بأن التنزيل وحيُّ يُوحى منزلاً على قلب الرسول الكريم.

هذه هي الأسماء الشائعة، غير أن بعضهم بالغ في تعداد أسماء القرآن وألقابه، فبلغت عند بعضهم خمساً وخمسين^(٣) في حين وصلت عند بعضهم الآخر إلى التسعين، وفيها جميعاً خلط بين التسمية والوصف^(٤).

ويجوز في السورة من القرآن الهمز وترك الهمز كما في لغة قريش. وأمّا الآية فأصلها العلامة، ثم سميت الجملة من القرآن بالآية لأنها علامة على صدق الرسول الكريم^(٥).

ثانياً - نزول القرآن:

ابتدأ نزول القرآن على الرسول الكريم في سنة ٦١١م، وتحديدًا في ليلة القدر التي هي إحدى الليالي العشر الأواخر من شهر رمضان، قال تعالى:

(١) الحجر: ٩.

(٢) الشعراء: ١٩٢.

(٣) راجع: البنداق (محمد صالح) المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٣، ص ٢١.

(٤) راجع: الصالح (صباحي) مباحث في علوم القرآن، ص ٢١.

(٥) راجع ابن جزي الكلبي (محمد بن أحمد) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٣، م ١، ص ٥.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ (١) .

واستمرت مُدَّة نزوله عشرين عاماً أو ثلاثاً وعشرين حسب الاتفاق أو الاختلاف حول عمر الرسول الكريم يوم توفى بين الستين أو الثلاث والستين . وكانت تنزل عليه آية واحدة، أو آيات متفرقات أو سورة بكاملها (٢) .

فنزول القرآن كان مُنجمًا أي مُقسَّمًا بحسب المناسبات المتعددة . وهي :
إمَّا التَّلَطُّفُ بِالنَّبِيِّ الْكَرِيمِ ، وَالتَّخْفِيفُ عَلَيْهِ فِيمَا يَلْقَاهُ مِنْ شِدَّةٍ وَعَنْتٍ عِنْدَ نَزْوِلِ الْوَحْيِ ، أَوْ تَثْبِيتُ فُؤَادِ الرَّسُولِ إِذَا مَا كَانَ يَتَعَرَّضُ لَهُ مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ ، أَوْ رَسُوخِ الْأَحْكَامِ وَالذِّقَّةِ فِي فَهْمِهَا ، أَوْ تَسْهِيلُ حِفْظِهِ لِانْتِشَارِ الْأُمِّيَّةِ بَيْنَ الْعَرَبِ ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّ الرَّسُولَ كَانَ أَمِيًّا لَا يُحْسِنُ الْقِرَاءَةَ أَوْ الْكِتَابَةَ . وَإِمَّا لِتَقْدِيمِ الْحُلُولِ الطَّارِئَةِ ، أَوْ لِجَوَابِ عَنِ سْؤَالٍ . وَهَنَّاكَ قَسَمٌ مِنَ الْآيَاتِ نَزَلَ دُونَ مَنَاسِبَةٍ مَنْظُورَةٍ أَوْ مَبَاشِرَةٍ ، كَقِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالسَّابِقِينَ (٣) .

فنزول القرآن على الرسول الكريم منجمًا، سهَّل عليه وعلى الصحابة قراءته على مكث، وبشكل يتدرج مع الأحداث والوقائع والمناسبات الفردية والاجتماعية التي تعاقبت في حياة الرسول، وهذا ما ثبت فؤاد الرسول من ناحية، ويسر حفظه وتلاوته من ناحية أخرى (٤) .

وتقسم سور القرآن حسب مكان نزولها إلى ثلاثة أقسام، قسم مكِّي وهي السور التي نزلت في مكة، ويُعدُّ فيها كل ما نزل قبل الهجرة وإن اتفق على

(١) البقرة: ١٨٥ .

(٢) راجع: ابن جزى الكلبي (محمد) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل م ١، ص ٤ .

(٣) أمين (أحمد) فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٩، م ١، ص ١٩٥ .

(٤) الصالح (صبحي) مباحث في علوم القرآن، ص ٦٤ .

مكان نزولها في غير مكة، وعددها تسع وسبعون سورة. وقسم مدني بالاتفاق وهي السور التي نزلت في المدينة، ويُعدّ فيها كل ما أتفق على نزوله بعد الهجرة، رغم نزول بعضها في غير المدينة، وعددها اثنتان وعشرون سورة. وقسم فيه اختلاف أهومكي أم مدني وعدد سوره ثلاث عشرة سورة.

والسور المكيّة نزل أكثرها في إثبات العقائد، والردّ على المشركين، وفي قصص الأنبياء، في حين نزل أكثر السور المدنية في الأحكام الشرعيّة. وعلى العموم فكل ما ورد فيه يا أيها الذين آمنوا فهو مدني، وأمّا ما ورد فيه يا أيها الناس فهو بين المكي والمدني (١).

ولا بد من الإشارة إلى النسخ والمنسوخ؛ والنسخ في اللغة هو الإزالة والنقل. وفي الشريعة: رفع الحكم الشرعي بعد ما نزل. ووقع النسخ في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه:

الأول: نسخ اللفظ والمعنى كقوله تعالى: ﴿لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم﴾ (٢).

والثاني: نسخ اللفظ دون المعنى كما كان قد ورد في سورة النور - حسب ما نعلم الشيخ والشيخة إذ زنيا فأرجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم.

فُنسِخت وأصبحت ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ (٣).

(١) ابن جزري الكلبي (محمد) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل م ١، ص ٥.

(٢) نقلًا عن: ابن جزري الكلبي (محمد) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل م ١، ص ١٠.

(٣) النور: ٢.

والثالث: نسخ المعنى دون اللفظ وهو كثير. والنسخ يتعلق بالأحكام لأنها محل النسخ، إذ لا تُنسخ الأخبار، ولا بُدَّ من معرفة ما وقع في القرآن من النَّاسخ والمنسوخ والمُحْكَم. والمحكم هو ما لم يُنسخ، ولا بُدَّ من معرفة أسباب النزول وتاريخه لِيُحْكَم حُكماً صحيحاً على النَّاسخ والمنسوخ، لأنَّ المُتَأَخَّر ناسخٌ للمتقدم (١).

ثالثاً - القرآن جمعاً وكتابةً:

يُفْهَم في لفظة «جمع» القرآنَ مَعْنَيَانِ: معنى الحفظ ومعنى الكتابة. فمنذ أن بدأ الوحي بالنزول على الرسول الكريم في غار حراء، شرع النبي في حفظ كلِّ ما أنزل عليه، ثم كان يجمع أهله وصحابته فيحفظهم القرآن. وهذه المهمة العسيرة يسرها الله على الرسول وصحابته بقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (٢).

فالجمع بمعنى الحفظ والاستظهار في لوح القلب، قد أوتيهِ الرَّسُولُ قَبْلَ الْجَمِيعِ، فكان سيّد الحُفَاطِ وَأَوَّلَ الْجَمَاعِ، وتيسر ذلك لِنُخْبَةِ مَنْ صَحَابَتِهِ، منهم الخلفاء الراشدين وزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن مسعود، وسعد بن أبي وقاص، وأبي موسى الأشعري، وأنس بن مالك.

وأما الجمع بمعنى الكتابة فقد تمَّ على ثلاث مراحل في عهود ثلاثة في الصدر الأول للإسلام:

الأولى: في عهد الرسول وعلى يديه.

والثانية: في عهد أبي بكر.

والثالثة: في عهد عثمان بن عفان.

(١) ابن جزى الكلبي (محمد) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل م ١، ص ٧.

(٢) القيامة: ١٧.

ففي عهد الرسول إتخذ النبي كُتَاباً للوحي فيهم الخلفاء الراشدين ، فكان يأمرهم بكتابة كل ما يُوحى إليه من آيات القرآن الكريم وسوره . وكانت الكتابة أو الجمع تتم تَوْقِيفِيّاً بأمر من الرسول . فإذا ما أنزلت آية كان الرسول يدعو بعض من يُحسن الكتابة ويقول : «ضعوا هذه الآية في الموضع الذي يُذكر فيه كذا وكذا» . وهذا يعني أن ترتيب الآيات في السورة الواحدة ، ووضع البسمة في أوائل السور ، هو ترتيب أوقفه جبرائيل على الرسول ، والنبي بدوره أوقفه على الصحابة وكتاب الوحي وهذا ما يُقصد بالترتيب التوقيفي (١) .

أما ترتيب السور فلم يكن توقيفاً (٢) ، بل كان اجتهاداً من الصحابة ، لكن ذلك الترتيب كما هو في المصحف الذي نتلوه اليوم لم يدعُ أحدٌ من الصحابة إلى مخالفته ، رغم ما أثار عن وجود مصاحف في ذلك العصر كانت مخالفة لذلك الترتيب ثم تلاشت . فمما لا شك فيه أن بعض الصحابة جمعوا القرآن كله في

(١) وتروي بعض المراجع أن علي بن أبي طالب ، كان يرى أن كلمة « طَلَع » هي المقصودة في آية ﴿ وَطَلَعَ مَنْضُودٌ ﴾ فإذا ما قرىء عليه ﴿ وطلح منضود ﴾ قال ما بال الطلح؟ أو ما تقرأ ﴿ وطلح منضود ﴾ . فقيل له : « يا أمير المؤمنين : أنحكها في المصحف؟ » أي أنصحها؟ قال : « لا يُهاجُ القرآن اليوم » . راجع : البنداق « محمد صالح » المستشرقون وترجمة القرآن الكريم ، دار الأفاق الجديدة بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ١٠٣ .

(٢) وهناك رأي جاء به الدكتور صبحي الصالح - حسب ما نعلم - فقال : « وأما ترتيب السور فتوقيفي أيضاً ، وقد عُلِمَ في حياة الرسول ، وهويشمل السور القرآنية جميعاً ، ولسنا نملك دليلاً على العكس ، فلا مسوغ للرأي القائل أن ترتيب السور اجتهادي من الصحابة » .

راجع : الصالح (صبحي) مباحث في علوم القرآن ، ص ٧١ ، ونحن إذ لا نملك أحقية الشك - فهذا من شأن المتخصصين بعلم القرآن - من توقيفية السور كما أرادها الدكتور صبحي الصالح ، نتساءل عن الغاية من هذا الجمع الغير ممنهج ، إذ لم يتبع في جمع السور الترتيب الطولي ، أو المكي ، أو المدني ، أو حسب النزول ، أو غيرها من الأسباب التي تتلاءم مع أهمية القرآن بصفته أصح وثيقة إنسانية ، فضلاً عن أنه كتاب موحي به ومنزل من لدن ربّ عليم .

عهد الرسول، وقد اختلفوا في تعيينهم. بيد أنهم أجمعوا على نفرٍ منهم: علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود. وهؤلاء كانوا مادة هذا الأمر من بعد. لكن المصاحف التي أشتهرت في ذلك الحين كانت مصحف ابن مسعود الذي قرأ بمكة وعرض جمعه على الرسول. ومصحف أبي بن كعب فقد قرأ بعد الهجرة، وعرض جمعه على الرسول في ذلك الوقت. ومصحف زيد بن ثابت الذي قرأ بعدهما، وكان عرضه متأخراً عن الجميع، وهو آخر عرضٍ للقرآن عرض على الرسول في سنة وفاته، وبقراءة زيد كان الرسول يقرأ إلى أن لحق بربه، لذلك اختار المسلمون جمع زيد بن ثابت.

أما علي بن أبي طالب فقد ذكر بعضهم أن له مصحفاً جمعه حسب النزول وذلك أنه أقسم - لما رأى في الناس طيرة بعد وفاة الرسول - أن لا يضع رداء على ظهره حتى يجمع القرآن، فجلس في بيته حتى جمع القرآن، وهو أول مصحف جمع فيه القرآن، جمعه من قلبه^(١).

وفي الفهرست لابن النديم أنه رأى عند أبي يعلى حمزة الحسيني مصحفاً بخط علي، يتوارثه بني الحسن، وهو مرتب بحسب النزول^(٢). ولكنه فقد، ولو وجد هذا المصحف لكان فيه علم كبير^(٣).

وعلى آية حال فإن كتاب الوحي كانوا يكتبون آيات القرآن الكريم في الرقاع، واللخاف، والعُسب، والأكتاف، والأقتاب، وقطع الأديم

(١) راجع: الأصبهاني (أبونعيم) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥م، ١م، ص ٦٧.

(٢) نقلاً عن: الرافي (مصطفى صادق)، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٤، ج ٢، ص ٣٥.

(٣) ابن جزى الكلبي (محمد) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، ص ١٤.

والكرانيف^(١) . وغير ذلك ممّا تيسّر لهم ويصلح لغرضهم . وهذه الأنواع المُستعملة تُشعرنا بأدوات الكتابة التي كانت متيسّرة لمثل هذا الغرض في ذلك الزمان .

ولكن كلامنا عن الجمع هذا لا يعني أنّ القرآن الكريم جُمع بين دفتي كتاب في عهد الرسول، بل إنّ آيات القرآن الكريم وسوره كان أكثرها مجموعاً - أي مكتوباً - على أدوات الكتابة تلك، بالإضافة إلى جمعه أي حفظه في الصدور .

وبعد أن نهض أبو بكر الصديق بأمر الخلافة، حدثت الرّدّة، وكثرت الحروب والغزوات . ففي غزوة أهل اليمامة وقتال مُسَيْلِمة الكذّاب، قُتل سبعون قارئاً من الصحابة، إذ كان أكثر المجاهدين من الصحابة والقُرّاء، وكان قد قتل مثل هذا العدد في غزوات سابقة . فَخشي عمر بن الخطاب أن يذهب القرآن أو جزء منه بذهاب القُرّاء، فأشار على أبي بكر بجمعه، فقبل الصديق بعد تردّد، وكلف بهذه المهمة زيد بن ثابت الأنصاري وكان من كتبة الوحي، فجمع ما كان مُدوّناً عند الصحابة في تلك الرقاع، وربما وجد السّورة الواحدة مكتوبة عند غير واحد، فجمع تلك الصحف المُتفرقة، وكتب ما كان لم يزل بَعْدُ في صدور القُرّاء، بشكل غير مرتّب السّور، وأودعت تلك الصحف جميعاً في

(١) الرقاع: جمع رقعة، وقد تكون من جلد أو ورق .

اللخاف، جمع لخفة، وهي الحجارة الدقيقة، أو صفائح الحجارة .
العُسب: جمع عسيب، وهو قُحُوف النخل، أي أنّهم كانوا يكشفون الخواص، ويكتبون في الطّرف العريض .

والأكتاف: جمع كتف وهو عظم البعير أو الشاة يكتبون عليه بعد أن يجف .
الأقتاب: جمع قتب وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه .
قطع الأديم: الجلد . الكرناف جمع كرانيف: أصول الكرب تبقى في الجذع بعد قطع السعف .

منزل أبي بكر حتى وفاته سنة ١٣ هـ، ثم في منزل عمر بن الخطاب، وبعد وفاته في سنة ٢٣ هـ، انتقلت المصاحف إلى منزل إبنته حفصة من أزواج الرسول وهذا هو الجمع الثاني^(١).

وأما الجمع الثالث فكان في عهد عثمان بن عفان، ففي ذلك الزمن اتسعت الفتوحات، وتفرق المسلمون في مصر والشام والعراق وإيران وإفريقيا، وفيهم القراء وعند بعضهم نسخ من القرآن. وقد رتب كل منهم سورها ترتيباً خاصاً، فعول أهل كل مصر على من قام فيهم من القراء. فأهل دمشق وحمص مثلاً أخذوا عن المقداد بن الأسود. وأهل الكوفة أخذوا عن ابن مسعود، وأهل البصرة عن أبي موسى الأشعري. ومع شدة عناية القراء بضبطه، لم يندم الاختلاف في قراءة بعض سوره^(٢).

وأنفق في أثناء ذلك أن حذيفة بن اليمان كان في جملة من حضر غزو أرمينيا وأذربيجان، فرأى في أثناء سفره إختلافاً بين المسلمين في قراءة بعض الآيات، وسمع بعضهم يقول لبعض: «قرآني خير من قرآنك، فرأعه الأمر، وأنذر عثمان بسوء العاقبة إن لم يتلاف الأمر، قائلاً: أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب إختلاف اليهود والنصارى»، فبعث عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا الصحائف ننسخها في المصاحف ثم نردّها إليك، فأرسلتها. فدعا عثمان زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وأمرهم أن ينسخوا القرآن قائلاً لهم: «إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء فاكتبوه بلغة قريش، فإنما أنزل بلسانهم» ففعلوا ذلك سنة ٣٠ هـ، وكتبوا منها ست نسخ، أرسل عثمان نسخة إلى كل من مكة والبصرة والكوفة

(١) راجع: الصالح (صبيحي). مباحث في علوم القرآن، ص ٧٥.

(٢) المرجع السابق: ص ٧٧.

والشام، وأبقى نسختين في المدينة، واحدة لأهلها وواحدة لنفسه. وهذا المصحف هو الذي سُمي بالمصحف الإمام، ثم أمر أن يُجمع ما كان قبل ذلك من المصاحف والمصحف لِتُحرق أو تُحرق^(١) وكان ترتيب سورته إتفاقاً. فأصبح المَعْوَلُ في المصاحف على ما كتبه عثمان، ثم اشتغل المسلمون في الأمصار بالاستنساخ، فنسخوا أعداداً منه في زمن قليل.

جُردت مصاحف عثمان من جميع الزيادات التي لم تتوافر قرآنيّتها - بالحفظ والكتابة - وخصوصاً تلك التي كانت من قبيل التفسير أو تفصيل المُجمل. وأضحت آياتها وسورها مرتبة على النحو الذي نجده في مصاحفنا المتداولة اليوم.

وكان من نتائج خلو المصاحف العُثمانية من الإعجام والشُّكل، أن تعددت وجوه القراءات بعد بضعةٍ وأربعين سنة، يوم أصبح الناس لا يُميزون بين الكلمات المُتشابهة بالسُّليقة دون الحاجة إلى الشُّكل بالحركات أو الاعجام بالنقط. وفي أثناء خلافة عبد الملك بن مروان، وبعد أن كُثرت التصحيفات في قراءة القرآن، أخذت التّحسينات طريقها إلى الرّسم القرآني، وقد أسهم الحجاج بن يوسف الثقفي (- ٩٥هـ/٧١٣م) في عملية نقط القرآن، لكنّ الإسهام الهام كان لأبي الأسود الدؤلي (- ٦٩هـ/٦٨٨م) الذي جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، وعلامة الكسرة نقطة أسفله، وجعل علامة الضمة بين أجزاء الحرف، وعلامة السكون نقطتين، كما أسهم كلّ من يحيى بن يعمر، ونصر بن عاصم اللّيثي في تحسين عملية نقط القرآن وشكله.

وكلّما امتدّ الزّمن بالناس، إزدادت عنايتهم بتيسير الرّسم القرآني، وقد اتّخذ هذا التّيسير أشكالاً مختلفة، فكان الخليل بن أحمد الفراهيدي

(١) راجع: الصالح (صبيحي) مباحث في علوم القرآن، ص ٧٨.

(١٠٠ - ١٧٠هـ/٧١٨ - ٧٨٦م) أول من صنّف النُقَطَ ورسمها في كتاب، وأول من وضع الهمزة والتشديد والتفت إلى الرُّومِ والأشْمام^(١). ولم يكد أبو حاتم السجستاني يؤلف كتابه في نَقَطِ القرآن وشكّله، حتى أصبح رسم المصاحف قد قارب الكمال.

وفي نهاية القرن الثالث الهجري، بلغ الرّسم القرآني ذروله في الجودة والإتقان، وأصبح النّاس يتنافسون في إختيار الخطوط الجميلة وإبتكار العلامات المميّزة.

وقد ظهر القرآن الكريم مطبوعاً للمرة الأولى في البندقية سنة ١٥٣٠م، ثم في هانسبورغ سنة ١٦٩٤م، ثم ظهرت أول طبعة إسلامية خالصة للقرآن الكريم في سانت بطرسبورغ في روسيا سنة ١٧٨٧م، وهي التي قام بها مولاي عثمان. كما أنّ إيران قدّمت طبعتين حجريتين الأولى في طهران سنة ١٨٢٨م، والثانية في تبريز سنة ١٨٣٣، ثم شرعت الأستانة في الإهتمام بهذا الأمر منذ سنة ١٨٧٧م، وفي سنة ١٩٢٣ ظهرت في القاهرة طبعة أنيقة جميلة ودقيقة للقرآن الكريم وكانت تحت إشراف مشيخة الأزهر^(٢).

ومما يجب قوله أنه لا ينبغي أن يظنّ أحدٌ أنّ المسلمين أو بعضهم يرى في جمع عثمان هنات أو سقطات أوريب، بل كان الجميع وسيبقون متفقين أن عثمان «كتب المصاحف على اللفظ الذي استقر عليه في العرضة الأخيرة التي عرضها النبي على جبرائيل»، وهو لا يأتيه الباطل مهما تقوّل المتقولون. وإن قيل أنّ عليّ بن أبي طالب أو غيره جمع القرآن حسب ترتيب نزوله، أو حسب

(١) الروم: الحركة في الوقف على المرفوع والمجرور... روم الحركة: حركة مختلصة تستعمل لضرب من التخفيف.

الأشمام: الإشارة إلى حركة الضم من غير إبلاغ بها ولا تصويت، أي مثل حرف «u» بالافرنجية.

(٢) راجع: الصالح (صباحي) مباحث في علوم القرآن ص ٩٨ وبعدها.

ترتيب خاص بكل منهم، فهذا لا يعني شكاً أو ارتياباً في آياته، بل ربما يكون اجتهاداً منهم في ترتيب سورة لا غير والله أعلم.

رابعاً - الأحرف والقراءات:

كثرت الاجتهادات حول المُراد بالأحرف السبع، خصوصاً أن هذا التعبير يرتبط مباشرة بالرسول الكريم، روى جمعٌ من الصحابة أن الرسول الكريم قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤا ما نيسر منه»^(١). ويبدو أن المُراد بالحرف هنا الوجه^(٢) كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾^(٣).

وإذا اختلف العلماء في المعنى المُراد بالأحرف السبعة، لكنهم اتفقوا على أن لا يكون المُراد بها قراءة الحرف الواحد في القرآن جميعاً بأحرف سبعة أو وجوه سبعة.

وإذا كنا لسنا معنيين بإيراد أساليب اختلافهم حول المُراد بالأحرف السبعة، فهذا من شأن المُتخصصين في العلوم القرآنية، لكننا نشير إلى رأي نجد فيه كثيراً من الصواب. وهو أن اللفظ القرآني الواحد مهما يتعدد أداؤه، وتتنوع قراءته، لا يخرج التغير فيه عن الوجوه السبعة التالية:

١ - الاختلاف في وجوه الإعراب، سواء أغير المعنى أم لم يتغير. فما تغير فيه المعنى كقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾^(٤). فقد قرئ

(١) صحيح البخاري ١٨٥/٦، ويقرب من هذا ما جاء في تفسير الطبري ١٠/١، ومسند أحمد ٢٤/١، والبرهان في علوم القرآن ٢١١/١.

(٢) التفتازاني الهروي «ابن الحفيد» الدر النضيد، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٠، ص ٣٩.

(٣) الحج: ١.

(٤) البقرة: ٣٧.

﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾ ومما لم يتغير المعنى كقوله تعالى :
﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾^(١) فقد قرىء : ﴿ولا يضار﴾ .

٢ - الاختلاف في الحروف إما بتغيير المعنى دون الصورة، وهو ما يُعبّر عنه أحياناً بالاختلاف في اللفظ مثل ﴿يعلمون وتعلمون﴾ . وإما بتغيير الصورة دون المعنى مثل ﴿الصراط والسرط﴾ و ﴿المصيطنون والمسيطرون﴾^(٢) . وقد رسم في المصاحف بالصاد المُبدلة من السين التي هي الأصل، فوافقت قراءة الصاد رسم المصاحف تحقيقاً، وقراءة السين رسم المصحف تقديراً .

٣ - إختلاف الأسماء في إفرادها وتثنيها وجمعها وتذكيرها وتأنثها مثل :
﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾^(٣) . فقد قرىء : ﴿لأمانتهم﴾
بالإفراد . ومن الواضح أنها رُسمت في المصاحف العثمانية ﴿لأمتهم﴾
لخلوها من الألف الساكنة، ومؤدّى الوجهين واحد . لأن في الإفراد قصداً
للجنس، وفي الجنس معنى الكثرة . ولأن في الجمع إستغراقاً للإفراد،
وفي الإستغراق معنى الجنسية، فرعاية «الأمانة» كرعاية «الأمانات» تشمل
الكليات والجزئيات .

٤ - الاختلاف بإبدال كلمة بكلمة يغلب أن تكون إحداهما مرادفة للأخرى
كقوله تعالى : ﴿كالعهن المنفوش﴾^(٤) فقد قرىء كالصوف المنفوش،
وكقوله تعالى : ﴿طلع منضود﴾^(٥) . فقد قرىء طلع منضود . ولا يُخفى

(١) البقرة: ٢٨٢ .

(٢) من قوله تعالى : ﴿أم هم المصيطنون﴾ الطور: ٣٧ .

(٣) المؤمنون: ٨ .

(٤) القارعة: ٥ .

(٥) الواقعة: ٢٩ .

أن مخرج العين والحاء واحد وهو الحلق، فهما أختان تتعاقبان، فلذلك حصل الاختلاف.

٥ - الاختلاف في التقديم والتأخير فيما يعرف وجه تقديمه أو تأخيره في لسان العرب العام، أوفي نسق التعبير الخاص، كقوله تعالى في شأن المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يُقاتلون في سبيل الله: ﴿فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾^(١).

فقد قرىء: ﴿فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾. ففي الحرف الأول يسرع المؤمنون إلى قتل أعدائهم، وفي الحرف الثاني كأنما يتلهفون إلى ساحة المعركة تلهفاً لعل الله يتخذهم شهداء. فإذا اختلفت صياغة التعبير بالتقديم والتأخير فإن مؤدى الحرفين ما انفك واحداً لم ينله شيء من التغيير.

٦ - الاختلاف في شيء يسير من زيادة أو نقصان جرياً على عادة العرب في حذف أدوات الجر والعطف تارة وإثباتها طوراً، فمن الزيادة قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٢). قرىء: ﴿من تحتها الأنهار﴾. وهما قراءتان متواترتان. ومن النقصان قوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً﴾^(٣). قرىء: ﴿قالوا﴾ بنقصان الواو.

٧ - اختلاف اللهجات في الفتح والإمالة، وكسر حرف المضارعة كقوله تعالى: ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾^(٤). قرىء: بإمالة أتى وموسى

(١) التوبة: ١١١.

(٢) التوبة: ١٠٠.

(٣) البقرة: ١١٦.

(٤) طه: ٩.

نحو الكسر. ثم الاختلاف في الترقيق والتفخيم كقوله تعالى: ﴿خَيْرًا
بصيرًا﴾. بترقيق الرءين، و﴿الصلاة﴾ و﴿الطلاق﴾ بتفخيم اللامين.
ثم الاختلاف في الهمز والتسهيل كقوله تعالى: ﴿قد أفلح﴾ (١). و﴿قل
أوجي﴾ (٢). بترك الهمزة ونقل حركتها من أول الكلمة الثانية إلى آخر
الكلمة الأولى وهو ما يسمونه تسهيل الهمزة.

والاختلاف أيضاً بكسر حروف المضارعة كقوله تعالى: ﴿لقوم
يعلمون، نحن نعلم، وتسود وجوه، ألم أعهد﴾ بكسر حروف المضارعة
في جميع هذه الأفعال. والاختلاف في قلب الحروف كقوله تعالى:
﴿حتى حين﴾ فالهذليون يقرأون ﴿عتى عين﴾ بقلب حاء حتى وحين
عيناً. ثم الاختلاف في إشباع ميم جمع الذكور كقوله تعالى: ﴿عليهم
دائرة السوء﴾ (٣) ﴿ومنهمو من يلمزك في الصدقات﴾ (٤). بإشباع ميم
جمع الذكور في كلتا الآيتين. ثم الاختلاف أخيراً في إشمام (٥) بعض
الحركات كقوله تعالى: ﴿وغيض الماء﴾ (٦) بإشمام ضمة الغين نحو
الكسر (٧).

ومهما قيل حول المراد بالأحرف السبعة، فإنه ينحصر في التخفيف
والتيسير على المسلمين الذين تعددت قبائلهم، واختلفت لهجاتهم وتباين

(١) المؤمنون: ١.

(٢) الجن: ١.

(٣) التوبة: ٩٨.

(٤) التوبة: ٥٨.

(٥) الإشمام: الإشارة إلى حركة الضم في غير إبلاغ بها ولا تصويت، أي مثل حرف «U»
بالإفريقية وهو معنى مجازي بملحظ أنه حركة مختلصة كما لو أنها شماً، أو بملحظ
الارتفاع بحركة الكسر إلى الضم.

(٦) هود: ٤٤.

(٧) راجع: الصالح (صبيحي) مباحث في علوم القرآن ص ١٠٨ - ١١٣.

أداؤها لبعض الألفاظ، فكان لا بُدَّ أن تراعي لهجاتها وطريقة نطقها، ومن هذا المنطلق يفهم الحديث الشريف القائل: «أقراني جبرائيل على حرفٍ، فراجعتهُ، فلم أزل أستعيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف»^(١).

أما القراءات السبع فهي مذاهبٌ في النطق، كان يذهب بها شيوخ الإقراء، وعُرفت منذ عهد الصحابة حيث اشتهر بالإقراء سبعة نفر من المقرئين هم: عثمان، وعلي، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وإبن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري.

وفي عهد التابعين اشتهر سبعة أُنخر، منهم أبو عمر بن العلاء (- ٥٤ هـ)، وعبد الله بن عامر اليحصبي (- ١١٨ هـ)، وعبد الله بن كثير (- ١٢٠ هـ)، وعاصم بن بهدلة الأسدي (- ١٢٨ هـ) وحَمزة بن حبيب الزيات (- ١٥٦ هـ)، ونافع بن نعيم (- ١٦٩ هـ) وعلي بن حمزة الكسائي (- ١٨٩ هـ) إمام النحاة في الكوفة. وقراءات هؤلاء التابعين هي المَتَّفِق عليها إجماعاً ولكل منهم سندٌ في روايته^(٢).

وهذه القراءات لم يُتَّفَق عليها إجماعاً عدداً وترتيباً، فذهب بعضهم إلى أنها عشر أو أكثر^(٣)، وتنحصر جميعاً في أنها مشهورة أو شاذة، والمشهورة هي التي استقام نقلها، والشاذة ما لم يستقم، رغم أنها قد تكون فصيحة اللفظ أو قوية المعنى، لكنها فقدت شرطاً من شروط الاستقامة التي تنحصر في: موافقتها لمصحف عثمان ولو احتمالاً، وموافقتها للعربية ولو بوجه فصيح، ثم صحة إسنادها.

(١) صحيح البخاري ١٨٥/٦.

(٢) الرافي (مصطفى صادق) تاريخ آداب العرب م ٢، ص ٥٦.

(٣) راجع: زيدان (جرجي) تاريخ التمدن الإسلامي، م ٣، ص ٦٧.

فإذا اِنْفَقَت هذه الشُّرُوط الثلاثية لقراءة ما، فهي المشهورة الصحيحة،
وإذا اِخْتَلَّ ركنٌ أو أكثر فهي شاذة أو ضعيفة أو باطلة (١).

ومن المفيد ذكره أنّ اختلاف القُرَاء يعود إلى نوعين: فَرَشُ الأحرف
وأصول. فأما الفرش فهو ما لا يرجع إلى أصل مضطرد، ولا قانون كلي
وهو على وجهين: اِخْتِلافٌ في القراءة باختلاف المعنى وبتفاهق المعنى.

وأما الأصول: فالاختلاف فيها لا يُغَيِّر المعنى، وهي ترجع إلى ثمانٍ
قواعد.

الأولى: الهمزة وهي في حروف المَدِّ الثلاثة، فيُزاد فيها على المد
الطبيعي بسبب الهمزة والتقاء الساكنين.

والثانية: وأصلها التحقيق، ثم قد يُحَقِّق على سبعة أوجه: إبدال واو،
أو ياء، أو ألف، وتسهيل بين الهمزة والواو، وبين الهمزة والياء، وبين الهمزة
والألف، وإسقاط.

والثالثة: الإِدْغام والإِظهار. والأصل الإِظهار ثم يحدث الإِدْغام في
المثلين، أو المتقاربين، وفي كلمة أو كلمتين. وهو نوعان: إدغام كبير
وهو إدغام المتحرك، وإدغام صغير وهو إدغام الساكن.

والرابعة: الإِمالَة: وهو أن تُنحو بالفتحة نحو الكسرة، وبالألف نحو الياء
والأصل الفتح، وتوجب الإِمالَة الكسرة والياء.

والخامسة: الترقيق والتفخيم والحروف على ثلاثة أقسام تُفَخِّم في كل
حال:

(١) التفتازاني الهروي (ابن الحفيد) الدر النضيد، ص ٤١.

الأول: يشمل حروف الاستعلاء السبعة (١).

والثاني: هو مُفَخَّم تارة ومُرَقَّق طوراً وهي: الراء واللام والألف. فأما الراء فأصلها التفتيح وتُرَقَّق للكسر والياء، وأما اللام فأصلها الترفيق وتُفَخَّم لحروف الإطباق (٢). وأما الألف فهي تابعة في التفتيح والترفيق لما قبلها.

والثالث: يشمل الحروف المرققة التي تشمل سائر الحروف الباقية.

والسادسة: الوقف وهي على ثلاثة أنواع: يكون جائزاً في الحركات الثلاث، ورَّوم (٣) في المضموم والمكسور، وإشمام في المضموم خاصة.

والسابعة: مراعاة الخط في الوقف.

والثامنة: إثبات الياءات وحذفها (٤).

خامساً - تحدي القرآن وإعجازه:

لكل أمة من الأمم ميزة خاصة تُعرف بها، ولئن كان العرب أهل فصاحة وبلاغة وبيان طبعوا عليها ووسموا بها، وأصبحت من سجايهم وخصائصهم المميزة، جاء القرآن بلغتهم هذه التي بلغت درجة متقدمة في الكمال البلاغي

(١) حروف الاستعلاء: الاستعلاء هو خروج صوت الحرف من أعلى الفم، وذلك لعائد

اللسان عند النطق بالحرف إلى الحنك الأعلى. وحروف الاستعلاء سبعة وهي:

الخاء، الصاد، الضاد، الطاء، الظاء، الغين، القاف.

(٢) حروف الإطباق: الإطباق هو انحصار صوت الحرف بين اللسان والحنك الأعلى،

لارتفاع ظهر اللسان إلى الحنك الأعلى حتى يلتصق. وحروف الإطباق أربعة وهي:

الصاد، الضاد، الطاء، الظاء. راجع: الصالح (صبيح). دراسات في فقه اللغة،

بيروت، المكتبة الأهلية، ١٩٦٢، ص ٣٢٦-٣٢٧.

(٣) الرُّوم: الحركة في الوقف على المرفوع والمجرور. روم الحركة: حركة مختلصة

تستعمل كضرب من التخفيف.

(٤) ابن جزي الكلبي (محمد) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ص ١٢.

والبياني تجلّى في المعلقات، وفي ما أثر عنهم من خطابة.

لذلك لم يكن عجباً أن تحدّى الله سبحانه وتعالى الناس جميعاً وفي مقدمتهم أمة العرب، أن يأتوا بمثل هذا القرآن قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (١).

وبعد أن أعجزهم ذلك، هَوّن الله الأمر عليهم، وتحذاهم أن يأتوا بعشر سورٍ من مثله، قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ﴾ (٢).

وحين أعجزهم الأمر من جديد هَوّن الله سبحانه وتعالى الأمر عليهم مجدداً، فتحذاهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ﴾ (٣).

ثم كرّر التحدي وأكدّه هذه المرّة بأنهم أفراداً وجماعاتٍ منقسمين ومتظاهرين لم يستطيعوا ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (٤).

ولم يكتفِ سبحانه وتعالى بتحدي الناس جميعاً، بل أشرك معهم الجنّ مجتمعين فقال: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (٥).

ولئن كان هذا التحدي نوعاً من الإعجاز، فلا بدّ من الاهتمام بدلائل إعجاز القرآن التي كثرت فيها الاجتهادات. وإذ كنّا لا ندعي الإحاطة بها

(١) الطور: ٣٤.

(٢) هود: ١٣.

(٣) البقرة: ٢٣.

(٤) يونس: ٣٨.

(٥) الإسراء: ٨٨.

جميعاً - لأنها أيضاً من شأن المتخصصين في الدراسات القرآنية - إلا أننا نشير إلى بعض ما جاء في كتابات الأقدمين والمحدثين .

يرى المتصفح لكتب الأقدمين وبعض كتب المحدثين التي انتهجت نهج القدماء، إهتماماً بالغاً بالإعجاز القرآني حتى لا يكاد يخلو كتاب تناول الدراسات القرآنية من فصلٍ تطرّق إلى وجوه الإعجاز تلك . فالقرآن الكريم منظور على وجوه من الإعجاز كثيرة . ونحن سنحاول الإشارة إليها إشارة لا تغني عن الرجوع إلى المصادر الأساسية وأمات الكتب، ولكننا نعتقد أنها تكفي لاستيعاب الطالب الجامعي وخصوصاً دارس أدب صدر الإسلام .

١ - الإعجاز و «القبان» :

سنحاول في التفاتنا إلى إعجاز القرآن الكريم، أن نتحدث عنه في كتب القدماء وممن شاكلهم في أسلوبهم ولغنتهم ومنحى تفكيرهم من المحدثين، وهذا ما سنسميه الإعجاز في القبان، لأننا اعتبرنا القبان رمزاً للعراقة والقدم .

تشمل دلائل إعجاز القرآن الكريم في ما تشمل : حسن تأليفه، والتتام كليمه، بالإضافة إلى فصاحته وبلاغته ووجوه إيجازه ودلالاته المتعددة الوجوه التي لَمَّا يُمَطُّ اللّثام عنها بَعْدُ، خصوصاً أنّ القرآن الكريم نزل في أمة العرب التي خُصَّتْ بالبلاغة وَدَرَابَةِ اللّسان . فما راعها إلا كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه . فأحكمت آياته، وفُصِّلَت كلماته، وبَهَرَت بلاغته العقول، وتظافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، واعتدل مع إيجازه حسن نَظْمه، وإنطبق على كثرة فوائده مختاراً لفظه(١).

فالقرآن الكريم مع كونه مركباً من الحروف الهجائية المُقرّرة، عجز الخلق

(١) اليحصبي (القاضي عياض) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٤، م ١، ص ٣٦١ .

عن تركيب مثله، وهذا سرّ من أسرار إعجازه.

فالله سبحانه وتعالى ذكر في مطالع بعض السور حروفاً ما زالت تشغل أذهان الدارسين. ف ﴿ألم﴾ مثلاً قد يكون معناها، أنّ هذا القرآن الذي أنزل من الألف واللام والميم وسواها، هو ببلغتكم وحروف هجائكم، ومع ذلك يعجز الإنسان والجن مجتمعين عن الإتيان بآية من مثله.

فالقرآن الكريم كان يقرّع الكافرين أشدّ تقرّيع، ويوبّخهم غاية التوبيخ ويُسّفه أحلامهم، ويشتت نظامهم الاجتماعي والديني. والكفار جميعاً مُحجّمون عن مماثلته، يخادعون أنفسهم تارة كقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾^(١). أو كقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾^(٢) أو كقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٣). أو يرضون بالدنيّة والدونية تارة أخرى كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾^(٤). أو كقولهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾^(٥). أو كانوا يدعون المقدره على الإتيان بمثله لكنهم مُحجّمون كقولهم: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾^(٦).

ويأتي في هذا الإطار أنّ الوليد بن المغيرة عندما سمع من الرسول الكريم الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٧).

(١) المدثر: ٢٤.

(٢) الفرقان: ٤.

(٣) الانعام: ٢٥.

(٤) البقرة: ٨٨.

(٥) فصلت: ٤.

(٦) الأنفال: ٣١.

(٧) النحل: ٩٠.

قال الوليد: «والله إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أسفلهُ لمُغدق، وإنَّ أعلاه لمُثمر ما يقولُ هذا بشرٌ» (١).

وتجدر الإشارة أنَّ العرب كانوا إذا أنشأوا كلاماً أو شعراً في غاية الفصاحة والبلاغة علَّقوه على أستار الكعبة إفتخاراً، والمُعلِّقات خير دليل على ذلك. ولكن عندما نزلت الآية الكريمة: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ اقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢) رفعوا المعلقات وأخفوها.

ويرى المتفحص لهذه الآية أنَّ عدد كلماتها سبع عشرة كلمة، في حين إنَّ فيها عشرين لوناً من ألوان البلاغة وهي: الجناس وهو هنا المناسبة في لفظتي: ﴿أقْلعي وابْلعي﴾، والمجاز في يا سماء: إذ المُراد حقيقة مطر السماء. والمطابقة اللفظية بين كلمتي السماء والأرض، والإشارة في قوله: ﴿وغيضَ الماء﴾ إذ لا يغيض الماء إلا بعد أن ينقطع المطرُ من السماء وتبلع الأرض ما عليها من ماء. ثم الازداف في قوله: ﴿واستوت على الجودي﴾ حيث تشير إلى استمرار السفينة بلا إهتزاز أو ميل بعد أن بلعت الأرض الماء وانقطع المطرُ من السماء وتوافر لها ما تستقر عليه من هدوء واطمئنان. في حين أنَّ تعبير ﴿وقُضي الأمر﴾ يحمل أكثر من لون من ألوان الإعجاز، ففيه بيان هلاك الكافرين، بالإضافة إلى الإشارة الضمنية لنجاة المؤمنين. ثم الاحتراس في قوله: ﴿وقيل بُعْدًا للقوم الظالمين﴾ حتى لا يتوهَّم أحدٌ أنَّ الهلاك قد يصيب الناس، فحدّدت الألفاظ أنَّ الهلاك هو للظالمين فقط لا غير.

(١) نقلًا عن اليحصبي (القاضي عياض) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، م ١، ص ٣٦٥.

(٢) هود: ٤٤.

ومن وجوه إعجاز الآية أيضاً المساواة، فاللفظ لا يحتمل سوى معناه. ثم الترتيب بحسب التتابع الزمني، فالعطف لبيان هذا الترتيب، فالإيجاز المعجز الخالي من العيوب.

ومنها كذلك أنّ تلك الآية تضمّنت وقائع عديدة، ثم قصة طويلة. ومنها أيضاً التسهيم إذ يقتضي أول الآية آخرها حتماً وبقيناً. ثم التهذيب لأن ألفاظها سهلة مخارج الحروف. ثم الفصاحة لأنها خالية من العيوب، فالتركيب السليم الحسن البيان. ثم الدلالة الخالية من التعقيد. وفيها كذلك التمكين فالفاصلة مستقرة في قرارها. ثم يعد من دلائل إعجازها سلامة اللفظ (١).

ومن جهة ثانية فإنّ إعجاز القرآن ينبثق من غرابة أسلوبه وأعجوبة نظمه. فأسلوبه يتميز عن أساليب البلغاء والفصحاء والشعراء والحكماء جميعاً. وتتجلى أهمية هذا الأسلوب وإعجازه، بأن الكفار والمشككين نسبوه إلى السحر. فوجه إعجازه في هذا المجال هو: صورة نظمه العجيب، وأسلوبه الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، ومناهج نظمهم ونثرهم. فلم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحدٌ مماثلة شيء منه، بل احتارت فيه عقولهم، وتدلّته دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله من جنس كلامهم من نثرٍ أو نظمٍ أو سجعٍ أو رجزٍ أو شعرٍ.

ثم إنّ المتفحص للقرآن الكريم لا يجد إختلافاً في معانيه، ولا تناقضاً في مبانيه، ولو كان مُفترياً كما زعم الكفار، لكثُر فيه الاختلاف والتناقض والتضاد. كما أنّ المتفحص للقرآن الكريم، لا يجد كلمة واحدة خالية من الفصاحة، خارجة على نظمه وأسلوبه (٢).

(١) راجع: نوفل (عبد الرزاق)، معجزة الأرقام الترقيم في القرآن الكريم، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٨.

(٢) الموسوي الزنجاني النجفي (إبراهيم) عقائد الإمامية الاثني عشرية، مؤسسة السوفاء، =

ويتصل بهذه الناحية من نواحي إعجاز القرآن مُشاكلةً أجزائه للكُلِّ، وحسن إئتلاف أنواعها، وإلتئام أقسامها، وحسن التخلُّص من قصة إلى أخرى، والخروج من باب إلى غيره على اختلاف معانيه، وانقسام السورة الواحدة إلى أمر ونهي، وخبر وإستخبار ووعد ووعيد، وإثبات نُبوَّة وتوحيد، وترغيب وترهيب وغير ذلك (١).

ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم إشتماله على الإخبار بالأمور المستقبلية والأحداث السالفة. فما يتصل بالإخبار بعلم الغيب أو الأمور المستقبلية، كإخباره بأحوال الكفار والمنافقين، وما يُضمرونه في قلوبهم ويخفونه في نفوسهم، وكإخباره لما سيُحقق الرّسول الكريم من انتصارات، قال تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (٢) أو كإخباره بغلبة الرّوم قال تعالى: ﴿أَلَمْ غَلَبَتْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَبْعُدْ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٣).

وفي تفصيل الحدث أنّ الفرس غلبت الرّوم في حرب دارت بينهما في أدنى الأرض، أي في أقرب الأرض لبلاد العرب، واستمرت الحرب بينهما ثمانية أعوام، بدأت قبل نزول أوّل الوحي على الرّسول الكريم بسبع سنين، ودامت حتى السنة التالية له. أي أنها بدأت عام ٦٠٣م واستمرت حتى عام ٦١١م. ثم نزلت الآية الشريفة في سورة الرّوم، والرّسول في مكة، وقبل هجرته إلى المدينة بثلاثة أعوام. أي أنها نزلت في عام ٦١٩م، علماً أنّ الرّسول هاجر إلى المدينة في عام ٦٢٢م. وحَدَّدت الآية أنّ النّصر سيتمّ في بضع سنين، أي

= بيروت ١٩٨٣، م ١، ص ٥١.

(١) اليحصبي (القاضي عياض) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، م ١، ص ٣٩٥.

(٢) الفتح: ٢٧.

(٣) الرّوم: ١-٣.

لا يتجاوز التسع، وفعلاً إنتصر الروم على الفرس في عام ٦٢٨م^(١)، والله عليم قدير.

وأما ما يتصل بالأحداث السالفة فكإخباره بأحوال الأمم البائدة والشرائع الدائرة، وبقصص الأنبياء وأصحاب الكهف وذوي القرنين وغيرها، علماً أن الرسول الكريم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولا إشتغل بمُدارسة الحكماء، ولا سيما أصحاب التوراة والإنجيل والزبور. فالقرآن الكريم أخبر عن كثير من الحقائق السابقة، من ذلك قصة أهل الكهف قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾^(٢).

وبعد مرور أكثر من أربعة عشر قرناً استطاع المُنقبون إكتشاف مكان ذلك الكهف وشكله، فإذا به يقع حيث حدّده القرآن تماماً. في حين لم يقطع به غيره يقيناً. فلقد وجدت البعثات الأثرية على مقربة من عمّان في الأردن قرية صغيرة اسمها الرقيم، فيها كهف أبنيته منحوتة في الصخر، ومقصورته فسيحة خالية من البناء، والشمس تبعد بأشعتها عنه عند بزوغها، وتميل عنه في غروبها. وهذا ما قرره القرآن الكريم حين قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَرَبَتِ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾^(٣).

ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم أيضاً ما اشتمل عليه من الآداب الكريمة والشرائع القويمية، ونظام العباد والبلاد والمعاش، ورفع النزاع في المعاملات والمناكحات والمعاشرات، والحدود والأحكام والحلال والحرام، مما تحيّر فيه عقول الأنام، وأذعن له أولو العقول والافهام. ولو اجتمع جميع العقلاء

(١) راجع: نوفل (عبد الرزاق) معجزة الأرقام والترقيم في القرآن الكريم ص ٣٣.

(٢) الكهف: ٩.

(٣) الكهف: ١٧، راجع: نوفل (عبد الرزاق) معجزة الأرقام والترقيم في القرآن الكريم ص ٣٣.

والْحُكَمَاءِ، وَبَدَلُوا تَمَامَ جَهْدِهِمْ، وَسَعَوْا غَايَةَ سَعْيِهِمْ فِي بِنَاءِ قَاعِدَةِ لِنِظَامِ الْعَالَمِ
وَالْعِبَادِ (١) لَمَا اسْتَطَاعُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا .

وَمِنْ دَلَائِلِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَذَلِكَ الرَّوْعَةِ الَّتِي تَلْحَقُ قُلُوبَ سَامِعِيهِ
وَأَسْمَاعِهِمْ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ، وَالْهَيْبَةِ الَّتِي تَعْتَرِيهِمْ لِقُوَّةِ بَيَانِهِ . فَقَارِئُهُ لَا يَمْلَهُ، وَسَامِعُهُ
لَا يَمُجُّهُ، بَلْ يَزْدَادُ الْإِعْجَابَ بِهِ مَعَ كَثْرَةِ التَّلَاوَةِ وَالتَّرْدِيدِ . بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَنَّهُ آيَةٌ
بَاقِيَةٌ لَا تُعْدَمُ مَا بَقِيَ الدَّهْرِ . فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَكْفُلُ بِحِفْظِهِ قَالَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ
نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٢) .

وَلِهَذَا وَصَفَهُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ بِأَنَّهُ لَا يَخْلَفُ عَلَى كَثْرَةِ الرُّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي
عِبْرَهُ وَلَا تَفْنِي عَجَائِبَهُ، هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، لَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا تَزِيغُ
بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجَنُّ حِينَ سَمِعَتْهُ أَنْ قَالَتْ:
﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ (٣) .

وَيَتَنَاوَلُ الْإِعْجَازَ الْقُرْآنِيَّ التَّأْلِيفَ الصَّوْتِيَّ الَّذِي يَكَادُ يَكُونُ مُوسِيقِيًّا مَحْضًا
فِي التَّرْكِيبِ وَالتَّنَاسُبِ بَيْنَ الْجَرَسِ فِي الْحُرُوفِ، وَالْمُلَاءَمَةِ بَيْنَ طَبِيعَةِ الْمَعْنَى
وَالصَّوْتِ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى تَقَلُّبِ الصُّورِ اللَّفْظِيَّةِ فِي بَعْضِ الْحُرُوفِ وَالْكَلِمَاتِ،
فَأَضَحَّتْ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ نَوْعًا مِنَ التَّحْقِيقِ أَوْ الْحَدْرِ أَوْ التَّدْبِيرِ (٤) . دُونَ أَنْ يَصِلَ

(١) الموسوي الزنجاني النجفي (إبراهيم) عقائد الامامية الاثني عشرية، م ١، ص ٥١ .

(٢) الحجر: ٩ .

(٣) الجن: ١-٢ راجع اليحصبي (القاضي عياض) الشفا بتعريف حقوق المصطفى:
م ١، ص ٣٩٠ .

(٤) التحقيق: وهو إعطاء كل حرف حقه، مع مقتضى ما قرره العلماء من ترتيل وتؤدة
الحذر: إدراج القراءة وسرعتها، مع مراعاة شروط الأداء الصحيحة .
التدبير: التوسط بين التحقيق والحذر .

ذلك إلى درجة الغناء أو التلحين بأنواعه: التّرعيد والتّرقيص، والتّطريب،
والتّخزين، والتّريد^(١).

ويتصل بإعجاز القرآن الكريم صعوبة ترجمته إلى لغات أعجمية، بل
استحالتها، ومسألة ترجمة القرآن ليست حديثة العهد، بل ترجع إلى زمن
الرسول. ولقد ذكّر غير واحد من الرواة أنّ أهل فارس طلبوا من سلمان الفارسي
أن يكتب لهم «الفتحة» بالفارسية، ففعل. ولم ينكر الرسول الكريم عمله.

ويذكر بعض الرواة أيضاً أنّ أبا حنيفة أجاز ترجمة الفتحة إلى الفارسية
ولكن لم ينقل عنه أنه أجاز ترجمة غيرها.

ولقد أفاض القدماء في معالجة ترجمة القرآن الكريم، فأجمع فقهاؤهم
على أنه لا يجوز قراءة القرآن بغير العربية، لا في الصلاة ولا خارجها، لأنّ
ترجمته ستُخرجه حتماً عن إعجازه، فضلاً عن أنه أنزل بلسان عربي مبين.
ولقد أوضح الله سبحانه وتعالى ذلك في أكثر من موضع قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ
قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٢). وقال تعالى أيضاً: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى
قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾^(٣).

وفي مقابل هذا الرأي القائل بتحريم ترجمة القرآن تحريماً تاماً، هناك

(١) التّرعيد: وهو أن يرعد القارئ بصوته، والتّرقيص: وهو أن يروم السكون على
الساكن، ثم ينقر مع الحركة، كأنه في عدو أو هرولة. والتّطريب: وهو أن يترنم
القارئ ويتنغم، فيحدّ في غير موضع من مواضع الحد، أو يزيد في مواضعه.
التّخزين: وهو أن يأتي بالقراءة على وجه حزين يكاد يبكي من خشوع وخضوع.
التّريد: وهو ردّ الجماعة على القارئ في ختام قراءته بلحن واحد. راجع: الرافعي
«مصطفى صادق» تاريخ آداب العرب، م ٢، ص ٥٩.

(٢) يوسف: ٢.

(٣) الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥.

رأي مفاده أن تحريم الترجمة ربما كان المقصود به تحريم التلاوة فقط، وهذا يعني جواز ترجمته للعمل به في غير التلاوة، على أن تقتصر الترجمة على الآيات المُحكّمت وأركان العبادات^(١).

ومهما يكن من أمر ونَحْنُ في القرن الخامس عشر للهجرة، فإن القرآن الكريم تُرجم إلى أكثر لغات العالم، نقول ذلك لأننا لا نملك القول بأحقية الجواز أو التحريم، لأنه من شأن علماء الأمة الإسلامية، والمتخصصين بالدراسات القرآنية.

٢ - الإعجاز و«المكننة»:

نقصد بالإعجاز و«المكننة» التطلع إلى إعجاز القرآن من زاوية رؤيوية تعتمد على الأجهزة الإلكترونية والتكنولوجية المتطورة. ونحن لا نشك في أن الاختراعات والاكتشافات التي ستحقق غداً، لن تجد في القرآن الكريم معارضة، بل معجزات جديدة، ونرى أن تقدم العلم وتطوره لن يكون إلا في مصلحة القرآن يقيناً، فالعلم والقرآن من نُبعة واحدة.

وفي كلامنا على الإعجاز والمكننة سنحاول الإلتفات إلى الإعجاز العددي والإعجاز العلمي، إلتفاتة لا تُغني عن العودة إلى الأصول، بل تلقي ضوءاً كافياً - كما أعتقد - على هذا النوع من الدراسات، مع ما يظن فيها من إغراق وتحميل القرآن الكريم أكثر مما يجب .

(١) راجع: البنداق (محمد صالح) المستشرقون وترجمة القرآن الكريم دار الآفاق الجديدة بيروت، ١٩٨٣ ص ٢١ وما بعدها.

أ - الإعجاز العددي:

يلاحظ المتمعن في آيات القرآن الكريم وسوره، توازناً وتناسقاً عددياً في موضوعاته، وذلك لا يمكن أن يكون صدفةً عسوية، أو واقعة عشوائية، بل هو توازن مقصودٌ وتناسقٌ صادرٌ عن قدرة تفوق قدرة الإنس والجن مجتمعين . نقول ذلك ونحن ندرك أننا نعيش في عصر العلم والتقدم التكنولوجي . ونعلم يقيناً أن طاقة البشر جميعاً عاجزة عن تحقيق ذلك التوازن والتناسق، حتى ولو عضدتهم في عملهم الأجهزة الحاسبة والعقول الإلكترونية . فتلك قد لا يمكنها أن تُحقق التساوي العددي في ألفاظ الموضوعات المُتشابهة، أو المتماثلة أو المترابطة أو المتناقضة، ثم توزعها توزيعاً دقيقاً بشكل مُنفرد أو مُتباعداً في آيات القرآن الكريم جميعاً التي تقارب السبعة آلاف آية، وتأتي بعد تلك الدقة الحسابية والعددية قمة في البلاغة والبيان، وروعة في الصياغة والإتقان .

وفي تفصيل ذلك نجد تناسقاً مُعجزاً في استعمال ألفاظ القرآن وتعابيره . فلفظة كل من العلم والمعرفة ومشتقاتهما، والإيمان ومشتقاتها وردت ثمان مائة وإحدى عشرة مرة . في حين وردت لفظة الناس ومشتقاتها ومرادفاتها ولفظة الرسول ومشتقاتها ثلاث مائة وثمان وستين مرة . كما وردت لفظة كل من الصالحات والسيئات ومشتقاتهما مائة وسبع وستين مرة . وتكرر لفظ البصر وهو الرؤية الظاهرة ومشتقاته، والبصيرة وهي الرؤية الداخلية عن طريق الحس ومشتقاتها مائة وثمان وأربعين مرة . ومثل هذا العدد تكرر في لفظتي القلب والفؤاد ومشتقاتهما . في حين تكررت لفظة كل من الحياة والموت ومشتقاتهما مائة وخمس وأربعين مرة .

ووردت لفظتي كل من الدنيا والآخرة مائة وخمس عشرة مرة . والملائكة والشياطين ومشتقاتهما ثمان وثمانين مرة . كما وردت كل من كلمتي النفع

والفساد ومشتقاتهما خمسين مرة. ووردت كل من لفظتي البعث بمعنى قيام الأموات ومشتقاته ومرادفاته، والصراط ومشتقاته خمس وأربعين مرة. وتكررت لفظة كل من الجحيم والعقاب ست وعشرين مرة. وتساوي عدد مرات ذكر كل من الأسباط وهم أنصار اليهود، والحواريين وهم أنصار المسيحية في عهد عيسى، والرهبان والقسيسين وهم أنصار النصرانية بعد المسيح، فبلغت خمس مرّات تحديداً. ويمثل هذا العدد وردت لفظة كل من الصيف والشتاء. في حين تكرّرت لفظة كل من الحرّ والبرد أربع مرات لا غير^(١).

ولا يُخفى أنّ هذا التناسق والتناسب يفوق طاقة البشر، وهو من تدبير ربّ كريم، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ^(٢)﴾. وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٣).

ومن جهة ثانية لو تفحص متفحص عدد حروف لفظة كل من الدنيا والحياة لوجدها ستة حروف، وهذا العدد يساوي عدد عناصر الدنيا والسّموات والأرض، ويتوافق أيضاً مع خلق السموات والأرض عدداً، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾^(٤).

ولو تفحص امرؤ عدد حروف «الانسان» لوجدها سبعة حروف، في حين خلق الله الانسان في سبع مراحل وهي: بضعة من سلالة من طين، ثم تصبغ نطفة، ثم علقة، فمُضْغَةٌ، فعظاماً، فلهماً، ثم خلقاً آخر على شكل الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ

(١) راجع: نوفل (عبد الرزاق) الإعجاز العددي للقرآن الكريم دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٣.

(٢) ص: ٢٩.

(٣) محمد: ٢٤.

(٤) الاعراف: ٥٤.

مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا
الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١﴾ .

وبالإضافة إلى ذلك فالله سبحانه وتعالى : أورد في كتابه العزيز الاعداد
باعتبارها أصول علم الحساب ، وأساس الأرقام وعلاقة التقييم .

فالعدد واحد ورد في القرآن الكريم قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ
وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٢) . والعدد اثنان ورد أيضاً ، قال تعالى :
﴿لَا تَتَّخِذُوا آلِهِينَ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (٣) . وفي العدد ثلاثة قال تعالى :
﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۖ إِنْتَهُوَ خَيْرًا لَكُمْ﴾ (٤) . وفي العدد أربعة قال تعالى :
﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ (٥) . وفي العدد خمسة وستة قال تعالى :
﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ (٦) وفي العدد سبعة قال
تعالى : ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (٧) . وفي العدد ثمانية
قال تعالى : ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (٨) . وفي العدد تسعة
قال تعالى : ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ (٩) . وفي

(١) المؤمنون : ١١ - ١٤ ، لنا عودة إلى تناول هذه الآية في مجال إشارتنا إلى الإعجاز
العلمي .

(٢) الانعام : ١٩ .

(٣) النحل : ٥١ .

(٤) النساء : ١٧١ .

(٥) التوبة : ٢ .

(٦) الكهف : ٢٢ .

(٧) الحجر : ٤٤ .

(٨) الحاقة : ١٧ .

(٩) النمل : ٤٨ .

العدد عشرة ، قال تعالى : ﴿ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ (١) .

ولا يُخفى أنّ الأعداد جميعاً إنّما تتكوّن من الواحد إلى العشرة وما فوقها مركّب، وهي أساس الأعداد والأرقام . لكن القرآن الكريم لم يُغفل الإشارة إلى الأعداد المركّبة من رقمين وثلاثة وأربعة، كما أنّه أشار إلى كُسور الأعداد كالنصف والثلث، والرّبع والخُمس والسُدس والثمن .

ولم يكتف القرآن الكريم بذكر الأعداد والأرقام والحساب بل تكلم عنها بوصفها حقيقة لا مناص منها في حياة الإنسان . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ ﴾ (٢) .

ب - الإعجاز العلمي - الطبي :

وأما الإعجاز العلمي للقرآن الكريم فهو لا يُحصى ولا يُعدّ، ولا سيما أنّ القرآن حوى أكثر من سبعمائة وخمسين آية كونيّة تُعلّم فيما تُعلّم قوانين طبقات الأرض والفلك . وإذ لا يُمكننا التوقّف أمام تلك الآيات جميعاً، فلا بُدّ من وقفة سريعة أمام واحدة تناولت خَلْقَ الإنسان، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (٣) .

يقف المرء أمام هذه الآية مذهولاً، خصوصاً أنّها نزلت في قوم لا يعرفون شيئاً من علم التشريح أو علم التكوين . ونحن إذ نتناول هذه الآية ننقل رأي داود

(١) البقرة: ١٩٦ .

(٢) الإسراء: ١٢ راجع: نوفل (عبد الرزاق) معجزة الأرقام والترقيم في القرآن الكريم .

(٣) المؤمنون: ١١ - ١٤ .

الأنطاكي (- ١٠٠٨هـ) الذي مضى على وفاته أكثر من أربعماية سنة، يُندلّل على أهمية الآية والشرح معاً. يقول الأنطاكي:

قال جَلٌّ مِنْ قائل: ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ يعني إيجاداً وإختراعاً، لعدم سبق المادّة الأصلية، ﴿من سُلالة﴾ وهي الخُلاصة المُختارة من الكيفيات الأصلية، بعد الامتزاج بالتفعيل الثاني مما ركب فيها بعد امتزاج القوى والصور. والتّنويه باسمه (الماء)، إمّا للصورة والرّطوبات الحسية، أو لأنّه السبب الأقوى في تحجّر الطين وانقلابه وكسر سَوْرَة الحرارة وإحياء النبات والحيوان اللذين هما الغذاء الكائنة عند النّطف، وهذا الماء هو المرتبة الأولى والطور الأول. وقوله من ﴿سُلالة﴾ يشير إلى أنّ المواليد كلّها أصول للإنسان وأنه المقصود بالذات الجامع لطباعتها، ثم جعله نطفة بالإنضاج والتخليص الصادر عن القوى المُعدّة لذلك، ففي قوله: ﴿ثم جعلناه نطفة﴾ تحقيقٌ لما صار إليه الماء من خلع الصّور البعيدة، والضمير إمّا للماء حقيقةً أو للإنسان بالمجاز الأول.

وقوله: ﴿في قرار مكين﴾ يعني الرّحم^(١)، وهذا هو الطّور الثاني، ثم قال مشيراً إلى الطور الثالث: ﴿ثم خلقنا النّطفة علقة﴾ أي صيّرها دماً قابلاً للتمدد والتخلّق باللزجة والتماسك^(٢).

(١) في وصف القرار بأنه «مكين» إعجاز يفهمه الأطباء ودارسو علم التشريح. فقد ثبت أنّ الرّحم مجهّز في تكوينه وفي خصائصه، بما يُمكن أشدّ التّمكّن للجرثومة أن يكون فيها اللّقاح. ففيه مخابىء لها عجيبةٌ خلقت لذلك خلقاً، ثم مواد مُنفرة لوقايتها وحفظ الحياة عليها، والدّفاع عنها من أن تقتلها المواد الحامضة.

(٢) لم يكن العربُ يعرفون كلمة «العلقة والعلق» إلا أنّها الدّم الجامد، ولكن في الكلمة إعجاز لأنّه ثبت علمياً أنّ الجرثومة التي يُكون منها اللّقاح في ماء الرجل تعلق رأسها نازعة كالسنان، فتهاجم البويضة في الرّحم وتبّعجها بسلاحها فتخرقها وتعلق بها. فإذا هما قد امتزجا. فهذا هو السّر في تسمية التحوّل الأول للنّطفة (علقة). وتأمّل قوله تعالى: ﴿فجعلناه﴾ فإن فيها كلّ هذه الحركة بين الجرثومة والبويضة.

ولما كان بين هذه المراتب من المهلة والبعد، عطفها بـ «ثم المقتضية للمهلة، كما بين أدوار كواكبها، فإن زُحل يلي أيام السُّلالة المائية لبردها، والمشتري يلي النُطفة لرطوبتها، والمريخ يلي العَلقة لحرارتها، وهذه الثلاثة هي أصحاب الأدواب الطوال.

ثم شرع في المراتب القرية التحوّل والانقلاب التي يليها الكواكب المتقاربة في الدورة وهي ثلاثة:

الأولى: أشار إليها بقوله: ﴿فخلقنا العَلقة مُضغَةً﴾ أي حوّلنا الدّم جسماً صلباً قابلاً للتفصيل والتخليط والتصوير والحفظ، وجعل مرتبة المُضغّة في الوسط وقبلها ثلاث حالات وبعدها كذلك. لأنها الواسطة بين الرطوبة السيالة والجسم الحافظ للصور، وقابلها بالشمس^(١). لأنها بين العلوي والسفلي. وجعل التي قبلها علوية لأنّ الطور الإنساني فيها لا حركة له ولا اختيار، فكأنه هو المُتولّي أصالة، وإن كان في الحالات كلها كذلك لكن هو أظهر، فانظر إلى دقائق مطاوي هذا الكتاب المُعجز، وتحويله العَلقة إلى مُضغّة يقع في أقل من أسبوع.

وأما الثانية فهي مرتبة العظام المشار إليها بقوله: ﴿فخلقنا المضغّة عظاماً﴾ أي صلّبنا تلك الأجسام بالحرارة حتى اشتدت وقلت التوثيق والرّبط والإحكام والضبط، وهذه مرتبة الزهرة، وفيها تتخلّق الأعضاء المَنوية المُشاكلة للعظام أيضاً، ويتحول دُم الحَيْض غاذياً، كما شأن الزهرة في أحوال النساء.

وأما الثالثة فهي المشار إليه بقوله: ﴿فكسونا العظام لحماً﴾ أي حال تحويل الدم غاذياً للعظام، لا يكون عنه إلاّ اللحم والشحم، وكلّ ما يزيد

(١) يرى داود الأنطاكي أنّ أطوار الخلق في الآية سبعة تُقابل الكواكب السبعة السيّارة، فإن صحّ هذا كانت الآية في غاية الإعجاز.

وينقص . وهذا شأن عطارده، تارة يتقدم، وتارة يتأخر ويعتدل، وكذا في اللحم البدن . وهذه المرتبة هي التي يكون فيها الإنسان كالنبات، ثم يطول الأمر حتى يشتد، ثم يتم إنساناً يفيض بالحياة والحركة بنفخ الروح . فلذلك قال معلماً للتعجب والتنزيه عند مشاهدة دقيق هذه الصناعة ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ وهذا هو الطور السابع الواقع في حيز القمر.

وفي الآية القرآنية دقائق:

الأولى: عبّر في الأول بخلقنا، لصدقه على الإختراع وفي الثاني لصدقه على تحويل المادّة. ثم عبّر في الثالثة وما بعدها كالأول لأنه أيضاً إيجاد ما لم يسبق.

والثانية: مطابقة هذه المراتب لأيام الكواكب المذكورة ومقتضياتها للمناسبة الظاهرة وحكمة الربط الواقع بين العوالم.

الثالثة: قوله: ﴿فكسونا﴾، وهي إشارة إلى أنّ اللحم ليس من أصل الخلقة اللازمة للصورة، بل كالثياب المتخذة للزينة والجمال، وإنّ الاعتماد على الأعضاء والنفس خاصة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ثم أنشأناه﴾ سماه بعد نفخ الروح إنشاءً لأنه حينئذٍ قد تحقق بالصورة الجامعة (١).

(١) قد ثبت علمياً أنّ الجنين أو تخلّقه يكون في الإنسان والحيوان على شكل واحد، فتحولّه إلى الصورة الإنسانية بعد ذلك هو إنشأؤه خلقاً آخر ولا ريب . فتأمل هذا الإعجاز الدقيق العجيب . ولو فسرت الخلق الآخر بآثار الوراثة التي كانت في الخلية لكان قولاً جميلاً، لأن كل مولود يكاد يكون بهذه الموارثة خلّقه على حدة . وآخر ما انتهى إليه العلم أن هذه الوراثة هي التي تنوع العالم الانساني وتدفعه في سبيل الاقدار.

الخامسة: قوله: ﴿خُلِقْنَا﴾ ولم يقل إنساناً ولا آدمياً ولا بشراً^(١) لأن النَّظْرَ فِيهِ حَيْثُذِي لَمَّا سَيُفَاضُ عَلَيْهِ مِنْ خَلْعِ الْأَسْرَارِ الْإِلَهِيَّةِ، فَقَدْ آنَ خُرُوجِهِ مِنَ السَّجْنِ وَالْبَاسَةِ الْمَوَاهِبِ، فَقَدْ يَتَخَلَّقُ بِالْمَلَكِيَّاتِ فَيَكُونُ خَلْقاً مَلَكِيّاً قَدْسِيّاً، أَوْ بِالْبَهِيمِيَّةِ فَيَكُونُ كَذَلِكَ أَوْ بِالْحَجْرِيَّةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. فَلِذَلِكَ أَبْهَمَ الْأَمْرَ وَأَحَالَهُ عَلَى اخْتِيَارِهِ وَأَمْرَ بِنْتِزِيهِهِ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي لَا يَشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ^(٢).

ولو عرض عارضُ هذه الآية الكريمة على ما انتهى إليه علماء تكوين الأجنَّة، وعلماء التشريح وعلماء الوراثة النفسية، لوجد فيها دقائق علومهم، أو بالتحديد كأن هذه الألفاظ إنما خرجت من مصطلحات تلك العلوم نفسها، وكان كل علم وضع في تلك الآية خلاصة تجاربه.

ولا بُدُّ مِنَ الْقَوْلِ أَنَّنَا قَصَدْنَا إِلَى تَنَاوُلِ شَرْحِ الْأَنْطَاكِيِّ وَتَعْلِيْقِ الرَّافِعِيِّ قَصْداً، لِنَبَيِّنَ أَنَّنَا نَزْدَادُ إِيمَاناً وَتَمَسَّكاً بِالْإِسْلَامِ كُلَّمَا أَزْدَدْنَا عِلْماً وَمَعْرِفَةً، وَنَصَرَّ بِأَنَّهُ دِينٌ كَامِلٌ وَلَيْسَ بَعْدَهُ كَمَالٌ، كُلَّمَا أَمِيطَ اللَّثَامُ عَنْ اخْتِرَاعِ جَدِيدٍ أَوْ اكْتِشَافِ حَدِيثٍ. فَالْأَنْطَاكِيُّ فَسَّرَ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ قَبْلَ أَنْ تَسْوَدَ مَكْتَشَفَاتُ عِلْمِ الْأَجْنَةِ وَالْوَرَاثَةِ وَالتَّشْرِيحِ وَغَيْرِهَا، فَجَاءَتْ نَتَائِجُهَا مُتَطَابِقَةً مَعَ مَا اسْتَنْتَجَهُ الْأَنْطَاكِيُّ مِنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ.

والقرآن الكريم تنكشف كل يوم معجزاته الخالدة التي لا تنتهي على امتداد الزمن، فالإسلام لا يتعارض أبداً مع العلم اليقيني، فكلاهما من نبعة واحدة.

(١) لو قال الله تعالى: ﴿إِنْسَاناً أَوْ آدَمِيّاً أَوْ بَشَرًا﴾، لوجب أن يكون في كل مخلوق إنسانية صحيحة، أو آدمية من آدم، أو بشرية بالمقابلة من الملكية وليس كل مخلوق كذلك، بل في الناس الأعلى والأسفل.

(٢) نقلاً عن: الرافي (مصطفى صادق) تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٤، ج ٢، ص ١٣٤-١٣٨.

الفصل الثاني:

الإسلام وعلوم الحديث.

القسم الأول - الحديث النبوي الشريف:

يُعتبر الحديث النبوي الشريف الأصل الثاني في الإسلام بعد القرآن، فهو مُتَمِّمٌ لأحكام الشريعة الإسلامية، مَوْضِحٌ لما غَمُضَ من تعاليمها، شارحٌ للمسلمين تفاصيل أمورهم الدينية والدنيوية. ويتعبّر آخر فإن للحديث قيمة كبرى في الدين تلي مرتبة القرآن، لأن كثيراً من آياته مُجَمَّلة أو مطلقة أو عامة، ولم تكن لتُوضَّح لولم يُبينها قول الرسول أو عمله، أو يقيدها أو يخصصها. فالقرآن مثلاً لم يبيّن تفاصيل الصلاة، بل أمر بها مُجَمَّلة، لكن قول الرسول وأفعاله أوضحت أوقاتها وكيفياتها.

وبالإضافة إلى ذلك، فالرسول الكريم كان يَقْضِي في مسائل كثيرة، وَيُجِيب على أسئلة تتعلق بأمور الدين والحياة، ويتصرّف تصرفاً ما في الشؤون السلمية والحربية، وكانت أفعاله وإجابته وتصرفه بمثابة سُنَّةٍ للمسلمين^(١).

أولاً - الحديث والسنة:

الحديث لغةً هو الجديد من كل شيء، والجمع أحاديث، وهو جمعٌ شاذٌ على غير قياس. والحديث اصطلاحاً إسم من التحديث، وهو كالأخبار. ومعنى

(١) أمين (أحمد). فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٩، ص ٢٠٨.

الآخبار في وصف الحديث كان معروفاً في الجاهلية، فالعرب آنذاك كانوا يُطلقون على أيامهم المشهورة إسم الأحاديث. ثم شاع اصطلاح «صار أهدوثة» أو «صار حديثاً» قال الشاعر:

ولا تُصبحوا أهدوثةً مثلَ قائلٍ به يضربُ الأمثالَ مَنْ يمثُلُ^(١)
والحديث في عرف الشرع قسمان:

الأول: علم الحديث الخاص بالرواية، وهو علم يشتمل على أقوال الرسول الكريم وأفعاله، وزوايتها وضبطها وتحرير ألفاظها. ويضاف إلى ذلك كل ما أثر عن الصحابة والتابعين من أقوال وأفعال.

والثاني: علم الحديث الخاص بالدراية: وهو علم يُعرف منه حقيقة المرويات وأصنافها وما يتعلق بها^(٢). وعلم دراية الحديث هو المراد عند الإطلاق، تُعرف به معاني متنه ورجاله، وطرقه، وصحيحه وسقيمه، وعلة وما يحتاج إليه الراوي ليعرف المقبول منه والمردود. وموضوعه: الراوي والمروي، وغايته: معرفة ما يقبل منه ليعمل به، وما يردد ليُجتنب.

فعلم الحديث هو بالنتيجة علم القواعد المُعرّفة بحال الراوي والمروي، أو باصطلاح آخر هو علم بقوانين يُعرّف بها أحوال السند والمتن.

فالسند هو الطريقة التي تُؤدي إلى المتن أي تعداد أسماء رواة الحديث مرتبة متصلة. والإسناد هو رفع الحديث إلى قائله. وأما المتن^(٣) فهو ألفاظ

(١) أبو الفرج الأصبهاني (الأغاني، مصورة عن طبعة بولاق) م ١٠، ص ١٢٠.

(٢) الصالح (صباحي) علوم الحديث ومصطلحه، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧١، ص ١٠٧.

(٣) المتن من المماننة وهي المباعدة في الغاية. أو من متنّ الكبش: أي شققت جلد بيضته واستخرجتها، فإنّ السند إستخراج المتن بسنده. أو من المتن: وهو ما صلّت =

الحديث التي تَتَقَوَّمُ بها المعاني ، وهو ما تنتهي إليه غاية السند من الكلام .

وما دنا نشير إلى بعض مصطلحات علم الحديث ومعانيه ، لا بأس من الإشارة إلى ما يجمع بين مصطلحي الحديث والسنة .

يُطلق إصطلاح الحديث إذاً على أقوال الرسول الكريم رواية ودراية ، وبمعنى آخر فإن الحديث يَشْمَلُ قول النبي وفعله . وأما إصطلاح السُّنَّة فإنه يُطلق على الطَّريقة الدينية التي سلكها الرسول الكريم في سيرته .

فلفظة السُّنَّة ربما هي مأخوذة من سنتت الإبل إذا أحسنت رَعِيها والقيام عليها . وعلى ضوء ذلك يُدرك القارئ التباين الظاهري في قول المحدثين : «هذا حديثٌ مُخالفٌ للقياس والسُّنَّة والإجماع» . أو قولهم : «إمام في الحديث ، وإمام في السُّنَّة ، وإمام فيهما معاً»^(١) .

وحين عبّر الإسلام عن الطريقة بالسُّنَّة ، لم يُفاجأ العربُ بالاصطلاح . فلقد عرفوها بهذا المعنى كما عرفوا نقيضها وهي البِدْعَة . ولقد ورد لفظ السُّنَّة في القرآن الكريم قال تعالى : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾^(٢) . وورد على لسان الرسول قوله : ﴿عليكم بسُنَّتِي﴾^(٣) . كما ورد تعريف السُّنَّة عند مُسلم عن الرسول قال : «من سنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ،

= من الأرض وارتفع ومنه متن الجواد ، لأن المسند يقويه السند ويرفعه إلى قائله . أو من تَمْتِنُ القوس : أي شدّها لأن المسند يقول الحديث بسنده .

راجع الحاج حسن (حسين) نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية مؤسسة

الوفاء ، بيروت ١٩٨٥ ، ج ١ ، ص ١٨٨ .

(١) نقلاً عن : الصالح (صبحي) علوم الحديث ومصطلحة ، ص ٦ .

(٢) الأحزاب : ٦٢ .

(٣) ابن ماجه (محمد بن يزيد) السنن م ١ ، ص ١٦ ، رقم الحديث ٤٢ .

ومن سنُّ سنةٍ سيئةٍ فعليةٍ وزرّها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ﴿١﴾.

فالسُّنة كانت منهلاً عذباً يَفِيضُ على البشر بالخير، وكل ما يحتاجون إليه في حياتهم الخاصة والعامة. فكلُّ من علماء الحديث والأصول والفقهاء، أخذ ما يريده من السنة، وكلُّ أخذ ما يوافقه في دعم حججه وتأييد أقواله. لكن الحديث والسنة لم يكونا متباينين في العمق، فكلاهما يدور حول محور واحد، وينتهي أخيراً إلى الرسول الكريم.

أما السنة في اصطلاح المُحدِّثين، فهي كل ما أُنثِر عن الرسول الكريم من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ أو صفةٍ خَلْقِيَّةٍ أو خُلُقِيَّةٍ أو سيرة. سواء أكان ذلك قبل البعثة أم بعدها. فالسُّنة بهذا المعنى مرادفة للحديث النَّبَوِيِّ الشريف (٢).

وأما السُّنة في اصطلاح علماء الفقه فهي «كلُّ ما صدر عن النبي (ﷺ) غير القرآن الكريم من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ ممَّا يَصْلُحُ أن يكون دليلاً لحكم شرعي. فالقول أن السنة هي «أقوال» الرسول التي قالها في الاغراض والمناسبات، فذلك يُحْتَم على المسلمين حكماً شرعياً. ونعني بالفعل جميع ما نقله إلينا الصحابة من أعمال الرسول وأفعاله. وأما التقرير فهو كل ما أقره الرسول من أقوال صحابته وأفعالهم بسكوت منه وعدم إنكار، أو بموافقة وإظهار استحسان وتأييد. فيعتبر ما صدر عنهم بموافقة الرسول وإقراره، وكأنه صادر عن الرسول الكريم» (٣).

فالسُّنة إذاً هي الطَّرِيقَةُ الدِّينِيَّةُ الْمُتَّبَعَةُ فِي تَتَبُّعِ سِيرَةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ،

(١) نقلاً عن: الحاج حسن (حسين) نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية ص ١٨٨.

(٢) القاسمي (جمال الدين) قواعد التحديث، دمشق، ١٩٣٥، ص ٣٥، وما بعدها.

(٣) الصنعاني (محمد بن إسماعيل) سبل السلام، طبعة البابلي الحلبي، ١٣٦٩هـ،

ج ١، ص ٩٧.

وما أثر عنه من قول أو فعل أو تقرير، وهي تُطلق عند الفقهاء في مقابل البدعة (١).

والبدعة هي لغة الأمر المُستحدث، ثم أُطلقت في الشرع على كل ما أحدثه الناس من قول أو عمل، لم يُؤثر مثله عن الرسول وأصحابه.

ثانياً - الحديث رواية وتدويناً:

اهتمَّ الرسول الكريم بالحديث إهتماماً بالغاً، فأمر بفهمه، ثم حفظه فتبليغه عن طريق الرواية الصحيحة. وكان منهجه في التحديث لا يختلف عن منهجه في تعليم القرآن الكريم. فالنبي كان يُحدِّث مَنْ حوله مُفضَّلاً لهم تعاليم الإسلام ومُطبِّقاً أحكام القرآن. فهو المعلم والحاكم والقاضي والفقير والقائد. وبمعنى آخر فإنه تحدَّث بما يتناول شؤون الفرد والجماعة من النواحي السياسية والاجتماعية والأخلاقية والتربوية وما يتصل بمناحي الحياة المختلفة. لذلك لا يمكن القول أن الرسول الكريم ترك أمر حديثه منسياً، بل كان يحضُّ المسلمين على العناية بالحديث كونه المصدر التشريعي الثاني للإسلام بعد القرآن الكريم.

ولكن هذا لا يعني أن الحديث دُون جميعه في عصر الرسول كما دُون القرآن، فالرسول لم يتخذ كُتُباً للحديث كما اتخذ كُتُباً للوحي. وقد نقل لنا الرواة أحاديث متناقضة حول جواز تدوين الحديث، فمنها من نهى عنه نهياً قاطعاً كقوله: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليُمحِه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذَّب عليَّ مُتعمداً فليتبوأ مقعده من النار» (٢). وربما كان ذلك

(١) الدواليبي (محمد معروف) المدخل إلى السنة وعلومها، مطبعة الجامعة السورية دمشق، ١٩٥٦، ص ١٠.

(٢) نقلاً عن: أمين (أحمد) فجر الإسلام، ص ٢٠٨.

مخافة إختلاط الحديث بالقرآن ، أو الاشتغال بالحديث على حساب القرآن .
ولا شك أن هذا المنع كان في بداية العهد الإسلامي ، ولكن الرسول
عندما تأكد من أن القرآن ترسخ في أذهان المسلمين وعقولهم ووسائل كتابتهم ،
وأمنَ عدم الاختلاط بين القرآن الكريم والحديث الشريف ، سمح أو أجاز كتابة
الحديث . ويُستدلّ هذا الجواز من حوار جرى بين الرسول الكريم ومعاذ بن جبل
عندما أراد الرسول إرساله إلى اليمن قال له : بما تحكم؟ قال معاذ : بكتاب الله .
قال الرسول : فإن لم تجد ، فأجاب معاذ : بسنة الرسول (١) فرواية الحديث ،
رواية وكتابة نسبية ، كانت معروفة في حياة الرسول ، إذ كانت كل قبيلة تتخذ
لنفسها معلماً يعلمها القرآن والسنة .

وفي عهد الصحابة بقيت كراهة تدوين الحديث سائدة ، والرغبة في روايته
سيّدة الموقف . فعمر بن الخطاب لبث يستخير الله شهراً ، وبعد ذلك عزم على
عدم التدوين . ومضى الصحابة لا يُدَوِّنون الحديث تدويناً رسمياً ، مكتفين
بروايته وكذلك فعل التابعون ، حتى إذ جاء عصر عمر بن عبد العزيز على رأس
المائة الأولى للهجرة ، أمر بتدوين الحديث رسمياً ، ولكن لم يُكتب له الحياة
لِيُنْفَذَ أمره (٢) .

وبقي الحال على هذا المنوال بين التدوين والخرج منه حتى القرن الثاني
لهجرة ، فكان موطأ مالك إمام المدينة (- ١٧٩) . ثم جاء عصر أتباع التابعين
على رأس المائتين للهجرة ، فظهرت عناية العلماء بتأليف المسانيد المقصورة

(١) راجع : ابن عبد الله (أبو عمر ، يوسف) جامع بيان العلم وفضله ، المطبعة المنيرية ،
مصر ، ج ١ ، ص ٦ .

(٢) راجع : ابن سعد (محمد) الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت ١٣٧٦ هـ ، ج ٧ ،
ص ١٥٧ .

على السُّنة النبويَّة الخالصة، ومن أولئك السابقين أبو داود الطيالسي (- ٢٠٤ هـ) وأحمد بن حنبل (- ٢٤١ هـ) الذي يُعدُّ من أتباع التابعين. وهذا يعني أنَّ السُّنة الصحيحة مُرتبة على الأبواب، لم تحصل إلا في عصر أتباع أتباع التابعين ممَّن عاصروا البخاري حين ألقت الصحاح الستة: البخاري، ومسلم، والترمذي، وأبو داود، وابن ماجه والنسائي (١).

ونشأ من عدم تدوين الحديث جميعه في كتاب خاص في العصور الإسلاميَّة الأولى واكتفائهم بالاعتماد على الذاكرة، وصعوبة حصر ما قاله رسول الله من قول أو فعل أو تقرير، مدة ثلاثة وعشرين عاماً من بدء الوحي إلى الوفاة، أن إستباح قوم لأنفسهم وضع الحديث ونسبته كذباً إلى رسول الله وخصوصاً بعد وفاته. ويُذكر في هذا المجال أنَّ صحيح البخاري يشتمل على نحو من تسعة آلاف حديث، منها نحو ثلاثة آلاف حديث مكرر، إختارها البخاري من نحو ستمائة ألف حديث كانت مُتداولة في عصره (٢).

ولقد حملت الوضاع على الوضع أمورٌ كثيرة منها:

١ - الخصومة السياسيَّة: فالخصومة بين علي بن أبي طالب وأبي بكر الصديق، وبين علي ومعاوية، وبين عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان، ثم بين الأمويين والعباسيين، كانت أسباباً لوضع الحديث أو انتحاله.

ويتصل بهذا النحو أحاديث وضعها الواضعون في تفضيل القبائل العربيَّة التي كانت تتنازع الرِّياسة والفخر والشرف، فوجدت تلك في

(١) الحاج حسن (حسين): نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية، م ١، ص ١٤٣ وما بعدها.

(٢) أمين (أحمد): فجر الإسلام ص ٢١٢.

وضع الحديث باباً وَلَجَّتْهُ فِي تَدْعِيمِ مَوَاقِفِهَا.

٢ - الخلافات الكلامية والفقهية: وَيَنْدَرُجُ فِي هَذَا الْبَابِ إِخْتِلَافَ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ حَوْلَ مَسَائِلَ عَدِيدَةٍ مِنْهَا: مَسْأَلَةُ الْجَبْرِ أَوْ الْإِخْتِيَارِ، فَأَجَازَ قَوْمٌ لَأَنْفُسِهِمْ وَضَعُ أَحَادِيثَ تُؤَيِّدُ مَذَاهِبَهُمْ.

٣ - متابعة بعض من يَتَّسِمُونَ بِسَمَةِ الْعِلْمِ لَهْوَى الْأَمْرَاءِ وَالْخُلَفَاءِ، فَوَضَعُوا لَهُمْ أَحَادِيثَ تُؤَيِّدُ مَوَاقِفَهُمْ وَأَفْعَالَهُمْ.

٤ - تساهل بعضهم في ما يتعلق بالفضائل والترغيب والترهيب، مما لا يترتب عليه تحليل حرامٍ أو تحريم حلالٍ، فاستباحوا الوضع في بعض تلك الأمور.

٥ - مغالاة الناس في عدم قبولهم باباً من أبواب العلم، إلا إذا كان مُتَّصِلاً بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ إِتِّصَالاً وَثِيقاً. فَالْحِكْمَةُ وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ مِثْلًا إِذَا كَانَتْ مِنْ أَصْلِ غَيْرِ عَرَبِيٍّ، أَوْ مُسْتَمَدَّةً مِنْ شُرُوحِ التَّوْرَةِ أَوْ الْإِنْجِيلِ، لَمْ يُؤَيِّبْهَا. فَحَمَلَ ذَلِكَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ أَنْ يَصْبِغُوا تِلْكَ الْأُمُورَ بِصَبْغَةٍ دِينِيَّةٍ إِسْلَامِيَّةٍ، كَيْ يُقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهَا، فَلَمْ يَجِدُوا إِلَّا بَابَ الْحَدِيثِ مُشْرَعًا فَوَلَجُوهُ (١).

رغب أهل الأهواء إذاً في اختلاق الأحاديث. وقد ذكر لنا الرواة جماعة من واضعي الحديث، أشهرهم أربعة وهم: ابن أبي يحيى في المدينة، والواقدي في بغداد، ومقاتل بن سليمان في خراسان، ومحمد بن سعيد في الشام. وكثيراً ما كان أولئك الوُضَّاع يعترفون بما اقترفوه، من وضع وانتحال، كما فعل ابن أبي العوجاء وكان مُحدِّثاً في الكوفة، فأمر أميرها محمد بن سليمان بقتله سنة

(١) أمين (أحمد) فجر الإسلام ص ٢١٢ وما بعدها.

١٥٣هـ، فلما أيقن أنه مقتول قال: «والله لقد وضعت أربعة آلاف حديث خللتُ بها الحرام وحرمت الحلال»^(١).

لكن إنتشار أسباب الوضع هذه رَوَعَت جماعة من العلماء والمنتقنين، فنهضوا لتنقية الحديث الشريف مما علق به، وتمييز جيده من رديئه، فسلكوا في هذا الباب مسالك شتى. فطالبوا بإسناد الحديث، أي تعيين رواته، كأن يقول المُحدِّث: حدَّثني فلان عن فلان عن رسول الله، أنه قال: كذا وكذا ليتمكنوا من معرفة صدق المُحدِّث أو كذبه، كما أخذوا يُشَرِّحون الرجال، فيُجَرِّحون بعضاً ويُعدِّلون بعضاً آخر. وألزموا أنفسهم الكشف عن مساويء رواة الحديث وناقلي الأخبار. وأكثر هؤلاء النقاد عدلوا الصحابة جميعاً، لم يعرضوا لأحد منهم بسوء، ولم ينسبوا لأحدٍ منهم كذباً، وقليل منهم أجرى على الصحابة ما أجرى على غيرهم من التجريح أو التعديل.

ومهما يكن من أمر فإنَّ التَّشَدُّدَ في قبول الحديث كان معمولاً به حتى بين الصحابة أنفسهم، فكان بعضهم أسمى منزلة من بعض، وإذا روى بعضهم حديثاً، طلب المُحدِّث فيه برهاناً كحديث أبي هريرة الوارد في الصحيحين: «متى استيقظ أحدكم من نومه، فليُغسل يده قبل أن يضعها في الإناء، فإنَّ أحدكم لا يدري أين باتت يده». فهذا الحديث لم تأخذ به عائشة زوج الرسول^(٢).

وعلى آية حال فإنَّ الجرح والتَّعْدِيلَ كَثُرَ بين رواة الحديث، وكان للاختلاف المذهبي أثر في الجرح والتَّعْدِيلَ، وقد وضع العلماء للجرح والتَّعْدِيلَ قواعد وقوانين، فاعتنوا بنقد الإسناد أكثر من عنايتهم بنقد المتن، لأن

(١) راجع: زيدان (جرجي) تاريخ التمدن الإسلامي ج ٣، ص ٧٤.

(٢) راجع: أمين (أحمد) فجر الإسلام، ص ٢١٦.

أحاديث الرسول الكريم إنما رُويت بالمعنى ، ولم تُرَوَّ باللفظ ، وذلك يعود لتأخر تدوينه .

وبعد حين من الزمن عمَّد المسلمون إلى التحقيق ، واشتغلوا في التفريق بين الأحاديث الموضوعية والصحيحة ، فألفوا كتباً كثيرة تُبَيِّن صحاحه من فاسده ، جاعلين الأحاديث مراتب . ولهم في ذلك ألفاظ اصطلاحوا عليها ، وبيّنوا كيف يأخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو إجازة إلى ما هنالك من تعابير .

ولم يكن مُتيسراً التمييز بين مراتب الحديث إلا بالحفظ والرجوع بالمحفوظ إلى المصدر الأصلي الذي أخذ عنه بالتسلسل وهو الإسناد ، كأن يقال : حدّثنا فلان أو أخبرنا فلان ، أو أملى عليّ فلان ما هو كذا وكذا . ولما بَعُدَت الرواية جعلوها مُتسلسلة فقالوا : حدّثنا فلان عن فلان أنه سمع فلاناً يقول كذا وكذا . . وترتّب على ذلك النّظر في طبقات المُحدّثين للتفريق بين الثقات وغيرهم ، فجعلوهم طبقات : الصحابة ، فالتابعون ، فتابعو التابعين ، ثم العلماء الذين بلغوا رتبة الاجتهاد ، ثم المُشتغلون في جمع الأحاديث وحفظها ، ثم نُقاد الأحاديث وشُرّاحها . وألفوا في طبقات المُحدّثين والرواة كتباً ومصنّفات كثيرة .

وكان أهل الأمصار يختلفون في طرق إسنادهم ، فطريقة أهل الحجاز أعلى وأمتن في الصحة لِتشدّدهم في شروط النقل من العدالة والضبط ، وسندهم الأوثق بعد الصحابة الإمام مالك (- ١٧٩ هـ) الذي لم يَصُح عنه سوى ثلاث مائة حديث فقط . ثم أصحابه كالشافعي وابن حنبل . ومالك هو أول من دَوَّن الحديث في كتاب المُوطأ ، رتبه على أبواب الفقه . ثم عُني الحفاظ في طُرُق الأحاديث وأسانيدِها ، حتى جاء محمد بن إسماعيل البخاري (- ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م) إمام المُحدّثين في عصره . فخرّج أحاديث السُّنة على

أبوابها، وصنّف كتابه «الصحيح». ثم جمع مسلم بن الحجاج النيسابوري (- ٢٦١ هـ / ٨٧٥ م) مُسنّده الصحيح من حوالي ثلاث مائة ألف حديث مسموعة، فسُمّي كتاباهما الصحيحين. وأصبحا مرجعي أكثر الناس.

ثم جاءت طبقة أخرى من المحدثين، فجمعت بين الصحيحين (البخاري ومسلم)، أو بينهما وبين الموطأ، فاجتمع من ذلك: الكتب الستة المشهورة وهي للبخاري، ومسلم، وأبي داود، ثم الترمذي (- ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)، والنسائي (- ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م). والدارقطني (- ٣٨٥ هـ / ٩٦٥ م) ويُضاف إليهم ابن ماجه (- ٢٧٣ هـ / ٨٨٣ م) الذي يجعله بعضهم مكان الدارقطني.

وأعظم هذه الكتب مكانة كتابا البخاري ومسلم، ويُطلق على كل منهما اسم «الصحيح». كما يُطلق على كل من الكتب الباقية مصطلح «السُنن». وقد وضعت كتب أخرى لها مكانتها من التقدير، لكنها لم تبلغ درجة كُتب الصحاح والسُنن المشهورة منها سنن عبد الله الدارمي (- ٢٢٥ هـ / ٨٦٨ م).

لكن هذه الكتب جميعاً لم تُسلم من النقد؛ فقد أخرج الدارقطني مائتي حديث من صحيح مسلم ذهب إلى أنها ضعيفة. ولقد وضع أحمد بن حنبل مسنداً يُعتبر من أمّات كتب الحديث، جمع فيه مائة وخمسين ألف حديث بالأسانيد والمتون، لكنه لا يُعدّ في الصحاح نظراً لِترخّصه في قبول الحديث. كما ألّفت بعد تلك المجموعات كتب أخرى ليس فيها من جديد غير التّوبيع والتنظيم، منها مسند البغوي (- ٥١٠ هـ / ١١١٦ م) ويُسمى مصابيح السُنّة. ومن كتب الأحاديث الموثوقة جامع الجوامع والجامع الصغير للسيوطي.

وقد وُضعت تفاسير وشروح كثيرة للصحاح أهمها تفسير النووي (٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م) وتفسير ابن حجر العسقلاني (- ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) وتفسير القسطلاني (- ٩٣٢ هـ / ١٥١٧ م)، وغير ذلك.

أما الشيعة فلهم مسانيدهم الخاصة بهم، أهمها الكافي لمحمد بن يعقوب الكليني (- ٣٢٨هـ / ٩٣٩م). وكتاب «من لا يستحضره الفقه» لمحمد بن بابويه القمي (- ٣٨١هـ / ٩٩١م). وتهذيب الأحكام، والاستبصار فيما اختلف فيه الاخبار، لمحمد الطوسي (- ٤٥٩هـ / ١٠٦٧م)^(١).

القسم الثاني - أنواع الحديث:

إنطلاقاً من دراسة السند والمتن، صنّف نقاد الحديث والمشتغلون في هذا الباب، الحديث النبوي الشريف إلى أقسام رئيسية ثلاثة: الصحيح والحسن والضعيف. ويندرج في هذه الأقسام الأساسية أنواع فرعية كثيرة ومتعددة، منها ما هو خالص للصحة أو للحسن أو للضعف، ومنها ما هو مشترك بين الصحيح والحسن فقط، ومنها ما هو مشترك بين الأقسام الرئيسية الثلاثة على السواء. ونحن في عجالتنا هذه سنعرض عرضاً موجزاً لتلك الأقسام الرئيسية، تاركين التعمق فيها وبدراسة أصنافها التّحتية للمتخصصين بالدراسات الإسلامية.

أولاً - الصحيح وأنواعه:

هو الحديث المُسند الذي يتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط، حتى ينتهي إلى الرسول الكريم، أو إلى منتهاه من صحابي، أو من هو دونه، ولا يكون شاذاً ولا معللاً^(٢). وفي هذا التعريف أمور ينبغي ملاحظتها:

١ - إن الحديث الصحيح «مُسندٌ» وهو ما اتصل إسناده من راويه إلى مُنتهاه.

(١) راجع: زيدان (جرجي) تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٣، ص ٧٥.

(٢) نقلاً عن: الصالح (صبحي) علوم الحديث ومصطلحه ص ١٤٥.

ولذلك يُقال في وصفه أيضاً: أنه مُتَّصِلٌ أو موصول. فالحديث المُرسَل الذي سقط منه الصحابي فَقَدَ الاتِّصال في السَّنَد، فهو على الأرجح ضعيف وليس صحيحاً. وكذلك فإنَّ الحديث المنقطع ليس بصحيح، لأن رجلاً سقط من إسناده، أو لأن رجلاً مبهماً ذُكر في هذا الإسناد والإبهام أشبه بالسقوط. ومثل ذلك يقال في «المُعْضَل» لأنه الحديث الذي سقط من إسناده إثنان فأكثر.

٢ - إن الحديث الصحيح لا يكون «شاذاً» والشاذ ما رواه الثقة مخالفاً رواية الثقات.

٣ - أن الحديث الصحيح لا يكون «مُعَلَّلاً» والمُعَلَّل هو الذي اُكْتُشِفَتْ فيه علة خفية تُقَدِّح في صحته، وإن كان يبدو في الظاهر سليماً من العلل.

٤ - إن رجال السَّنَد في الصحيح كلهم عدول ضابطون. فإن فقدت في أحدهم صفة من صفات العدالة أو الضعف ضعف الحديث ولم يصحح.

والحديث الصحيح على قسمين: صحيح لذاته وصحيح لغيره. فالصحيح لذاته هو ما اشتمل على صفات القبول من أعلاها. أمَّا الصحيح لغيره فهو ما صُحِّحَ لأمر أجنبي عنه، إذا لم يشتمل من صفات القبول على أعلاها، كالحسن فإنه إذا رُوي من غير وجه ارتقى بما عضده من درجة الحُسْنِ إلى منزلة الصحة.

وكما يوصف الصحيح بأنه مُسندٌ ومُتَّصِلٌ، يوصف بأنه متواتر أو آحادي. فالمتواتر هو الحديث الصحيح الذي يرويه جمعٌ يمنع العقل والعادة تواطؤهم على الكذب، عن جمع مثلهم في أول السند ووسطه وآخره. ويُقسَّم المتواتر إلى لفظي ومعنوي. فالمتواتر اللفظي هو الذي رواه جمعٌ في أول السند ووسطه وآخره بلفظ واحد، وصورة واحدة. والمتواتر المعنوي فهو الذي لا يُشترط في

روايته المطابقة اللفظية، وإنما يكتفي فيه بإداء المعنى ولو اختلفت رواياته، عن الجمع الذي يمنع العقل والعادة تواطؤهم على الكذب.

والحديث الصحيح يسمى «غريباً» إذا تفرّد بروايته واحد ثقة، وتكون غرابته في المتن تارة، وفي الإسناد طوراً. ويسمى أيضاً مشهوراً إذا اشتركت جماعة في روايته عن الشيخ الثقة.

غير أن درجة الصّحة ليست واحدة في كل ما يُسمى صحيحاً، ولا في جميع الكتب المُشتملة على الصحيح، بل يعرف المحدثون الصحيح والأصح، وهم يعتقدون أن رتب الصحيح تتفاوت بتفاوت الأوصاف المقتضية للتصحيح في القوة، على أن الحديث قُسم سبعة أقسام: أعلاها ما اتفق عليه البخاري ومسلم، ثم ما انفرد به البخاري، ثم ما انفرد به مسلم، ثم ما كان على شرطهما وإن لم يُخرّجاه، ثم على شرط البخاري، ثم على شرط مسلم، ثم ما صححه غيرهما في الأئمة.

وتفاوت كذلك رتب الصحيح بتفاوت الأمصار التي روته، ويوشك أكثر العلماء أن يجزموا بأن أصح الأحاديث ما رواه أهل المدينة، ثم أهل البصرة، ثم أهل الشام^(١).

ثانياً - الحسن وأنواعه:

وهو ما أتصل سنده بنقل عدل خفيف الضبط لكنه سَلِمَ من الشذوذ والعلّة. وأهم ما في هذا التعريف لرفع الإلتباس بين الصحيح والحسن، أنّ العدل في الحسن خفيف الضبط، بينما هو في الصحيح تام الضبط. وكلا القسمين سالم من الشذوذ والعلّة، وكلاهما يُحتجّ به ويُستشهد بمضمونه.

(١) راجع: الصالح (صبحي) علوم الحديث ومصطلحه، ١٤٥ - ١٥٥.

والحديث الحسن نوعان: حسن لذاته وحسن لغيره. والحسن لذاته، فحُسنُه ناشيء من شيء داخل فيه ذاتي له، لا من شيء خارج عنه. فهو قد بلغ - بنفسه - درجة الصحيح في شروطه، وإن كان أخف منه بضبط رجاله.

أما الحسن لغيره فهو الذي في إسناده مستور لم تتحقق أهليته، ولا عدم أهليته، غير أنه ليس مغفلاً كثير الخطأ، ولا متهماً بالكذب، ويكون متنه معضوداً بمتابع أو شاهد.

والحسن لذاته إذا روي من وجه آخر، ترقى من الحسن إلى الصحيح لقوته من الجهتين، فيعتضد أحدهما بالآخر. وذلك لأن الراوي في الحسن متأخر عن درجة الحافظ الضبط، مع كونه مشهوراً بالصدق. فإذا روي حديثه من غير وجه - ولو وجهاً واحداً - قوي بالمُتابعة وزال ما كان يُخشى عليه من جهة سوء حفظ روايته فارتفع من درجة الحسن إلى درجة الصحيح^(١).

ثالثاً - الضعيف وأنواعه:

وهو ما لم تجتمع فيه صفات الصحيح ولا صفات الحسن. ومن أنواعه المُرسَل وهو ما سقط منه الصحابي، وسبب ضعفه فقْدُ الاتصال في السند، وإنما سُمي مرسلاً لأن راويه أرسله وأطلقه ولم يُقَيِّده بالصحابي الذي تحمَّله من الرسول الكريم. ثم من أنواعه المنقطع وهو الحديث الذي سقط من إسناده رجل، أو ذُكر فيه رجلٌ مبهم، وسبب ضعفه فقْدُ الاتصال في السند، فهو كالمُرسَل من هذه الناحية، ثم المعضل وهو الحديث الذي سقط منه راويان فأكثر بشرط التوالي، فأصبح أشد استغلاقاً وإبهاماً من المنقطع. ومن هنا جاءت تسميته بالمعضل ويُعتبر قسماً من المنقطع لكن بوجه خاص، لأن كل معضل منقطع، وليس كل منقطع معضلاً، وفَقْدُ الاتصال في سنده هو سبب ضعفه. ثم

(١) راجع الصالح (صبحي) علوم الحديث ومصطلحه، ١٥٦ - ١٦٤.

المُدَلِّس وهو قسمان: أحدهما مُدَلِّس الإسناد وهو الحديث الذي يُؤَدِّيه الراوي عن عاصره ولقيه، مع أنه لم يصح له سماع منه، أو عن عاصره ولكنه لم يَلِقْهُ مُوهماً أنه سمعه من لفظه. أما القسم الثاني فهو تدليس الشيوخ وهو أن يتّصف راويه بأوصاف أعظم من حقيقته، أو يسميه بغير كُنْيته قاصداً تعمية أمره.

ومن أنواع الضعيف أيضاً المُعَلَّل وهو الحديث الذي أكتشفت فيه عِلَّةٌ تُقَدِّح في صحته، وإن كان يبدو في الظاهر سليماً من العلل. ثم المضطرب وهو الذي تتعدّد رواياته وهي - على تعددها - مُتساوية مُتعادلة لا يمكن ترجيح إحداها بشيء من وجوه الترجيح، وقد يرويه راوٍ واحدٌ مرتين أو أكثر أو يرويه إثنان، أو رواة متعددون ومنشأ الضعف فيه ما يقع من الاختلاف حول حفظ رواته وضبطهم، لأن انتفاء هذا الاختلاف معناه رجحان إحدى الروايات بما تُبَيِّن لراويها من حفظ أو ضبط أو طول سماع لمن أُدِّي عنه، كذلك سمي مضطرباً، إذا تَرَجَّحت فيه إحدى الروايتين أو الروايات. والاضطراب يقع في الإسناد غالباً، وقد يقع في المتن، لكن قَلَّ أن يحكم المُحدِّث على حديث بالاضطراب في المتن وحده دون الإسناد.

ومن أنواعه كذلك المقلوب وهو الذي انقلب فيه على أحد الرواة لفظ في المتن، أو اسم رجل أو نسبه في الإسناد، فقدم ما حَقَّه التأخير، أو أخر ما حَقَّه التقديم، أو وضع شيئاً مكان شيء. والقَلْبُ قد يكون في المتن، كما قد يكون في الإسناد.

ومنشأ الضعف في الحديث المقلوب قِلَّة الضبط، لِمَا يَقَعُ فيه من تقديم وتأخير وإستبدال شيء بشيء، وهو - فوق ذلك - يُخَلُّ بفهم السامع ويحمله على الخطأ. ثم الشاذ وهو عسير، ولعسره لم يُفرده العلماء بالتصنيف، غير أن أهم ما يُلاحظ فيه معنيان:

الانفراد والمخالفة، وهو بصورة عامة ما رواه الثقة مخالفاً للثقات، وهو بتعبير آخر ما رواه المقبول مخالفاً لمن هو أولى منه.

ومن أنواع الضعيف أيضاً المنكر وهو الحديث الذي يرويه الضعيف مخالفاً رواية الثقات، وهويبين الشاذ، إذ أن راوي الشاذ ثقة بينما راوي المنكر ضعيف غير ثقة. ثم هناك المتروك وهو الحديث الذي رواه راوٍ واحدٌ متهم بالكذب في الحديث، أو ظاهر الفسق بفعل أو قول، أو كثير الغفلة، أو كثير الوهم. وأنواع الضعيف ليست على درجة واحدة من الضعف، بل تتفاوت تبعاً لحال روايتها، فمن الضعيف أضعف كما أن من الصحيح أصح (١).

القسم الثالث - أثر الحديث في الأدب:

أثر عن بعض القدماء قولهم أن العلوم ثلاثة: «علم نضج وما احترق وهو علم النحو والأصول، وعلم لا نضج ولا احترق وهو علم البيان والتفسير، وعلم نضج واحترق وهو علم الفقه والحديث» (٢). وهذا القول يُصوّر النتائج التي انتهى إليها الباحثون بعد الموازنة بين تلك العلوم، وبعد المقارنة بين

-
- (١) راجع: الصالح (صحيح) علوم الحديث ومصطلحه، ١٦٥ - ٢٠٥.
- وراجع أيضاً: القسطلاني (أبو العباس شهاب الدين، أحمد). إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، بهامشه صحيح مسلم بشرح النووي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣، م ١، ص ٧ وما بعدها.
- النووي (محي الدين بن شرف). التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير، تقديم وتحقيق وتعليق محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٥، ص ٢٥، وما بعدها.
- الأمدي (علي بن محمد). الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٤، م ٢، ص ٢٥ وما بعدها.
(٢) راجع السيوطي «جلال الدين» الأشباه والنظائر في النحو، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٤، م ١، ص ٥٠.

أصولها المؤصلة، وقواعدها المقررة، ومصطلحاتها الدقيقة .

إن العلم الذي نضج ثم احترق لكثرة التصنيف فيه هو علم الحديث أوفقه الحديث، وأن العلوم الأخرى سواء أنضجت ولم تحترق كأصول النحو، أم لم تنضج ولم تحترق كمناهج التفسير، تأثرت جميعاً تأثراً يتفاوت قوة وضعفاً، وإتساعاً وعمقاً، بما وضعه نقاد الحديث من مقاييس، وأرسوه من قواعد وأصول. ولئن نشأ الفقه في ظل الحديث، ثم أضحى جزءاً لا يتجزأ من كُله الكبير، فقد وجد التفسير أيضاً طريقه في رحاب الحديث، حين عوّل المفسرون على السنة النبوية في تأويل كتاب الله، وظل التفسير بعد ذلك كالفقه جزءاً من الحديث، حتى استقل علماء قائماً بذاته، له مناهجه وأصوله. ولكنه على استقلاله ما انفك شديد الارتباط بحديث الرسول، ولو في جانب منه على الأقل، وهو جانب التفسير بالمأثور.

وهكذا احتج المفسرون بالعلم الذي نضج واحترق وهو الحديث، تأييداً للذي لم ينضج ولم يحترق وهو علم التفسير، كما احتجوا أيضاً على الفقه بالحديث، فدأب الفقهاء والمفسرون يحتذون مناهج المُحدثين، وطُبعت ألوان كثيرة من الفقه والتفسير بطابع الحديث^(١).

وبالإضافة إلى ذلك فإن أرباب البلاغة والأدب، وجدوا في الحديث مادة جيدة لبلاغتهم وأدبهم يترسمون أثره وينسجون على منواله، حتى ذهبت بعض الأحاديث النبوية مثلاً يُحتذى في الفصاحة والبلاغة.

وعن طريق الحديث انتشرت في العالم الإسلامي أكثر موارد الثقافة. فعلم التاريخ اعتمد الحديث مادة له، قال أحمد أمين: «فالتاريخ الإسلامي بدأ

(١) الصالح (صبحي)، علوم الحديث ومصطلحه ص ٣١٧ .

بشكل حديث، كالذي نرى في كتب الحديث من مغازٍ وفضائل أشخاص وفضائل أمم، ثم تطوّر التاريخ إلى أن أصبح كتاباً قائمة بنفسها، ودليلنا على ذلك أن كتب التاريخ الأولى كسيرة ابن هشام، وما روى ابن جرير الطبري في تاريخه والبلاذري في فتح البلدان، يكاد يكون مُختزياً نمط الحديث وأسلوبه^(١). حتى أن ابن خلدون اعتمد على علماء الحديث في وضع أصول الرواية وطرق تحمّلها في وضعه لتاريخه المشهور، وخصوصاً مقدمته الذائعة الصيت.

وبالإضافة إلى ذلك فإنّ النحو تأثر بالحديث، وأخذ من منهجيته الشيء الكثير، وكان تأثيره به على وجهين: أحدهما رافق نشأة علم الحديث قبل أن ينضج، والآخر شهد احتراق هذا العلم بعد نضجه. فعلم النحو وعلم الحديث خضع كلّ منهما لشروط النشأة نفسها.

فمنذ العصر الإسلامي كان التفكير بإسناد الحديث ساذجاً أولاً، وكذلك كان التفكير في وضع مسائل النحو والعربية، بالإضافة إلى أن بدايات نشأة النحو تُعزى إلى علي بن أبي طالب وهو من كبار الصحابة وإمام الحفاظ والمحدثين كما أن العناية بضبط روايات الحديث واستنباط الحكم الشرعي منه، رافق استنباط أحكام النحو ومسائله. فأبو الأسود الدؤلي الذي اشتهر بأنه سبق إلى وضع مسائل في العربية، إنما عزا إلى علي بن أبي طالب التفكير الأول في نشأة النحو ووضع بعض مسائله، وفي عزوه هذا ضرب من الإسناد، يؤكد التبكير في إيضاح طرق التحمّل والاداء. فرواة الحديث الذين التزموا الاسناد المتّصل، كانوا هم أنفسهم رواة لشواهد العربية من شعر ونحو، أو على الأقلّ تأثر بهم النحاة، واستلهموا طريقتهم في الإسناد اللغوي والنحوي. وهذا يوضح العلة

(١) أمين (أحمد)، فجر الإسلام، ص ٢٢٧.

المتينة بين الحديث وعلوم العربية^(١).

وبالعودة إلى حديث الرسول الكريم الذي حَدَّثَ فسحر ببيانه وروعة بلاغته كلامه، نجد أنه أُوتِيَ جوامع الكلم، ولم ينطق إلا عن ميراث حُكْمَة، قال عنه الجاحظ: «لم يتكلم إلا بكلام قد خُفَّ بالعصمة وشُيِّد بالتأييد، ويُسر بالتوفيق. هو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام. لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا باءت له حجة، ولم يَقم له خصمٌ، ولا أفحمه خطيب، بل بَزَّ الخُطْب الطوال بالكلم القصار، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يَطْلُب الفلح (الفوز والظفر) إلا بالحق، ولا يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقفاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى من كلامه»^(٢).

وقد اختار الشريف الرضي الأحاديث النبوية التي تُعتبر قُدوة لطلاب الأدب، ومنهل رواد البلاغة، وأصول البيان العربي^(٣). لكن جمع الرضي وكلام الجاحظ لم يشكل إلا نزرًا يسيراً من اهتمامات الأدباء والفقهاء بحديث الرسول. فاندفعوا جميعاً يستظهرونه ويقتبسون منه، ويرصّعون به شعرهم ونثرهم وخطبهم وأصبح لكلامهم من القوة والفضل والحجة والبرهان ما يبيّزون به الآخرين. وقد إتخذها علماء الحديث وأئمة اللغة هدياً لهم ونوراً وحكمة ومثلاً أعلى ترفع من شأن الإنسان وتوجهه نحو الأفضل والأكمل.

(١) الصالح (صبحي) علوم الحديث ومصطلحه ص ٣١٧ وما بعدها.

(٢) الجاحظ (أبو عثمان، عمرو) البيان والتبين، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٩، ج ٢، ص ١٧.

(٣) الشريف الرضي (محمد بن الحسين) المجازات النبوية، مؤسسة الحلبي، القاهرة لا تاريخ.

الشعر والإسلام

القسم الأول - الشعر في ميزان الإسلام

إتخذ الإسلام من الشعر مواقف تنسجم وطبيعة المرحلة التي شهدتها الدعوة، فالمواقف الإسلامية لم تكن إعتباطية أو عشوائية، بل كانت منبثقة من ظروف الدعوة نفسها. فالدين الإسلامي ذم الشعر، وهون من أقدار الشعراء أول الأمر، حين كان الشعر يهاجم الدين، وينتقص منه، وحين كان المشركون يتهمون الرسول بأنه شاعر، وبأن قوله شعر.

لكن الإسلام إتخذ بعد حين الشعر سلاحاً من أسلحة الحرب، فأخذ يوجه الشعراء نحو الإلتزام النسبي بقيم الإسلام وتعاليمه. فشهد هؤلاء ألسنتهم يحاربون بها أعداء الإسلام من مشركي قريش.

أما بعد الفتح - فتح مكة والطائف - وقهر قريش أنهى الإسلام مهمته الحربية مبدئياً وانتهى دور الشعر الهجائي، أو دور النقائص الشعرية إذا جاز التعبير. فقريش عدو الأمس، قد أصبحت بعضاً من المسلمين، ولم يعد من الجائز أن يثير الشعر الضغائن والأحقاد التي عفا عليها الإسلام.

لذلك لا يمكن القول أن الدين الإسلامي قد نهى عن قول الشعر عموماً، ولا يمكن القول أيضاً أنه شجع الشعر دون توجيه أو تهذيب. بل يجب أن يُنظر

إلى النهي والتشجيع من منطلق الأحداث التي رافقت الإسلام، وطبيعة المواقف والمراحل التي شهدتها الإسلام، كما لا يمكن أن يُنظر إلى الشعر بمعزل عن تلك المواقف والمراحل^(١).

وفي نظرة موضوعية إلى موقف الإسلام من الشعر، نجد أنّ القرآن الكريم نزه الرسول عن قول الشعر، وردّ مزاعم المشركين الذين زعموا أنّ القرآن شعر أو ضرب من الشعر قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾^(٣). وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾^(٥) وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾^(٦) وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾^(٧). ولعلّ الحكمة في تنزيه الرسول عن قول الشعر، وعن أن يكون شاعراً، أنّ الله وصف الشعراء بالطيش والسّفه، وبأنهم يقولون ما لا يفعلون. فهم متهمون بالغلو والكذب

(١) الجبوري (يحى) شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٤، ص ٤٠.

والجبوري (يحى) الإسلام والشعر، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٤،

ص ٤١.

(٢) يس: ٦٩.

(٣) الحاقة: ٣٨ وما بعدها.

(٤) الشعراء: ٢٢٤ وما بعدها.

(٥) الأنبياء: ٥.

(٦) الصافات: ٣٦.

(٧) الطور: ٣٠.

ومجاوزة الحق في أكثر شعرهم، وتلك صفات برأ الله رسوله منها.

لكن القرآن الكريم يستثني في حكمه على الشعراء، أولئك الصالحين بقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(١). فالقرآن الكريم يفرق بين فئتين من الشعراء، فئة ضالّة طالحة، وفئة مؤمنة صالحّة، وكأنه شجع بشكل أو بآخر على نظم الشعر الذي يُعنى بنشر تعاليم الإسلام وقيمه في حين نفى نفيّاً قاطعاً صفة الشاعر عن رسوله ونزّهه عن أن يكون كلامه شعراً.

أمّا الرسول الكريم فله مواقف من الشعر تنسجم تماماً مع موقف القرآن الكريم. فلقد ذمّ الشعر أول الأمر، ونهى عن نظمه وروايته فقال: «لئن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خيراً من أن يمتلىء شعراً»^(٢). كما أنه توعد الشعراء الهجائين الذين ينهشون أعراض الناس بالباطل فقال: «من قال في الإسلام هجاءً مُقذعاً فلسانه هدر»^(٣). وهذا النهي والتوعد ينسجم مع ما جاء في القرآن الكريم من ذمّ ضرب من الشعر بعينه، وتنزيه الرسول عن أن يكون شاعراً.

ولو كان الرسول شاعراً، لنسب العرب بلاغته وفصاحته وحجته التي استقاها من القرآن الكريم، إلى ملكة الشعر أو شيطان الشعر، ولأضحى الشك في القرآن حسب زعمهم أقرب إلى معقولهم. وكى لا يزدادوا ضلالاً، ويتمسكوا بحجّتهم الخاطئة، لم يرو الرسول بيت شعر كامل الوزن صحيحه، وإذا أثر عنه

(١) الشعراء: ٢٢٧.

(٢) نقلاً عن: ابن رشيقي القيرواني (أبو علي، حسن) العمدة في محاسن الشعر وأدبه، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٥م، ج ١، ص ٣١.

(٣) المرجع السابق: ج ٢، ص ١٧٠.

بعض الأبيات فهي أقرب إلى النَّثر منها إلى الشعر (١) .

ولكن رغم ذلك شجّع الرسول الشعراء المسلمين، واستنهض همهم على قول الشعر الجيد فقال: «لا تدعُ العربُ الشعرَ حتى تدعُ الإبِلَ الحنين» (٢) . فالرسول يرى أنّ الشعر ملكة فنية صقلت أذواق العرب وأرهفت نفوسهم، وهو على نوعين طيب وخبيث فقال: «إنما الشعرُ كلامٌ، فمن الكلام خبيث وطيب» (٣) والرسول الكريم كان يوجّه الشعراء إلى أن يتمثلوا في شعرهم المفاهيم الإسلامية والقيم الجديدة، لأن الإسلام كان ثورة غيرت كثيراً من نُظم الجاهلية ومفاهيمها، وأقامت مثلاً وقيماً جديدة. لكنّ الشعراء كانوا دون مستوى الحدث فوفقوا قليلاً في تمثّل قيم الإسلام وتعاليمه، وأخفقوا كثيراً، وكان لذلك الإخفاق أثره في خمول الشعر وضعفه، إذا ما قيس بشعر العصر الجاهلي، ولذلك أسباب وعوامل نذكر منها:

١ - القرآن الكريم وإنشغال الناس به: بُهرَ العرب ببلاغة القرآن الكريم، وسموّ كَلِمه، وأحسّوا بعجزهم عن مجاراته في نظمه ورفضه ومعانيه وقيمه قليلاً أو كثيراً، فانصرفوا عن قول الشعر، وهذا ما يُقرّره ابن خلدون حين يقول: «ثم انصرف العرب عن ذلك (أي الشعر) أول الإسلام، بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحي، ومما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً» (٤) .

(١) ابن عبد ربه (أحمد بن محمد) العقد الفريد، دار المسيرة، بيروت، ١٩٨١م، ج ٥، ص ٨٢، وج ٦، ص ١١٥ .

(٢) ابن رشيّق القيرواني، العمدة: ج ١، ص ٣٠ .

(٣) ابن رشيّق القيرواني، العمدة: ج ١، ص ٢٧ .

(٤) ابن خلدون (عبد الرحمن) المقدمة، ص ٥٨١ .

٢ - إنصراف الشعراء عن نظم الشعر : إن الفكرة الشائعة في عدم تشجيع الدين للشعر ، دفعت الشعراء إلى الإنزواء والتحرّج من النظم ، ولا سيما أولئك الذين ملأ الإيمان قلوبهم . فكانوا يخشون أن ينالهم قوله تعالى : ﴿ الشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ (١) ونتيجة لذلك فإن ليبدأ ترك الشعر ولاذ بالصمت ، كما أن حسناً لأن شعرة لأنه دخل في باب الخير ، وترك طريق الفحولة من هجاء مُقذع ، ومديح كاذبٍ وتشبيبٍ وفخرٍ بالأحساب والأنساب .

٣ - إبطال الدوافع الجاهلية : لقد ترك معظم الشعراء تلك الأعمال التي تُجود الشعر وتُنشط القرائح لأنها تدخل في باب النظم التي نهى عنها الإسلام ، فأبطلت أهم الدوافع التي جعلت شعراء الجاهلية فحولاً . أضف إلى ذلك أن الرسول الكريم لم يضطنح لنفسه تحديداً الشعراء ، بل شجّعهم على تمثّل القيم الإسلامية التي لم يتمثلوها تمثلاً واعياً بعد ، وبالتالي فإنها لم تستطيع أن تُفجّر في نفوسهم ينابيع الإبداع الغني (٢) .

هذه هي أهم الأسباب التي تقدّم في ضعف الشعر الإسلامي ، ولا شك أن بعضها صحيح ، فلقد أصاب المخضرمين شيء من الضعف والهزال ، ولأن الشعر عموماً ، إلا أن الذي يلاحظ أن الإسلام لم يقف - كما يبدو لأول وهلة - من الشعر موقف المُعيق المُضطهد ، رغم أنه أعاق ضرورياً من الشعر لا تنفق ومبادئ الإسلام وقيمه .

— والملفت للنظر أن مجالات جديدة أتيحت للشعراء آنذاك ، لكنهم لم

(١) الشعراء : ٢٢٤ .

(٢) خلف الله (محمد أحمد) دراسات في الأدب الإسلامي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص ٤٧ .

يُحسنوا استغلالها، ولو فعلوا لكانت كفيلاً أن تسمو بالشعر سموً كبيراً. فلقد فُتِحَ بابُ النقائضِ على مصراعيه بين شعراء كلِّ من المسلمين والمشركين واشتدَّ بينهم صراعُ القول، كل يحاول إثبات حقِّه في الوجود، ويُدافع دفاع المستميت عن عقائده وتطلعاته المستقبلية. لكن النتيجة كانت عكسية، فَخَبَّتِ الشُّعْرَ وَالآنَ، ولم يبلغ أحدٌ من أولئك شأواً فحول الجاهلية.

وهذا الإخفاق في مستوى شعر صدر الإسلام دفع ابن خلدون ومن تابعه في رأيه إلى تحميل تبعاته - خطأ - للإسلام مستندين في ذلك إلى الرواية القائلة: قيل لحسان: لَأَنَّ شِعْرَكَ أَوْ هَرَمَ فِي الْإِسْلَامِ يَا أَبَا الْحُسَّامِ: فأجاب القائل: يا ابن أخي إِنَّ الْإِسْلَامَ يَحْجُزُ عَنِ الْكُذْبِ أَوْ يَمْنَعُ مِنَ الْكُذْبِ، وَإِنَّ الشُّعْرَ يُزَيِّنُهُ الْكُذْبُ. وهذا يعني أَنَّ الجودة في الشعر تتطلب الإفراط في الوصف والتزيين بغير الحق، وذلك كله نوع من أنواع الكذب^(١). لكن هذا الاعتقاد إنَّ صحَّ إفتراضاً على الشعراء الذين انخرطوا في الإسلام ودافعوا عنه، فيجب أن لا يَصْدُقَ على الشعراء المشركين الذين ناهضوا الإسلام، ولا سيَّما أن جمهور القبائل العربية لم يُسلم إلا بعد فتح مكة، وان الانقطاع عن قول الشعر لم يَدُم إلا ستين فقط أثناء الفتح، وحتى في فترة الانقطاع هذه بقي الشعر القبلي مزدهراً.

— فالإسلام كدين لم يَنَّهُ عن قول الشعر عامة، بل نهى عن قول شعر معين كشعر الهجاء المقذع. في حين أَنَّ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ كان يستحسن بعض الشعر ويثيب عليه، بالإضافة إلى أَنَّ الخلفاء والصحابة كانوا يردِّدون الشعر في المسجد^(٢). وفي نظرة موضوعية إلى شعر تلك المرحلة نجد أنَّ بَوْناً شاسعاً

(١) الجبوري (يحيى) شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ص ٤٧.

(٢) نقلاً عن: ضيف (شوقي) العصر الإسلامي، ص ٤٥.

بين شعر نظمه شعراء معيّنون في الجاهلية، وشعر نظموه هم أنفسهم في العهد الإسلامي من حيث الأصالة والمستوى الفني. ولعل مراد ذلك أن الشعراء المسلمين واجهوا عبء الاتصال المباشر بالقيم الجديدة، وما تحمله من مظاهر التغيير في السلوك والأخلاق والقيم الاجتماعية والروحية. فلم يكن من اليسير على شاعر كحسان مثلاً - قضى جانباً كبيراً من حياته في الجاهلية - أن يجد لنفسه أسلوباً جديداً من الشعر، يُحسن التعبير فيه عن تلك القيم الجديدة، ويحتفظ في الوقت نفسه بتلك الخصائص الفنية التي نمت وتطوّرت في ظلّ مجتمع جاهلي مختلف في قيمه وقضاياه. لكنّ الشعراء الذين كانوا أقلّ انغماساً في تلك الحرب الكلامية، فلم يشعروا كثيراً بتلك الأزمة الفنية.

والحقيقة أنّ ذلك الضعف الذي حمل بعض الدارسين تبعاته للإسلام، فقد بدأ قبيل الإسلام، فأنقضى عهد الفحول، ولم يبقَ منهم إلاّ الأعشى الذي مات وهو في طريقه إلى النبي ليمدحه ويعلن إسلامه، وليد الذي كان قد بلغ الستين، وأوشك أن يكف عن قول الشعر، وبعض شعراء مقلّون أجادوا في قصائد مفردة، لكنهم لم يبلغوا جميعاً شأوا أولئك الفحول (١).

ويلاحظ الدارس لشعر تلك الفترة، أنّ الشعراء بدأوا منذ البعثة، يتأثرون تأثيراً واضحاً بالمعاني الدينية الجديدة، وبالأسلوب القرآني. مما يؤكد أنّ مواجهة الشاعر المخضرم للمجتمع الجديد، كانت مواجهة سريعة فرضت عليه إمّا التكيف السريع كما فعل حسان، أو الصمت التام كما تذكر الرواية عن لبيد، أو المضي على طريق الشعر الجاهلي، إلاّ ما كان من تأثير يسير كالذي أثر عن الحطيئة.

(١) القط (عبد القادر) في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٢.

القسم الثاني: المخضرم في التسمية والمعنى.

لا بُدَّ لنا ونحن أمام كثرة من شعراء صدر الإسلام الذين وُصفوا بالخضرمة، من أن نُلِمَّ إمامةً بسيطةً بمعنى الخضرمة التي شملت معانٍ متعددة أبرزها:

١ - الكثرة والسعة: وردت كلمة خضرمة بمعنى الكثرة والسعة، جاء في اللسان: «بَثْرُ خَضْرَمٍ: كثيرُ الماء، وماءٌ مُخَضْرَمٌ وَخَضَارِمٌ: كثيرة»^(١).

وجاء في القاموس: «الخضرم: البثر الكثيرة الماء، والبحر الغَطْمَطْمُ، والكثير من كلِّ شيء، وقالوا: كلُّ شيءٍ واسع خضرم، والخضرم: الجواد الكثير العطية»^(٢) وهكذا يُستنتج مما ورد في اللسان والقاموس أن مادةً مُخَضْرَمٍ تفيد الكثرة والسعة.

٢ - القطع: ووردت كلمة خضرمة في اللسان أيضاً في معنى القطع والوسم يقال: «ناقاةٌ مُخَضْرَمَةٌ: قُطِعَ طَرَفُ أُذُنِهَا، والخضرمة: قَطَعُ إحدى الأذنين، وهي سِمةُ الجاهلية. وقال الأصمعي: أسلم قومٌ على إبل فقطعوا أذانهم، فسُمِّي كلٌّ من أدرك الإسلام والجاهلية مُخَضْرَمًا. ويتبين مما جاء في اللسان أيضاً أن الخضرمة تفيد معنى القطع والبتر كما أنها تشير إلى المخضرم الذي عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام»^(٣).

٣ - الهجين: وجاءت كلمة خضرم كذلك بمعنى الهجين والمُختلط النسب، والذي لا تعرف حقيقة أصله قالوا: رجل مخضرم: أبوه أبيض وهو أسود،

(١) ابن منظور (محمد بن مكرم) لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٥٦، مادة خضرم.

(٢) الفيروزآبادي (محي الدين، محمد) القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، لا تاريخ، مادة خضرم.

(٣) أنظر: ابن منظور (محمد بن مكرم) لسان العرب، مادة خضرم.

وناقص الحسب، ودّعي، ومختلط النسب، والسذي لا يعرف أبواه
أو ولدته السراري .

٤ - المُدْرِك لعصرين: وجاءت كلمة خَضْرَمَة بعد تلك المعاني لتَشْمَل كل
من أدرك عهدين، فقالوا: «رجل مخضرم، إذا عاش نصف عمره في
الجاهلية ونصفه في الإسلام، وشاعر مخضرم: أدرك الجاهلية والإسلام
مثل لبيد وغيره ممن أدركهما». ولعل كلمة النصف لا تعني النصف تحديداً
بل تجوّزاً، وهذا هو المعنى الذي نريده من كلمة الخضرمة ومخضرم .

وإذا حاولنا أن نربط بين المعاني المتصلة بالسّعة والقطع والهجنة،
وبين الشاعر الذي شهد الجاهلية والإسلام. نجد أن الصلة بين الماء
المتناهي في الكثرة والسّعة، وبين عمر الشّاعر الذي أدرك عصرين
واضحة الدلالة، فأصبح ذلك الرّجل واسع العمر، كثير المشاهدة، لأنّ
السّعة هي الصلة الجامعة بين المعنيين .

وأما الربط بين معنى القطع ومعنى الإدراك لعصرين فلا يحتاج إلى
كثير من الجهد والنّصب، لأن المعنى العام يشمل من قُطِع عن الكفر
واعتنق الإسلام .

وأما معنى الهجنة فلا يتعارض مع من أدرك عصرين، لأنّ الهجين
ذا الأصل المغموز، لا يمكن أن يُفَاخِر بأصله . وبالتالي فإنّ المعتنق لدين
الجاهلية لا يمكن أن يفَاخِر سدينها، ولا سيّما بعد اعتناقه للإسلام،
فأصبحت الهجنة متّصلة بوثنيتها وعقائده قبل الإسلام .

وأما الشاعر المخضرم، فقد اختلف الرّواة في تعيينه فقال بعضهم:
«إنما يكون مُخْضِرمًا، إذا أدرك الإسلام وهو كبير، فلم يسلم إلا بعد

(١) أنظر القاموس المحيط ولسان العرب وأساس البلاغة للزمخشري مادة: خضرم .

وفاة الرسول». وبهذا المعنى يسقط من مفهوم المخضرمين الشعراء الذين أسلموا في عهد الرسول الكريم كحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك وغيرهم. وزعم بعض الرواة أن المخضرم هو الذي عاش نصف عمره في الجاهلية ونصفه في الإسلام، سواء أدرك الصحبة أم لم يدركها^(١).

لكن بعض المحدثين يرى أن الشاعر المُخضرم، من تأثر شعره بتعاليم الإسلام وقيمه، أما من لم يتأثر بالإسلام، أو الذي كف عن قول الشعر كلبيد بن ربيعة - كما زعم الرواة - فإنه لا يصح أن يُعدَّ بين المخضرمين. ويتصل بهذا المعنى ما يمكن أن يُسمى بالخضومة الفنية، ونعني أن يتلاءم ويتجانس نتاج شاعرٍ أو أديب ما، مع العناصر الفنية والمعتقدات والقيم السائدة في عصر ما. فالشاعر الذي عاش ومات في الجاهلية مثلاً، وأثر عنه بعض المعاني التي أقرها الإسلام، فهو مخضرم ولو لم يدرك الإسلام زمنياً. والشاعر الذي وُلد في الإسلام ونتاجه الشعري تقليدٌ لمعاني الجاهلية فهو لا يمت إلى الخضومة الفنية بصله^(٢). وبالإضافة إلى ذلك فلقد توسع آخرون في إطلاق تسمية المخضرم فأطلقوها على كل من أدرك دولتين أو شهد عصرين، كرؤية بن العجاج (٦٨٥ - ٧٦٢) الذي أدرك بني أمية وبني العباس ومدحهما، وحسب هذا المفهوم فإن كلمة مُخضرم تطلق تجوزاً على كل من شهد عصرين^(٣).

ونحن نظن اليوم أن كلمة مخضرم تصح أن تُطلق على كل شاعرٍ

-
- (١) مصطفى (محمود)، تاريخ الأدب العربي مطبعة الحلبي، ١٣٥٦ هـ، ج ١، ص ١٥١.
(٢) راجع جمعة (محمد إبراهيم) حسان بن ثابت، دار المعارف بمصر ١٩٦٥ - ص ١٣.
(٣) الجيوري (يحيى) شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ص ٥٥.

أو أديبٍ أو مفكرٍ سياسي أو مشتغل بقضايا الفكر من أنحائه، شرط طول العمر نسبياً والمشاركة في الأحداث الجارية في عصر ما، بالإضافة إلى الاستفادة العميقة من تجاربه الخاصة وتجارب المعاصرين والسابقين.

وما يهمنا قوله باختصار شديد أنّ الخضرمة التي ندرس سواء أكانت زمنية أم فنية، فإنها تشمل عدداً كبيراً من الشعراء الذين عاشوا قسماً من حياتهم في الجاهلية وقسماً آخر في الإسلام.

القسم الثالث: الشعر في صدر الإسلام

من المسلمات البديهية التي لا تقبل الجدل أو المناقشة، أنّ لكل عصر من عصور التاريخ وسيلة يعبر بها كل قوم عن معتقداتهم ومناحي حياتهم اليومية الخاصة والعامة. وتزداد أهمية تلك الوسيلة إذا تخطت التعبير بالقول، إلى التعبير بالحرف تصويراً ونقشاً ثم كتابة تتطور بتطور الزمن حتى تبلغ المستوى الحضاري المطلوب.

وما الملاحم التي ما زالت حية بيننا إلا دليل على عمق الصلة بين الماضي والحاضر، ووسيلة حضارية ضرورية لاستشراف المستقبل. فعبثاً نبني المستقبل إذا لم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالماضي والحاضر.

وما نوّد قوله أنّ ملاحم جلجامش وأوغاريت والمهابهاراتا والرمايانا، بالإضافة إلى الإلياذة والأوديسة والأنياذة والشاهنامة والكوميديا الإلهية وغيرها، لا يصح أن تندرج في إطار الأثریات، أو المُخَلَّفَات التاريخية وحسب، بل هي تشكل الدعائم الأساسية لاستشراق المُستقبل إستشراقاً واعياً مدروساً.

نقول ذلك، ونحن نقف أمام الشعر الجاهلي الذي بلغ أوج ازدهاره قُبيل الإسلام. وسواء أكانت المُعلقات سبع أو عشر، وسواء أصححت أم نحلت جزئياً

أم كلياً، فإنها تبقى الدليل الأثري الوحيد الذي يعبر عن عقائد العرب آنذاك، ويدلّ على مستوى تفكيرهم العقلي والنفسي والأدبي.

فالنتاج الأدبي كان يشكّل على الدوام صحافة العصر مع اختلاف التسميات، ففي العصر الجاهلي كانت تلك الصحافة، وسيلة تسجّل تطلعات العصر في مناحيه المختلفة. وفي صدر الإسلام كانت نقائض شعراء المشركين والمسلمين، بالإضافة إلى شعر يُنظم في المناسبات، منبراً للصحافة. فكان الشاعر آنذاك يُسجل إنتصارات حزبه ومآثره وتطلعاته شعراً يُذاع في الأفق، ليساعد على إكتساب الأنصار والمؤيدين، وهذه طبيعة الأمور.

لذلك إحتدمت المعركة الشعرية في صدر الإسلام مع إحتدام المعارك الحربية، ونبغ شعراء كثيرون توزعوا بين المناهضة للإسلام والتأييد له. فالمناهضون توزّعوا بين مكّة والطائف والقرى اليهودية، والمؤيدون توزّعوا بين الأنصار والمهاجرين والوافدين.

وإذا كنا اليوم ندرس نتاج الشعراء المؤيدين للإسلام كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، والنابغة الجعدي وغيرهم، فلا ينبغي أن نُهمل تماماً نتاج شعراء تنكّروا للإسلام كعبد الله بن الزبيري، وضرار بن الخطاب وغيرهما، لأن شعرهم يناهض الإسلام وبالتالي لا تجوز دراسته أو إذاعته، بل نرى أنّ الالتفات إلى ما تبقى من شعر أولئك، يمثل ضرورة تفرضها الإحاطة الموضوعية بشعر صدر الإسلام. ثم إننا لا نجد داعياً للخوف على الدّين الإسلامي، مهما كثر المتقولون والمعارضون، ما دام الإسلام مؤيداً من لدن ربّ عليم.

ويقف المرء في رحلته مع شعر صدر الإسلام أمام شعراء أيدوا الدين الإسلامي وناصروا الرسول الكريم. منهم من أيد الإسلام بلسانه وسانه، ومنهم من اقتصر تأييده على اللسان دون السنن، لكنهم جميعاً يمثلون وجهة النظر الإسلامية.

ونحن سنحاول الإلمام بنتاج أولئك إمامة لا ندعي لها الكمال، ونعرف أنها لا تغني عن الرجوع إلى المصادر الأساسية وأمات الكتب. ورغم ذلك نرجو أن تساعد محاولتنا الطالب على استيعاب شعر صدر الإسلام استيعاباً مقبولاً مع شيء من التعمق، وعملنا يتدرج دائماً في إطار المحاولة.

لذلك نرى أنه من المناسب تناول نتاج أولئك الشعراء حسب بيئاتهم، كأن نقول شعراء المدينة أو شعراء الأنصار، وشعراء المهاجرين، والشعراء الوافدين من البادية.

أولاً - شعراء المدينة أو شعراء الأنصار:

مما لا شك فيه أن شعراء المدينة كانوا في أوائل الشعراء الذين وقفوا إلى جانب الرسول الكريم، حيث برز فيهم بشكل مميز حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة. وعلى الرغم من أن هؤلاء الثلاثة عريقون مجيدون، ويمثلون عماد الشعر الإسلامي وألسن الدعوة، إلا أنهم لم يوقفوا في تمثّل تعاليم الإسلام على الوجه الأكمل. فشعرهم لم يرتفع إلى مستوى الحدث، ولم يوفق التوفيق المرتجى في إبراز قيم الإسلام الخالدة. ذلك لأن شعرهم كان قلقاً في تصوير عادات جاهلية نشاؤها وعليها وألفوها واستجابوا لها، وصارت جزءاً من تكوينهم الفكري والخلقي والفني، وقلقاً في تمثّل قيم الإسلام التي فرضتها ضرورة التكيف مع الإسلام فكراً وفتياً وقيماً.

وكان لا بد للشعراء المخضرمين أن يوقفوا بين الحالتين، فقصروا في المهمات التي انتدبوا لتأديتها أو ندبوا أنفسهم إليها، فجاء شعرهم قلق الانتماء، مضطرب النسبة والتمثّل، وهذا أمر طبيعي.

١ - حسان بن ثابت الأنصاري:

ينتسب حسان بن ثابت إلى قبيلة الخزرج، فهو يمني قحطاني، يمتّ

بِرَحْمِ إِلَى اللّخْمِيِّينَ مَلُوكِ الْعِرَاقِ، وَإِلَى آلِ جَفْنَةَ الْغَسَّاسِيَّةِ مَلُوكِ الشَّامِ. وَهَؤُلَاءِ
أَجْزَلُوا لَهُ الْعَطَاءَ بَعْدَ أَنْ مَدَحَهُمْ وَقَالَ فِيهِمْ أَجْوَدُ شَعْرَهُ، وَلَعَلَّ أَشْهَرَ قِصَائِدِهِ فِيهِمْ
لَا مِيتَةَ ذَاتِ الْمَطْلَعِ:

أَسَأَلْتَ رَسَمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ بَيْنَ الْجَوَابِي فَالْبُضَيْعِ فَحَوَمَلِ
وهذه القصيدة تجري على النمط الجاهلي من وقوفٍ على الأطلال،
ووصف للمحبوبة، ثم الانتقال إلى وصف الراحلة والرحلة وصولاً إلى المدح
حيث يقول:

لِللّهِ ذُرٌّ عِصَابَةٌ نَادَمْتُهُمْ يَوْمًا بَجُلَّتْ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ
بِیضِ التُّوجُوهِ كَرِيمَةً أَحْسَابُهُمْ شَمُّ الْأَنْوَفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ
ثم يتحدث عن ذكريات لهوه وشبابه فيقول:

وَلَقَدْ شَرِبْتُ الْخَمْرَ فِي حَانُوتِهَا صِهْبَاءٌ صَافِيَةٌ كَطَعْمِ الْفُلْفُلِ
يَسْعَى عَلَيَّ بِكَاسِهَا مُتَنَطِّفٌ فَيَعْلِينِي مِنْهَا وَلَوْ لَمْ أَنْهَلِ
كما يفتخر بنسبه وعشيرته، فيقول:

نَسَبِي أَصِيلٌ فِي الْكِرَامِ وَمِذْوَدِي تَكْوِي مَوَاسِمُهُ جُنُوبِ الْمُصْطَلِي
وَلَقَدْ تَقَلَّدْنَا الْعَشِيرَةَ أَمْرَهَا وَتَسْوَدُ يَوْمَ النَّائِبَاتِ وَنَعْتَلِي (١)

ورغم أن هذه القصيدة نُظِمَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَقِينًا، وَنُسِجَتْ عَلَى مَنَوَالِ
القِصَائِدِ الطُّوَالِ مِنْ حَيْثُ الْبِنَاءُ الْعَامُّ وَالْعَبُّ مِنْ مَعَانِي الْجَاهِلِيَّةِ الْمَقْرَّرَةِ فِي
الْأَغْرَاضِ جَمِيعًا. إِلَّا أَنَّهَا تَمْتِيزُ عَنْهَا بِقَامُوسِهَا اللَّغَوِيِّ الَّذِي امْتَازَ بِتَمَاسِكِ

(١) ابن ثابت (حسان) الديوان، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨١، ص ٣٦٠،
ص ٣٦٥.

الأسلوب، وبضرب من الموسيقى الداخلية والخارجية، المنبثقة من ائتلاف مخارج الحروف وبساطة الإيقاع، وبالتالي فإن أسلوبه يتأرجح بين حوشية اللفظة الجاهلية وغرابتها وتعقيدها، وبين سلاسة اللفظة الإسلامية وبساطتها وسهولتها، أو هو الحلقة المفقودة بين العهدين، أو الخطوة الممهدة لسيادة أسلوب الشعر في صدر الإسلام.

وبتعبير آخر فإن أسلوب حسان الجاهلي لا يخلو من الحوشية والأخيلة البدوية، بل غلبت عليه جزالة اللفظ، وفخامة التعبير، وشموخ المعنى، والاتصال المباشر بالبيئة، وبالإضافة إلى أنه كان يميل إلى اللين، وعذوبة اللفظ، وسلاسة التعبير^(١).

فحسان لم يلتزم تماماً مذاهب غيره من شعراء عصره كالأعشى والنابغة وزهير وغيرهم، ولم يعمد إلى التكلف في شعره، ولم يعرف عنه أنه حوّل شعره أو حككه أو نقّحه، بل كان يُرسله إرسالاً، كما أوحى به القريحة وحدثت به النفس. لذلك يمكن القول أنه صاحب مدرسة شعرية خالفت مدرسة زهير منهجاً وممارسة. ولعل الأقدمين المحوا إلى شيء من ذلك، فقال له النابغة الذياني حين سمع شعره: إنك لشاعر، كما شهد له الأصمعي في ما بعد بالشاعرية. فمن أيّ النواحي أتيت وجدته شاعراً كشعراء الجاهلية الفحول تقريباً. فمن ناحية الطبع فهو شاعر مطبوع مغرق في الشعاعية، فأبوه شاعر، وجدته شاعر، وأبوجه شاعر. كما أن ابنه شاعر وحفيده شاعر، وحسان منهم واسطة العقد. وأمّا من جهة أغراض الشعر التي جال فيها فهي تؤكد شاعريته أيضاً، فلقد مدح وهجا وافتخر وشبب ورثى ووصف^(٢). وجودة شعر حسان

(١) جمعه (محمد إبراهيم)، (حسان بن ثابت)، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥، ص ٣٦.
(٢) نقلًا عن البستاني (فؤاد أفرام) حسان بن ثابت الروائع، المطبعة الكاثوليكية، =

الجاهلي دفعت نَقْدَةَ العرب إلى إستحسان شعره، فقال أبو عبيدة: فَضِّلَ حسان الشعراء بثلاث، كان شاعر أهل المَدَر في الجاهلية، وشاعر النبي في النبوة، وشاعر اليمن كلها في الإسلام. وقيل لحسان لَأَنَّ شعرك أوهرم في الإسلام يا أبا الحسام، فأجاب القائل: يا ابن أخي إِنَّ الإسلام يحجز عن الكذب، أو يمنع من الكذب، وأنَّ الشعر يزينه الكذب. ولعله يريد القول: أن الإفراط في الوصف والمدح والهجاء يلزمه نوع من أنواع التزيين الكاذبة وهذه وقف الإسلام في وجهها موقفاً حازماً.

وفي التوقف أمام هذه الظاهرة نجد أن حسناً كان من فحول الصف الثاني بين شعراء الجاهلية، فهو لم يصل إلى مرتبة أصحاب المعلقات، ولم يستطع الإرتفاع بشعره إلى مستوى قصائدهم الطوال المشهورة، فهو دُونهم في الموهبة والقدرة اللغوية وسعة التجربة وصدق الملاحظة، ورغم ذلك فله قصائد تعبر عن روح الجاهلية تعبيراً صادقاً. ولعل ميميته ذات المطلع:

ألم تَسألِ الرَّبْعَ الجَدِيدَ التَّكْلِما بمدفعِ أشدّاخٍ، فَبِرَقَةِ أَظْلَمَا
والتي يقول فيها:

لَنَا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى وأسيافنا يَقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَمًا (١)
هي أكثر قصائده تمثيلاً لطبيعة القصيدة الجاهلية في بنائها وتعابيرها وصورها. ففيها نفحات قريبة من روح زهير في وصف الرحلة، وصور امرئ القيس في وصف المطر والسيول، وفي أسلوبها الرصانة المعهودة في الشعر الجاهلي (٢).

= بيروت ١، ١٩٦٤، ص ١٣٢، وما بعدها.

(١) ابن ثابت (حسان) الديوان ص ٤١٩ وما بعدها.

(٢) الفط (عبدالفادر) في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٧، ص ٣٤.

ولكن رغم ذلك فإن شعر حسان اُتسم بمسحة مدنية ميّزت أسلوبه عن أساليب الشعراء آنذاك، فهو يكاد يخلو من المعجم الشعري المؤلف لدى فحول الشعراء الجاهليين، حتى ليوشك أن يكون قريب الشبه في لغته من لغة العصر الإسلامي. فاللغة المدنية التي أضفت على شعره طابعاً من السهولة وانسياب النغم، حرّمته من تلك اللفّات النفسية والدّفقات الفنيّة الكثيرة التي تُصادفها في شعر الفحول. وأما القول بأن شعر حسان لأنّ وَضَعَفَ بسبب موقف الإسلام من الشعر ففيه شيء من المبالغة، لأنّ عصر الفحول قد انقضى قبيل الإسلام، ولم يبقَ منهم في الإسلام سوى حسان نفسه وكعب بن زهير والحطيئة، وهؤلاء جميعاً من فحول الصف الثاني، إضافةً إلى لييد الذي كَفَّ عن قول الشعر بعد إسلامه.

وإذا ما عطفنا هذه الأسباب إلى ما تقدّم قوله من أنّ لحسان مدرسة شعرية خاصة به، تبين لنا حجم المبالغة في تحميل الإسلام تبعات ضعف الشعر ولينه.

وعلى العموم، فإن حساناً أسلم مع قومه الخزرج إثر الهجرة، والرسول آنذاك أشد ما يكون حاجة إلى المؤيدين. نصره الشرييون بمالهم ورجالهم، وبقي أن يُنصر على من كان يهجوهم من شعراء قريش وسائر المشركين. وأنيطت هذه المهمة بنفر من شعراء المسلمين وفي مقدمتهم حسان، فشرع يرمي قريشاً بالذاهية في غير فحش، مستأذناً الرسول الذي تساءل كيف تهجوهم وأنا فيهم؟ قال: أسلّك منهم كما تُسلّ الشعرة من العجين، وكان النبي ينصب له منبراً في المسجد، ويسمع هجاءه في أعدائه ويقول له: أجب عني اللهم أيده بروح القدس^(١). عندئذٍ أخرج حسان لسانه الطويل الأسود، وهو مُعجَبٌ بسلاطته

(١) نقلاً عن الهاشمي (أحمد) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، مؤسسة المعارف بيروت لا تاريخ، ج ٢، ص ١٤٣.

وبذاته وهبط يَلِغُ في أعراض القريشيين، لا يكاد يترك لهم أنثى ولا ذكراً إلا وألصق به الفحش والرذيلة. ولقد انتهج في ذلك منهجاً آلم به المشركين أشد الإيلام، فكان يُعارضهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، ويعيرهم بالمثالب والفضائح التي كان يستقيها من أبي بكر. ويذكر أنّ الرسول الكريم كان يقول له: إذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم، ثم اهجهم وجبريل معك^(١). ومما لا شك فيه أن حساناً أدى للإسلام خدمة جليلة بمناهضته عن الرسول الكريم، ومدح مآتيه وتعظيم غزواته، ولقد عرف له النبي هذه الخدمات، فقرّظ شعره كثيراً، وعطف عليه وتجاوز عن بعض سيئاته. ويذكر أنّ الرسول أعطاه بستاناً اسمه «ببرحاء»، ووهبه سيرين أخت مارية القبطية زوج الرسول، فولدت له ابنه عبد الرحمن^(٢).

ويلحظ الدارس لشعر حسان أنه يمثل العصر الإسلامي أدبياً وتاريخياً. فمن الناحية الأدبية فهو لا يتجاوز مستوى معاصريه من شعراء صدر الإسلام، ككعب بن زهير والنابغة الجعدي والحطيئة وغيرهم، لأن عاطفته الدينية كانت سطحية تعاني من عدم عمق التمثل للقيم الإسلامية، لهذا قصر نفسه في الكثرة العظيمة من قصائده الإسلامية، فأخذ يفتش عن تخلصات فنية جاءت متكلفة بالمقارنة إلى نتاج فحول الجاهلية، لكنه امتاز عنهم جميعاً بقوة الذاكرة وسرعة التأثر. أما قوة الذاكرة فنراها واضحة في غسانياته التي جرى فيها على أسلوب الأقدمين، فارتفع إلى درجة لم يصل إليها في الإسلام. وأما سرعة التأثر فجعلت لشعره الهجائي لدعة مؤلمة، واندفاعاً قوياً عنيفاً، حتى ليحس المطالع صدر الشاعر يفور كالمرجل، فتتطاير حممه، ويتدفق رشاشه، فيقذف لسانه بالشتائم

(١) نقلاً عن البستاني (فؤاد أفرام) حسان بن ثابت، الروائع ص ١٣٩.

(٢) نقلاً عن البستاني (فؤاد أفرام) حسان بن ثابت، الروائع ص ١٤١.

المقذعة، حتى إذا أفرغ جرابه في الأبيات القليلة، سكن سريعاً كما هاج سريعاً. وليس من شك في أن سرعة التأثر وعدم التمهّل في استيعاب الموضوعات، وتتبع دقائق المعنى حالت بينه وبين الاضطلاع بالدين الجديد اضطلاعاً كافياً، ففاته استخدام الكثير من معاني الإسلام وقيمه وتعاليمه، فضلاً عن ذلك فإن تأثره بالقرآن الكريم لم يكد يتجاوز المبني، وأن تأثره بسيرة الرسول والصحابة لم يكد يتجاوز بعض المظاهر الخارجية^(١).

وحسان شأنه في ذلك شأن العديد من معاصريه سواء في ذلك من أسلم إسلاماً حقيقياً، أم إسلاماً سياسياً، فجميعهم لم يستطيعوا تمثّل الإسلام تمثلاً واعياً، وجميعهم لم يفقهوا عمق الدين الإسلامي، لذلك جاء شعرهم دون مستوى الحديث الإسلامي وبالتالي جاء شعر حسان ليتمثّل شعر تلك المرحلة. وأما من الناحية التاريخية فإن شعر حسان كان أكثر نجاحاً وتسجيلاً لصورة العصر، فحفظ لنا أسماء المعارك العديدة التي جرت بين المسلمين والمشركين، وذكر أسماء الصحابة وأعداء الإسلام، من قتل منهم، ومن انتصر، ومن أظهر الشجاعة والصبر، ومن لاذ بالفرار. فكان من هذه الناحية أشبه بشاعر الدولة الرسمي الذي يؤرخ ويحصي، ويقوم بالدعاية، ويناضل بلسانه. فقرن التاريخ بالشعر، وجمع بين الدين والسياسة، وبذلك يعتبر مؤسس الشعر التاريخي والإسلامي^(٢).

لم يترك ابن أبي ثابت مناسبة إسلامية إلا وقال فيها الشعر، فهجا ومدح وناقض المشركين ورثى وشارك في الأحداث السياسية الإسلامية بلسانه دون سنانه، لأنه وُسِمَ بجبن أثبتته الرواة في أمّات الكتب. لكن من يتصفح ديوان

(١) البستاني (فؤاد أفرام) الروائع ص ١٤٩.

(٢) البستاني (فؤاد أفرام) الروائع: ص ١٥٠.

حسان لا يلاحظ ذلك العجب، بل يظن أن حساناً شارك في غزوات المسلمين جميعاً، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على مقدرة حسان الشعرية تمشياً مع النظرية النقدية القائلة أصدق الشعر أكذبه. ففي مجال الهجاء أنشد ابن أبي ثابت يهجو ابن الزبير الذي كان يدعي النسب إلى قريش، يقول:

ألا إن ادعاء بني قُصَيِّ	على من لا يُناسِبُهُمْ حَرَامُ
فإنك وإدعاء بني قُصَيِّ	لكا لمُجرى وليس له لِجَامُ
فلا تَفْخَرِ فإن بني قُصَيِّ	همُ الرَّأسُ المُقَدَّمُ والسِّنَامُ
فلا تَفْخَرِ بقومٍ لست مِنْهُمُ	فإن قَبيلَكَ الهُجْنُ الكَثَامُ
إذا عُدَّ الأطايِبُ من قريشٍ	تقَاعِدْكُمْ إلى المَخزَاةِ حَامُ
قَسَامَةٌ أمُّكُمْ إن تَسِيبُوهَا	إلى نَسَبٍ فتَأْنِفُهُ الكِرَامُ (١)

وواضح أن هجاء حسان لابن الزبير هو هجاء جاهلي صرف، فهو يعيره بانتحال النسب، ويغمز من طرف والدته، فيسله من قريش سلاً قاسياً.

وأنشد حسان يهجو أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فقال:

لقد عَلِمَ الأَقْوَامُ أن ابن هَاشِمٍ	هُوَ العُصْنُ ذُو الأَفنانِ لا الوَاحِدُ الوَعْدُ
ومالكَ فيهِم مَحْتِدٌ يَعْرِفُونَهُ	فدُونَكَ فالصَّقُ مثل ما لَصِقَ القُرْدُ
وإن سَنَامَ المَجْدِ مِن آل هَاشِمٍ	بنو بِنْتِ مَخزومٍ ووَالِدُكَ العَبْدُ
وما وَلَدت أُنثَاءً زُهْرَةً مِنْكُمْ	كَرِيماً ولم يَقْرَبَ عَجَائِزَكَ المَجْدُ
ولست كعَبَّاسٍ ولا كإبنِ أُمِّه	ولكن هَاجِئٍ ليس يُورَى له زَنْدُ
وأنت زَنِيمٌ نَيْطٌ في آل هَاشِمٍ	كما نَيْطُ خَلْفِ الرَّايِبِ القَدْحُ الفَرْدُ
وإن إِمْرَأً كانت سُمَيَّةَ أُمِّه	وسمراءُ مَغْلُوبٌ إذا بَلَغَ الجَهْدُ (٢)

(١) ابن ثابت (حسان) الديوان: ص ٤٥٥.

(٢) ابن ثابت (حسان) الديوان: ص ٢١٣.

وهجاء حسان لأبي سفيان كهجائه لابن الزبيري، انصب على الأحساب والأنساب، فالمهجو هجين، زنيم، لا يمت بصلة عصبية إلى بني هاشم لأن والدته أفسدت نقاوة الحسب والنسب، ولقد كان هذا النوع من الهجاء شديد الوطأة على القرشيين، صعباً عليهم أن يتقبلوه.

ويسلك حسان المسلك نفسه في هجائه لأبي سفيان بن حرب وزوجته هند بنت عتبة التي لآكت في يوم أحد كبد حمزة عم الرسول، يقول:

أشِرتَ لكاعُ وكانَ عَادَتِهَا	لَوْمٌ إِذَا أَشِرتَ مَعَ الكُفْرِ
لَعَنَ الإِلَآءُ وَزَوَّجَهَا مَعَهَا	هِندَ الهِنودِ طَوِيلَةَ البُظْرِ
وَعَصَاكِ إِسْتُكِّ تَتَّقِينَ بِهِ	دَقُّ العُجَايَةِ عَارِي الفِهْرِ
قَرِحَتْ عَجَزَتُهَا وَمَشْرِجُهَا	مِنْ نَصَّهَا نَصًّا عَلَى القَهْرِ
وَنَسِيتِ فَاحِشَةَ أَتَيْتِ بِهَا	يَا هِنْدُ وَنَحَاكِ سُبَّةَ الدَّهْرِ
فَرَجَعْتَ صَاغِرَةً بِلَا تِرَةٍ	مِمَّا ظَفِرْتَ بِهِ وَلَا وَتَرٍ
رَعَمَ الوَلَايِدُ أَنَّهُآ وَوَلَدَتْ	وَلَدًا صَغِيرًا كَانَ مِنْ عَهْرٍ (١)

فهول الحادثة جعل حساناً يقذع في هجائه لكنه إقذاع يستمد معانيه من مآثر الجاهلية، فالمهجوة: لكاع، لثيمة طويلة البظر، تأتي الفاحشة، وتلد من عهر. وهذا النوع من الهجاء أشد إيلاماً من تعيير المشركين بالكفر، وعدم الإيمان بالله ورسوله.

وهجاء حسان لم يكن ليأتي في قصائد مفردة، بل كان مُتداخلاً في نقائضه بين المدح والفخر وتسجيل الوقائع العسكرية بين المسلمين والمشركين، ويأتي يوم بدر وهو أول حدث عظيم في النزاع بين مكة والمدينة

(١) ابن ثابت (حسان) الديوان: ص ٢٨٣ .

يقول حسان في هذه المناسبة :

عَرَفْتُ دِيَارَ زَيْنَبَ بِالكَثِيبِ كخَطِّ الوَحْيِ فِي الوَرَقِ القَشِيبِ
وَحَبَّرَ بِالسَّيِّدِ لَا عَيْبَ فِيهِ بِصَدَقِ غَيْرِ أَحْبَارِ الكَذُوبِ
بِمَا صَنَعَ المَلِيكَ عَدَاةَ بَدْرِ لَنَا فِي المُشْرِكِينَ مِنَ النُّصَيْبِ (١)

ولعل حسان متأثر بالآية الكريمة ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ (٢) ،
وبقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ
تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلاَفٍ مِنَ المَلَائِكَةِ
مُنزَلِينَ﴾ (٣) . ثم يفتخر بقومه ويعدد أسماء القتلى ويذكر خطاب رسول الله لأهل
القليب فيقول :

يُنَادِيهِمْ رَسولُ اللَّهِ لَمَّا قَذَفْنَاهُمْ كَبَاكِبَ فِي القَلِيبِ
أَلَمْ تَجِدُوا حَدِيثِي كَانَ حَقًّا وَأَمْرُ اللَّهِ يَأْخُذُ بِالقُلُوبِ
فَمَا نَطَقُوا، وَلَوْ نَطَقُوا لَقَالُوا صَدَقْتَ وَكُنْتَ ذَا رَأْيٍ مُصِيبِ (٤)

وحسان يستقي معانيه من القرآن الكريم قال تعالى : ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ (٥) ، وجاء في التنزيل الحكيم : ﴿لِيَجْزِيَ
اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ المُنَافِقِينَ﴾ (٦) والملاحظ أن حساناً لم يرتفع

(١) ابن ثابت (حسان) الديوان : ص ٦٧ - ٦٨ .

(٢) آل عمران : ١٦٠ .

(٣) آل عمران : ١٢٣ - ١٢٤ .

(٤) ابن ثابت (حسان) الديوان ص ٧٠ كباكب جمع كبكبة وهي الجماعة من الناس ،
والقليب : هو قليب بدر الذي قذفت فيه قتلى المشركين .

(٥) الأحزاب : ٢٢ .

(٦) الأحزاب : ٢٤ .

إلى مستوى الحدث الإسلامي، ورغم تأثره بالسير بالقرآن الكريم، لا تعدو قصيدته أن تكون نظماً لأحداث معركة سمع تفاصيلها ولم يُشارك فيها لجبته المعروف.

أما في أحد فله قصيدة مطلعها:

مَنَعَ النَّوْمَ بِالْعِشَاءِ الْهُمُومُ وَخَيَالَ إِذَا تَغَوَّرَ النُّجُومُ^(١)

وهي محافظة على النمط الجاهلي بكل تفاصيلها، لولا ذكره لابن الزبيري، وبيتين في اللواء حيث يقول:

تِلْكَ أَفْعَالُنَا وَفَعَلَ الزَّبَيْرِي خَامِلٌ فِي صَدِيقِهِ مَذْمُومٌ
تِسْعَةٌ تَحْمِلُ اللِّوَاءَ وَطَارَتْ فِي رَعَاعٍ مِنَ الْقَنَا مَخْزُومٌ
لَمْ يُوَلُّوا حَتَّى أُبِيدُوا جَمِيعاً فِي مَقَامٍ وَكُلُّهُمْ مَذْمُومٌ

وفي أحد أنشد حسان قصيدة مطلعها:

مَا هَاجَ حَسَانَ رُسُومَ الْمَقَامِ وَمَظَنَّنَ الْحَيَّ وَمَبْنَى الْخِيَامِ^(٢)

وهذه القصيدة كسابقاتها محافظة على النمط الجاهلي، لكنه يسرف في وصف الخمرة فيقول:

نَشْرِبُهَا صِرْفاً وَمَمْزُوجَةً ثُمَّ نَغْنِي فِي بُيُوتِ الرُّخَامِ
كَأْساً إِذَا مَا الشَّيْخُ وَالْيَ بِهَا خَمْساً تَرْدَى بِرْدَاءِ الْفُلَامِ
مِنْ خَمْرٍ بَيْسَانَ تَخَيَّرْتُهَا تِرْيَاقَةً تُسْرِعُ فَتَرَ الْعِظَامِ

قد ينكر المرء نسبة هذا المقطع لحسان بن ثابت، أو يعجب أن يأتي

(١) ابن ثابت (حسان) الديوان: ص ٤٢٩.

(٢) ابن ثابت (حسان) الديوان: ص ٤٣٣.

شاعر إسلامي وثيق الصلة بالرسول بمثل هذا الحديث الصريح عن الخمر، ولكن إذا كان هذا الإنكار صحيحاً، فالصحيح أيضاً أنّ المجتمع الإسلامي لم يكن كثير التزم تجاه مثل هذه الموضوعات، لأن الناس يومذاك وهم حديثو العهد بالجاهلية، كانوا يتساهلون مع الشعراء، ويغفرون لهم ما يقولونه في الخمر وغيرها من موضوعات كالغزل على أنه تقليد فني لا ضير فيه، ولا يدل بالضرورة على سلوك خلقي.

وحسان بن ثابت كان مشاركاً بلسانه في الأحداث الإسلامية جميعاً، فما من مناسبة إسلامية إلا وكانت له صدارة القول، لكنه كان يُجيد أحياناً ويُخفق في أحيان كثيرة، ولعل قصيدته التي قالها سنة ثمان للهجرة، يتوعد فيها المشركين بفتح مكة، كانت من أفضل قصائده التي تجمع بين أسلوب الجاهلية ومعانيها وأسلوب الإسلام وقيمه.

يبدأ الشاعر قصيدته بالمطلع الجاهلي المعهود، فيقف على الأطلال وقوفاً سريعاً، كأنما يؤدي به واجباً نحو هذا التقليد الفني يقول:

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجِوَاءِ إِلَى عَذْرَاءٍ مَنَزَلُهَا خَلَاءِ
دِيَارٍ مِنْ بَنِي الْحَسْحَاسِ قَفْرٌ تُعَفِّيهَا الرَوَامِسُ وَالسَّمَاءِ

ثم يتحدث عن طيف حبيته شعشاء، فيشبهه رضابها بالخمر الممزوج بالعدل والماء، ويمضي على التقليد الفني الجاهلي فيصف الخمرة وصفاً فنياً، وكان الصورةُ قُصدت لذاتها فيقول:

فَدَعُ هَذَا وَلَكِنْ مَنْ لَطِيفٍ يُورِّقُنِي إِذَا ذَهَبَ الْعِشَاءِ
لِشَعْثَاءِ الَّتِي قَدْ تَيَّمَتُهُ فَلَيْسَ لِقَلْبِهِ مِنْهَا شِفَاءُ
كَأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ يَكُونُ مِرْأَجُهَا عَسَلٌ وَمَاءُ
عَلَى أَنْيَابِهَا أَوْ طَعْمَ غَضٍّ مِنَ التُّفَاحِ هَصْرَةُ الْجَنَاءِ

إذا ما الأشرباتُ ذُكِرْنَ يوماً فهُنَّ لطيب الراح الفداء
نوليها الملامة إن ألمنا إذا ما كان مَفْتُ أو لِحَاء
ونشربها ففتركتنا ملوكاً وأسداً ما يُنهينهنَّنا اللقاء

وتعود ظاهرة وصف الخمرة في العصر الإسلامي لتطرح نفسها من جديد،
ويعود التساؤل القديم الجديد: كيف سمح الرسول الكريم لشاعر كحسان
بوصف الخمرة وصفاً صريحاً؟

لكننا نرى أن المسألة لم تكن في ذلك الزمن لتأخذ الحجم الذي نتصوره
اليوم، فالرسول الكريم كان يدرك تماماً، أن وصف الخمرة كان يومذاك
كالوقوف على الأطلال، وليس إلا تقليداً فرضته ضرورة إكمال الصورة الفنية.
وبعد هذا المطلع الجاهلي وتذكر الشاعر لأيامه الأولى عند الغساسنة في الشام،
وما كان له فيها من لهو وشراب، يصل إلى الجزء الإسلامي من القصيدة،
وهو الذي سما بحسان سُمواً لم يلحقه به شاعر إسلامي آخر، يقول:

فإما تُعرضوا عَنَّا اعتمرنا وكان الفتحُ وانكشَفَ الغطاء
وإلا فاصبروا لجلادِ يومٍ يُعزُّ اللُّهُ فيه من يشاء
وجبريلُ رسولُ اللُّهِ فينا وروحُ القُدسِ ليس له كِفَاء
وقالَ اللهُ قد أرسَلتُ عبداً يقولُ الحقُّ إن نَفَعَ البلاءُ
شهِدتُ به فقوموا صدقوه فقلُّتم لا نقومُ ولا نشاء

ويلاحظ الدارس لهذا المقطع من القصيدة أن أسلوبه سلس وألفاظه
رقت، وشاعت فيها المعاني الإسلامية. وكان هذا الأمر طبيعياً بالنسبة لحسان،
فهو حين يريد التعبير عن عادات الجاهليين ومعانيهم كان يُجاري الفحول
بأسلوبهم وألفاظهم ومعانيهم، وحين يُريد التعبير عن قيم الدين الحنيف كان
يرمق القرآن بعين وسيرة الرسول الكريم بعين.

ثم يخاطب أبا سفيان فيقول:

الا أبلغ أبا سفيان عني
بأن سؤفنا تركتك عبداً
هجوت محمداً فأجبت عنه
أتهجوه ولست له بكفء
هجوت مباركاً برأ حنيفاً
فمن يهجو رسول الله منكم
فإن أبي ووالده وعرضي
فأنت مجوف نخب هواء
وعبد الدار سادتها الإمام
وعند الله في ذاك الجزاء
فشركما لخيركما الفداء
أمين الله شيمته الوفاء
ويمدحه وينصره سواء
لعرض محمد منكم وقاء (١)

والحق أن هذا المنهج يطرد في أغلب شعر حسان الإسلامي، فيتأرجح شعره بين الأسلوب الجاهلي في صورته ولغته ومعانيه، وأسلوب لا يمكن أن نسميه إسلامياً بالمعنى الصحيح. وإنما يستخدم فيه بعض الألفاظ القرآنية والمعاني الدينية، ويتحلل من المعجم الشعري الجاهلي، مؤثراً البساطة التي قد تنتهي أحياناً إلى النظم والركاكة. وذلك لأنه لم يحسن تمثل تعاليم الإسلام وقيمه تمثلاً حقيقياً، بل كان يخلط بين وقائع الحروب والأحداث، وبين معانٍ دينية يسيرة لا تعين على الاهتداء إلى أسلوب فني جديد. يختلف عن الأسلوب الجاهلي، ويرسم لنفسه أسلوباً فنياً مميزاً. ولقد كان هذا الأمر طبيعياً في فترة فاجأت الشعراء بتجارب جديدة ليس في الشعر الجاهلي رصيد تعبير يمكن أن ينتهجوا نهجه. وفي تناولنا لشعر حسان الإسلامي تصادفنا قصائد تبدو بلا شك دون مستوى شعره الجاهلي، مهما نعتذر لها بالتعبير عن قيم الإسلام وتعاليمه وأساليبه الجديدة. مما يدعونا إلى أن نرتاب في صحة نسبتها إلى حسان وهذه المقطوعات أقرب أن تكون من نظم بعض الشعراء في عصور متأخرة، بعد أن

(١) ابن ثابت (حسان) الديوان: ص ٥٤ وما بعدها.

طال تأثر الأدباء بأساليب القرآن الكريم، وشاعت على أعلامهم ألفاظ وعبارات خاصة. ومن أمثلة ذلك قوله:

نَبِيُّ أَتَانَا بَعْدَ يَأْسٍ وَفِتْرَةٍ مِنْ الرُّسُلِ وَالْأوثَانِ فِي الأَرْضِ تُعْبَدُ
فَأَمْسَى سِرَاجاً مُسْتَنِيرًا وَهَادِيًا يَلُوحُ كَمَا لَاحَ الصَّقِيلُ المُهَنْدُ
وَأَنْذَرْنَا نَارًا وَبَشَّرَ جَنَّةً وَعَلَّمْنَا الإِسْلَامَ فَاللَّهُ نَحْمَدُ
وَأَنْتَ إِلَهَ الخَلْقِ رَبِّي وَخَالِقِي بِذَلِكَ مَا عَمَّرْتُ فِي النَّاسِ أَشْهَدُ
تَعَالَيْتَ رَبَّ النَّاسِ عَنِ قَوْلِ مَنْ دَعَا سِوَاكَ إِلَهًا أَنْتَ أَعْلَى وَأَمْجَدُ
لَكَ الخَلْقُ وَالنَّعْمَاءُ وَالْأَمْرُ كُلُّهُ فَيَاكَ نَسْتَهْدِي وَيَاكَ نَعْبُدُ^(١)

ومهما يكن من أمر فالشاعر متأثر بالقرآن الكريم وتعاليمه وقيمه قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾^(٢)، وجاء في الذكر الحكيم ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾^(٣)، وجاء في التنزيل العزيز: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾^(٤) كما أنه متأثر بالآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(٥) ويقول عز وجل: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾^(٦)، ويقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾^(٧) وبالآية

(١) ابن ثابت (حسان) الديوان: ص ١٣١ - ١٣٢.

(٢) المائدة: ١٩.

(٣) المؤمنون: ٤٤.

(٤) الفتح: ٢٨.

(٥) النساء: ١٣٦.

(٦) المائدة: ٧٢.

(٧) الحشر: ٢٠.

الكريمة: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ (١)
وبالإضافة إلى هذا وذاك، فلقد جاهد بلسانه طوال الأعوام العشرة الأخيرة من
حياة الرسول، وكان له في كل موقف من مواقف المسلمين قصيدة أو قصائد
أسهم فيها في تأريخ الأحداث الإسلامية.

وإذ كنا لا نبغي تتبع تلك الأحداث بدقة، فلا بد أن نشير إلى بعضها،
وخصوصاً تلك التي تتناول وفاة الرسول وبعضاً من سير خلفائه.

كان لوفاة الرسول الكريم مَثَلُ الصاعقة، فذهل الناس وانقسموا بين
مُصَدِّقٍ وَمُكذِّبٍ، فبكته الأعين وتحجرت المآقي وَجَمَدَ الدَّمع، وكان حسان
ممن بَكَوه بكاءً صادقاً عميقاً، وقال فيه مقطوعات عديدة فهو يقول:

ما بال عينك لا تنام كأنما كُحِلَّت مآقيها بكحل الأزمَدِ
جزعاً على المهدي أصبح ثاوياً يا خير من وطىء الحصى لا تبعدِ
فَضَلَّتْ بعد وفاته متلبداً متلداً يا ليتني لم أولدِ (٢)

فالشاعر يصور حالته المأساوية، وبُكاءه الدائم، وحزنه المستمر، بعد
فراق أعز خلق الله، وخير من وطىء الحصى. ولعل هول المصيبة أنساه الآية
الكريمة: ﴿وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخلد﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ
ذائقة الموت﴾ (٤) لكنه لا يلبث أن يقول:

مَنْ الذي كان فينا يُستضاء به مبارك الأمر ذا عدلٍ وإرشادٍ

(١) الانعام: ١٠٢.

(٢) ابن ثابت (حسان) الديوان: ص ١٥١.

(٣) الأنبياء: ٣٤.

(٤) الأنبياء: ٣٥.

يا أفضل الناس إني كنتُ في فَهْرٍ أصبحت منه كمثل المُفرد الصاد^(١)
فالشاعرُ يعدد بعض صفات النبي، وهل يستطيع أمرؤ الإحاطة بصفات
الرسول جميعاً؟ فكل ما يستطيع الشاعر قوله أنه أصبح مفرداً صادقاً. وبعد أن
يتمالك نفسه قليلاً يقول:

كان الضياء وكان النورَ تَبَعُهُ بعدَ الإله وكان السَّمْعَ والبصرا
فليتنا يومَ واروه بملحده وغَيَّبوه وألقوا فوقه المَدَرا
لم يترك اللهُ منا بعده أحداً ولم يعيش بعده أنثى ولا ذكرا^(٢)
ونظم حسان قصيدة مدح فيها أبا بكر في أثناء حياة الرسول الكريم يقول
فيها:

إذا تذكّرت شجواً من أخي ثقةٍ فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
التالي الثاني المحمود شيمته وأول الناس طُراً صدقَ الرُّسلا
والثاني اثنين في الغارِ المُنيف وقد طاف العدوّ به إذ صعد الجبلا
خير البرية أتقاها وأرافها بعد النبي وأوفاهما بما حملا^(٣)

وغني عن البيان أن الشاعر يستقي معانيه من الآية الكريمة: ﴿ثَانِيَيْنِ اثْنَيْنِ
إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾^(٤). كما أن حسان يقول في عائشة معتذراً عن خوضه في
حديث الإفك، يقول:

حصانٌ رِزَانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ وتُصبحُ غرثي من لحوم الغوافلِ

(١) ابن ثابت (حسان) الديوان: ١٥٢.

(٢) ابن ثابت (حسان) الديوان: ٢١٧.

(٣) ابن ثابت (حسان) الديوان: ٣٥٢.

(٤) التوبة: ٤٠.

حليّة خيرِ النَّاسِ ديناً ومنصباً نبيّ الهدى والمُكرّماتِ الفواضِلِ
مهذبَةٌ قد طيّبَ اللهُ خيمها وطهرها من كلِّ سوءٍ وباطلٍ (١)

والشاعر يستمد معانيه من القرآن الكريم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا
بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تحسبوه شراً لكم بل هو خيرٌ لكم لِكُلِّ امرئٍ مِنْهُمْ
ما اكتسب من الإثمِ والذي تولى كِبْرَهُ مِنْهُمْ له عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢)

ويتابع حسان بن ثابت تاريخه للأحداث الإسلامية، يقول في رثاء عمر بن
الخطاب:

وَفَجَعْنَا فيروزُ لا دَرَّ دَرَهُ بأبيض يتلو المُحكّمات منيب
رؤوف على الأدنى غليظ على العدا أخي ثقة في النَّائبات نجيب (٣)

كما يقول في رثاء عثمان بن عفان:

أتركتُم غزو الدُّروبِ وجثثُم لقتالِ قومٍ عند قبرِ مُحَمَّدِ
وكان أصحاب النبي عشية بُدُنٌ تَنَحَّرُ عند بابِ المسجدِ

ويقول في مقطوعة أخرى:

من سرّه الموت صِرْفاً لا مزاجَ له فليات مأسدةً في دار عثمانا
ضحوا بأشمط عنوان السجود به يُقَطِّعُ الليلَ تسبيحاً وقرآناً
لتسمعنَّ وشيكاً في ديارهم اللهُ أكبرُ يا ثاراتِ عثمانا

(١) ابن ثابت (حسان) الديوان: ص ٣٧٧ - ٣٧٨.

(٢) النور: ١١.

(٣) ابن ثابت (حسان) الديوان: ص ٩١.

(٤) ابن ثابت (حسان) الديوان: ص ١٥٤.

وقد رضىتُ بأهل الشام زافرةً وبالأميرِ وبالإخوان إخوانا (١)
وتُحمد - مؤقتاً - العاصفة التي أثيرت بُعيد مقتل عثمان، وتتم البيعة
لعلي بن أبي طالب، ويلاقي الخليفة الرابع المتاعب والصعاب ويستشهد قتلاً
في المسجد. فيرثه حسان بقوله:

أبا حسن، تفديك نفسي ومهجتي وكل بطيء في الهدى ومسارع
أيذهب مدحي والمُحبين ضائعاً وما المدح في ذات الإله بضائع
فأنت الذي أعطيت إذ أنت راعك فدتك نفوس القوم يا خير راع
بخاتمك الميمون يا خير سيّد ويا خير شارٍ ثم يا خير بايع
فأنزل فيك الله خيراً ولايةً وبينها في مُحكمات الشرائع (٢)

نكتفي بهذا القدر من شعر حسان هجاءً ومدحاً ورثاءً ومحرماً لشعر
المناقضات بين شعراء الإسلام وشعراء الشرك، لكن الملاحظ أن شعره انتهج
نهجاً خاصاً منذ قبيل الجاهلية، حيث بدأت لغته ترق وأسلوبه يصبح أكثر
سلاسة وألفاظه تتعد تدريجياً عن ألفاظ الفحول. ويتفصيل أدق نجد أن أسلوبه
خالطه لين الحضارة، وغلبت عليه المسحة الإسلامية كتوليد المعاني المستمدة
من معتقدات الدين الجديد وأحداثه، والاستعانة بصيغ القرآن وأسلوبه
والاستفادة من تعاليم الدين الحنيف وشعائره. كما غلبت عليه الرقة واللين
وسهولة المأخذ، وواقعية الصورة. وأكثر ما نجد ذلك في شعر الدعوة إلى توحيد
الله وتنزيهه، ووصف شعائر الإسلام، وبيان ثواب المؤمنين، وعقاب
المشركين، وبعض مقطوعاته التي مدح بها أورثى الرسول الكريم وخلفاءه

(١) ابن ثابت (حسان) الديوان: ص ٤٦٢.

(٢) الأميني (عبد الحسين) القدير في الكتاب والسنة والأدب، دار الكتاب العربي، بيروت
١٩٨٣، ٢٣، ص ٥٨.

وأصحابه. ورغم ذلك فإن أسلوبه الشعري لم يخلُ من جزالة اللفظ وفخامة الأسلوب، كما في الفخر والحماسة والدفاع عن النبي الكريم ورسالته ومناقضته للمشركين. ولعل اللين الذي رُمِيَ به حسان وأقره هو نفسه، ليس إلا سهولة وعذوبة آتية من إطراح الحوشي، ومخالطة الحضارة والثقافات المختلفة، واقتضتها الرغبة في ذبوع الدعوة الإسلامية القائمة على الواقعية والصدق والبعد عن الخيال الكاذب والمغلاة.

وهكذا نجد أن تحلل أسلوب حسان من المعجم الجاهلي حتى في أيام جاهليته، وتردد لغته بين ألفاظ الفحول في الجاهلية وبساطة اللفظة الإسلامية وسهولتها، وبالإضافة إلى المسحة المدنية التي وسمت أسلوبه جميعاً، كل ذلك جعل لحسان مدرسة أسلوبية خاصة به، وهذا ما دعا بعض النقاد إلى القول أن شعر حسان لأنَّ وَصُفَّ في الإسلام، وفي كلامهم شيء من المبالغة كما أسلفنا.

ونختم القول أن حسان بن ثابت شأنه شأن شعراء المسلمين جميعاً الذين صوروا الوقائع الحربية بين المسلمين والمشركين، كما كانوا يصوِّرون أيام العرب ووقائع القبائل. فجاء فخرهم امتداداً للفخر الجاهلي، وهجاؤهم قائماً على العصبية القبلية وحقائق الأنساب في رفعتها أو ضعتها. لذلك نصادف عند حسان وغيره بعض القصائد التي لا نكاد ندرك أنها من الشعر الإسلامي إلا من إشارات إلى حدث إسلامي معين. وبالتالي فإن شعره لم يستطع التعبير تعبيراً عميقاً عن المعاني الإسلامية، ولم يستطع تمثّل تلك التعاليم تمثلاً حقيقياً، فالمرحلة كانت أكبر من أن يستوعبها إستيعاباً كافياً حَفَنَتْ من الشعراء تصلّب عودهم في الجاهلية، وشاركوا مشاركة فعلية في أحداثها.

(١) جمعه (محمد إبراهيم) حسان بن ثابت، ص ٣٦ - ٣٨.

٢ - كعب بن مالك :

يعتبر كعب بن مالك من أوائل المسلمين الذين أسلموا في يثرب قبل هجرة الرسول، ولم يكن آنذاك فيها أكثر من أربعين مسلماً. وفي العقبة الثانية توجه كعب فبايع الرسول مع سبعين رجلاً وامرأتين. وبعد الهجرة آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار، فأصبح كعب أخاً لطلحة أو للزبير حسب اختلاف الروايات.

وأصبح كعب بعد الإسلام مؤمناً قوياً بالإيمان، تقياً شديداً التقى، أثيراً عند رسول الله، يحبه ويدعوه له بالخير ويشجعه على قول الشعر. فصلته بالرسول قوية، وهو قريب منه يسمع الحديث ويحفظه ويحدث به، لذلك فهو معدود من رواة الحديث. ولم يكن كعب ورعاً مؤمناً وحسب، بل كان فارساً من فرسان المسلمين، شجاعاً مقداماً، يقرن القول بالفعل^(١). فجاهد في سبيل الله، وحارب إلى جانب الرسول في جميع غزواته إلا في غزوتي بدر وتبوك. فتخلفه عن بدر لم يكن عن قصد، واعتذر إلى الرسول فقبل اعتذاره، في حين برّاه الله لتخلفه عن غزوة تبوك^(٢).

أما الأغراض التي نظم فيها ابن مالك الشعر، فتراوحت بين المدح والفخر والهجاء والثناء بما فيها النقائص.

المدح:

غلب على شعر كعب المدحي ما يمكن أن يُسمى المدح السياسي،

(١) الجبوري (يحيى). شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٤، ص ٧٢.

(٢) ابن مالك (كعب). الديوان، حققه سامي مكي العاني، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٦، ص ٦٢.

فللشاعر أهدافه السياسية التي آمن بها وأراد لها الانتشار بين الناس . من هذه المبادئ الإيمان بقيادة الرسول الحكيمة والانقياد لها، يقول:

لَمْ الْإِلَٰهَ بِهِ شِعْثًا وَرَمَّ بِهِ أُمُورَ أُمَّتِهِ وَالْأَمْرُ مُنْتَشِرًا (١)

ومنها تعداد صفات الممدوح ومناقبه: كالعديل في السيرة، والإلتزام بالحق، والهداية إلى ما يُنجي من النار، يقول مادحاً الرسول بمناسبة يوم بدر:

فِينَا الرَّسُولُ شَهَابٌ ثُمَّ يَتَّبِعُهُ نَوْرٌ مُضِيءٌ لَهُ فَضْلٌ عَلَى الشُّهُبِ
الْحَقُّ مَنْطِقُهُ وَالْعَدْلُ سِيرَتُهُ فَمَنْ يُحِبُّهُ اللَّهُ يَنْجُ مِنْ تَبَابِ
بَدَا لَنَا مَا تَبَعْنَاهُ نُصَدِّقُهُ وَكَذَّبُوهُ فَكُنَّا أَسْعَدَ الْعَرَبِ
لَيْسَا سَوَاءً وَشَتَى بَيْنَ أَمْرِهِمَا حِزْبُ الْإِلَٰهِ وَأَهْلِ الشَّرِكِ وَالنَّصَبِ (٢)

كما مدح كعب الرسول الكريم بإثبات معجزاته ومقارنتها بمعجزات الرسل السابقين فيقول:

فَإِنْ يَكُ مُوسَى كَلَّمَ اللَّهَ جَهْرَةً عَلَى جَبَلِ الطُّورِ الْمُنِيفِ الْمُعْظَمِ
فَقَدْ كَلَّمَ اللَّهَ النَّبِيُّ مُحَمَّدًا عَلَى الْمَوْضِعِ الْأَعْلَى الرَّفِيعِ الْمُسَوِّمِ
وَإِنْ تَكُ نَمْلُ الْبَرِّ بِالْوَهْمِ كَلَّمْتَ سُلَيْمَانَ ذَا الْمُلْكِ الَّذِي لَيْسَ بِالْعَمِيِّ
فَهَذَا نَبِيُّ اللَّهِ أَحْمَدُ سَبَّحَتْ صِغَارُ الْحَصَى فِي كَفِّهِ بِالْتَرْنَمِ (٣)

ويرى المتصفح للقرآن الكريم أن كعب بن مالك استقى معانيه في مدح الرسول الكريم من آيات القرآن وإذا كنا لا نبغي التبع الدقيق لتلك الآيات، فلا بد أن نشير إلى بعضها. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ

(١) ابن مالك (كعب) الديوان، ص ٢٠٨.

(٢) ابن مالك (كعب). الديوان ص ١٧٤. تب: خسران وهلاك.

(٣) ابن مالك (كعب). الديوان، ص ٢٠٧.

الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا^(١)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(٢). وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(٣). وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(٤). وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٥).

الفخر:

لم يكن فخر ابن مالك ذاتياً، فهو لم يفخر بنفسه وآبائه وأجداده، ومآثر قبيلته، بل انصهر في بوتقة المجموعة الجديدة التي إرتضاها بديلاً من أسرته وعشيرته، وهي تلك التي ارتضت بالله رباً، والإسلام ديناً ومحمد رسولاً.

ولقد تطوّر الفخر على يدي كعب وزميلييه عبد الله وحسان، فلم يعد يفخر أحدهم بإعلاء كلمة القبيلة، أو رفع شأنها، أو كسب المغانم وسبي الأعداء، بل بنيل الشهادة في سبيل الله وتأييد الملائكة لهم في الجهاد، يقول كعب في يوم أحد مفتخراً بنصر المسلمين في بدر:

ويومُ بدرٍ لقيناكم لنا مددٌ فيه من النصر ميكالٌ وجبريلُ
إن تقاتلونا فدينُ اللهِ فطرتنا والقتلُ في الحقِّ عند الله تفضيلُ^(٦)

(١) الفتح: ٢٨.

(٢) الأنفال: ٢٤.

(٣) المائدة: ٥٦.

(٤) النساء: ١٦٤.

(٥) النمل: ١٨.

(٦) ابن مالك (كعب). الديوان: ص ٢٥٥

كما تتضح هذه المعاني عندما يفخر كعب بتأييد الله والملائكة لزعامه الرسول، يقول في بدر :

وردناه بنور الله يجلو دُجِيَ الظلماء عَنَّا والغطاءِ
رسولُ الله يَقْدِمُنَا بِأَمْرٍ من أمرِ الله أَحْكَمَ بالقضاءِ
فما ظفرت فوارسكم ببدرٍ وما رجعوا إليكم بالسَّوَاءِ
فلا تعجل أبا سفيان وارقب جِيَادَ الخيل تَطْلُعُ من كَدَاءِ
بنصر الله روحُ القدس فيها وميكَالُ فيا طيبَ المَلَاءِ (١)

ويصور كعب المشركين متشبهين في شركهم وغييهم، مفتخراً بأن الله أعان المسلمين، فقال في يوم الخندق :

لقد عَلِمَ الأحزابُ حين تَأَلَّبُوا علينا ورأموا ديننا ما نُوَادِعُ
يذودوننا عن ديننا ونذودُهُم عن الكفر والرحمن راءِ وسامِعُ
وذلك جَفِظَ اللهُ فينا وفضلُهُ علينا ومن لم يَحْفَظِ اللهُ ضَائِعُ
هدانا لدينِ الحقِّ واختاره لنا وللهِ فوق الصانعينَ صنائعُ (٢)

ولم يفخر كعب بالمعاني والقيم الإسلامية وحسب، بل افتخر أيضاً بمآثر جاهلية أقرها الإسلام أو لم يتعرض لها بإكراهٍ أو تحريمٍ. من تلك المآثر الصبر في الحرب والثبات عند الشدائد، وبأن قومه لا يرون القتال والقتل عيباً يقول في يوم أحد:

فجئنا إلى موجٍ من البحر وسطه أحابيشُ منهم حاسرٌ ومُقَنَّعُ
فلما تلاقينا ودارت بنا الرّحى وليس لأمرِ حُمَّةِ الله مَدْفَعُ
ضربناهُم حتى تركنا سراتهم كأنهم بالقاع خُشْبٌ مُصْرَعُ

(١) ابن مالك (كعب). الديوان: ص ١٦٩. كداء: موضع بأعلى مكة الملاء: أراد الملاء وهم أشراف القوم.

(٢) ابن مالك (كعب). الديوان: ص ٢٣٠.

ودارت رحانا وإستدارت رحاهم وقد جعلوا كلُّ من الشرِّ يشبعُ
ونحن أناسٌ لا نرى القتلَ سُبَّةً على كلِّ من يحمي الذمارَ ويمنعُ
وكُنَّا شهاباً يتقي الناسَ حرَّةً ويُفرجُ عنه من يليه ويُسْفَعُ
شددنا بحول الله والنصر شدةً عليكم وأطراف الأسننة تشرِّعُ (١)

وفي مجال الفخر يستمد ابن مالك معانيه وألفاظه من القرآن الكريم، وهو متمثل لقيم الإسلام تمثلاً واعياً، ففي كل لفظة من ألفاظ الشاعر وفي كل تعبير من تعابيره، وصورة من صوره، ومعنى من معانيه تجد أثر القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣). وقال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٥) وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ (٦).

(١) ابن مالك (كعب). الديوان: ص ٢٢٢ وما بعدها.

(٢) البقرة: ٩٩ .

(٣) البقرة: ٢١٦ .

(٤) النساء: ٧٤ .

(٥) النساء: ٧٦ .

(٦) التوبة: ١١١ .

الهجاء:

لم يكن هجاء ابن مالك مستقلاً في قصيدة مفردة، أو في قصائد معينة، بل كان مُتداخلاً مع غيره من الأغراض التي طرقها الشاعر، وأهمها المدح والفخر. وتأتي شهرة كعب الهجائية من زاوية تعبير المشركين بالمثالب والأيام والوقائع، وكان ذلك أشد عليهم من وقع السنان. فكعب عرف اليد التي تؤلم قريشاً فلواها وأمسك بها إمسك علم ومعرفة وقوة. فهو يعرف جيداً ما يُنفر الجاهلي كنتقض العهد، وضِعة النسب، والجبن بالإضافة إلى التعبير بالأيام.

يقول معيراً بني جعفر بنقض العهد في حادثة بئر معونة:

تركتُم جاركم لبني سُليمٍ مخافة حربهم عَجْزاً وهُوناً
فلو حَبِلاً تناول من عقيلٍ لمدَّ بحبلها حَبِلاً متيناً (١)

ويقول معيراً ابن الزبيري في يوم أحد بضعة النسب، ولؤم الطبع، وانحطاط الخلق يقول:

سألتُ بك ابن الزبيري فلم أنبأك في القوم إلا هجينا
خيشاً تُطيفُ بك المُنديات مقيماً على اللؤم حيناً فحيناً (٢)

ويقول معيراً قريشاً بالجبن والضعف والتخاذل والتخلي عن اللواء.

عمدنا إلى أهل اللواءِ ومن يَطِيرُ بذكر اللواء فهو في الحمْد أسرعُ
فخافوا وقد أعطوا يداً وتخاذلوا أبى الله إلا أمره وهو أصنعُ (٣)

(١) ابن مالك (كعب). الديوان ص ٢٧٨. جاركم المقصود به المسلمين الذين عقد لهم بنو جعفر الجوار. حبلاً: العهد والذمة.

(٢) ابن مالك (كعب). الديوان: ص ٢٧٧. المنديات: المخزيات التي يتدى منها الجبين.

(٣) ابن مالك (كعب) الديوان: ص ٢٢٩.

ويعبر كعب قريشاً بيوم بدر، وذلك عندما يجيب هبيرة بن أبي وهب الذي تغنى بانتصارات المشركين في أحد، يقول كعب:

ولكن ببدر سائلوا من لقيتمُ من الناس والأبناء بالغيب تنفع (١)
ويعبر المشركين أيضاً بيوم بدر، فيقول في مناسبة يوم ذي قرد للفوارس:

فسائل بني بدر إذا ما لقيتهم بما فعل الإخوان يوم التمارس
إذا ما خرجتم فاكتموا من لقيتم ولا تكتموا أخباركم في المجالس (٢)

وإلى جانب هذا وذاك كان كعب يعبر المشركين وخصوصاً القرشيين بالألقاب. فلقد عبر قريشاً بأنهم أبناء «سَخِينَة» وهو لقب كان يؤلم قريشاً، وذلك عندما أجاب عبد الله بن الزبيري في يوم الخندق يقول:

جاءت سَخِينَة كي تُغالب ربها فليُغلبن مُغالبُ الغلاب (٣)

وسلك كعب في هجائه للمشركين سبيل التهديد والوعيد، مما كان يبعث الخوف والرعب في نفوسهم، فيبادرون إلى الإسلام كما فعلت قبيلة «دؤس» بعد أن سمعت قول كعب إبان السير إلى الطائف.

قضينا من تهامة كل ريب وخير ثم أجمعنا السيوفاً
نخيرها ولو نطقت لقات قواطعهن دوساً أو ثقيفاً (٤)

وكعب لم يعدم طريقة في هجائه للمشركين، فإن غلب على هجائه التعبير بالمناقب والأيام، كان يعيرهم أيضاً بالشرك وعبادة الأوثان وسوء المنقلب، لكنه

(١) ابن مالك (كعب) الديوان: ص ٢٢٣.

(٢) ابن مالك (كعب). الديوان: ص ٢١٨.

(٣) ابن مالك (كعب). الديوان: ص ١٨٢. سخينة: لقب قريش في الجاهلية، وقد يراد منه البخل والتقتير.

(٤) ابن مالك (كعب) الديوان: ص ٢٣٤.

كان يضيف على كل ذلك مسحة مستمدة من القرآن الكريم . يقول مناقضاً
ضرار بن الخطاب في يوم بدر:

فَكَبُّ أَبْجَهْلٍ صَرِيحاً لَوَجْهِهِ وَعَتْبَةُ غَادِرْنِهِ وَهُوَ عَائِرُ
وَشِيئَةُ وَالتَّيْمِيَّ غَادِرْنَ فِي الْوَعْيِ وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا بَدِي الْعَرْشِ كَافِرُ
فَأَمَسُوا وَقَوْدَ النَّارِ فِي مُسْتَقَرِّهَا وَكُلُّ كَفُورٍ فِي جَهَنَّمَ صَائِرُ (١)

ومما يميز هجاء كعب عفة ألفاظه، وبعد معانيه عن الفحش والفجور.
فقد كان له من قوة الإيمان، وصدق العقيدة، ما يعصمه من الانحدار إلى
السباب والإفداع . لكنه كان يسلك أحياناً سبيل السخرية والتهكم والتحقير
والاستهزاء بالمهجور، وهذا الأسلوب أبلغ أساليب الهجاء، وسبيله أكثر إيلاماً
في نفس المهجور. نجد أمثال ذلك في هجائه لأبي سفيان الذي يحرض قريشاً
في غزوة السويق حين يصور منازل قريش على فخامتها وعراقتها، بما لا يزيد عن
منزل دُوَيْبَةَ صغيرة أشبه بمنازل الثعالب يقول:

تَلَهَّفُ أُمَّ الْمَسْبُوحِينَ عَلَى جَيْشِ ابْنِ حَرْبٍ بِالْحَرَّةِ الْفَشِيلِ
جَاؤُوا بِجَيْشٍ لَوْ قَيْسَ مَبْرُكُهُ مَا كَانَ إِلَّا كَمَفْحَصِ الدُّثْلِ (٢)

انقض كعب على المشركين، فهجاهم بسلاح خبروه وعجموا عوده،
ولاك أحسابهم وأنسابهم وألقابهم بلسان ينضح بلاغة وفصاحة، فتركهم صرعى
قوله وسانه على السواء.

الثناء:

لا يكاد رثاء كعب بن مالك يختلف عن مديحه، إلا أن هذا تعداد لمناقب
الأحياء، وذاك سرد لخصال الأموات. فكعب أخضع أغراضه الشعرية جميعاً

(١) ابن مالك (كعب)، الديوان: ص ٢٠١ .

(٢) ابن مالك (كعب). الديوان: ص ٢٥١. المفحص: المجثم، الدُّثْل: دُوَيْبَةُ تشبه
الثعلب.

لمقاييس الإسلام وقيمه، وخصوصاً الرثاء. ولا عجب في ذلك فالرثاء غرضٌ يصلح أن يكون صورة من صور الدعاية للدين، وبيث الأفكار الإسلامية. ففي رثائه لحمزة بن عبد المطلب نراه يَلجُ الرثاء من باب ثواب الآخرة، والتنعم بجنان الخلد، مبيناً قيمة الاستشهاد في سبيل الله، يقول في يوم أحد:

وقتلهم في جنان النعيم	كرأى المداخل والمخرج
بما صبروا تحت ظلّ اللواء	لواء الرسول بذى الأضوج
غداة أجابت بأسياها	جميعاً بنو الأوس والخزرج
وأشباع أحمد إذ شايعوا	على الحقّ ذي النور والمنهج
كذلك حتى دعاهم مليكٌ	إلى جنّة دوحه المولج
فكلهم مات حرّ البلاء	على ملّة الله لم يحرج (١)

بالإضافة إلى ذلك كان كعب يعدد في رثائه خصال الميت، ويسجل مناقبه، مبيناً أثر فقد المتوفى في الناس والمجتمع. ويبدو هذا واضحاً في رثائه للرسول الكريم، فكعب لم يكتفِ بنعي الرسول إلى أصحابه، أو إلى العرب والمسلمين وحسب بل تعداهم إلى الأحياء جميعاً بما فيهم الجن. ففقد الرسول ليس بالأمر الهين، فبالإضافة إلى أن الرسول رجل مميّز في الناس جميعاً، فإن فقدته يعني انقطاع الوحي، يقول كعب:

ألا أنعي النبيّ إلى العالمينا	جميعاً ولا سيّما المسلمينا
ألا أنعي النبيّ لأصحابه	وأصحاب أصحابه التابعينا
ألا أنعي النبيّ إلى من هدى	من الجن ليلة إذ تسمعونا
لفقد النبيّ إمام الهدى	وفقد الملائكة المنزّلينا (٢)

(١) ابن مالك (كعب). الديوان: ص ١٨٧-١٨٨. ذي الأضوج: منعطف الوادي

أو موضع قرب مكة. حرّ البلاء: خالص الاختبار. لم يحرج: لم يتأثم.

(٢) ابن مالك (كعب). الديوان: ص ٢٨١.

إنّ هذه العاطفة الصادقة المتأججة إيماناً و إخلاصاً للرّسول والذّين الحنيف، لا يمكن أن تصدر إلّا عن نفس مؤمنة أشد الإيمان صادقة كلّ الصّدق، مُجِبة للرّسول كلّ الحبّ لذلك نرى دموعه متدفّقة على فقد الرّسول، وكان التدفّق لا يكفي، فكعب يستثيرها ويحثّها على المزيد يقول راثياً الرّسول:

يا عينُ فابكي بدمعِ ذرّي لخير البريّة والمُصطفى
وبكّي الرّسولَ وحُقّ البكاء عليه لدى الحرب عند اللّقا (١)

وفي مجال الرثاء كان كعب بن مالك يستمد معانيه وصوره وألفاظه من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٣). وقال تعالى: ﴿مَا نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾ (٤). وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ (٥).

ورثاء كعب لم يكن إسلامياً في مجمله، يستمد معانيه من قيم الإسلام وألفاظ القرآن وتعاييره، بل كان إلى جانبه رثاء أخذ بعض معانيه من الجاهلية، لكنه أضفى على تلك المعاني مسحة إسلامية. ومثال هذا النوع قصيدة قالها في رثاء حمزة، فسرد شمائله الكريمة وخصاله الحميدة، كشرف المحتد، وكرم الحسب والنسب، والبطولة التي لا تُنزع، كل ذلك بأسلوب فخم، وألفاظ تذكّرنا بألفاظ الفحول يقول:

(١) ابن مالك (كعب). الديوان: ص ١٧٣.

(٢) المائدة: ٤٨.

(٣) الفتح: ١٧.

(٤) الحجر: ٨.

(٥) النساء: ١٠٥.

قَرِمَ تَمَكَّنَ فِي ذَوَابَةِ هَاشِمٍ حَيْثُ النَّبِوَةُ وَالنَّسَبُ وَالسُّوْدُ
 وَالْعَاقِرُ الْكُومَ الْجِلَادَ إِذَا غَدَت رِيحٌ يَكَادُ الْمَاءَ مِنْهَا يَجْمُدُ
 وَالتَّارِكُ الْقِرْنَ الْكَمِيَّ مُجَدَّلًا يَوْمَ الْكَرْيَهَةِ وَالْقَنَا يَتَقَصَّدُ (١)

النقائض:

النقائض في الشعر تعني أن ينقض شاعر ما قاله شاعر آخر، ويجيء بضد ما جاء به. ومع الإسلام انقسم الشعراء إزاء الشعر إلى فريقين متناقضين، فريق الرسول ويمثله عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك وحسان بن ثابت، وفريق ضده ويمثله شعراء قريش ومن والاهم من المشركين واليهود.

وطبيعي أن تقوم بين هؤلاء الشعراء حرب كلامية، إتخذت في معظم الأحيان صورة النقائض أو المناقضات. وكعب كان يتلمس في نقائضه الموضوعات السامية التي أقرها الإسلام أو استحدثها، والغاية النبيلة التي تمثلت في ما تعنيه كلمة «الجهاد» في سننيل الله، يقول مخاطباً أو مناقضاً ضرار بن الخطاب يوم بدر:

عَجِبْتُ لِأَمْرِ اللَّهِ وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَيَّ مَا أَرَادَ، لَيْسَ اللَّهُ قَاهِرٌ
 قَضَى يَوْمَ بَدْرٍ أَنْ نَلَاقِي مَعْشَرًا بَقُوا وَسَبِيلَ الْبَغْيِ بِالنَّاسِ جَائِرٌ
 فَلَمَّا لَقِينَاهُمْ وَكُلُّ مَجَاهِدٌ لِأَصْحَابِهِ مَسْتَبْسِلُ النَّفْسِ صَابِرٌ
 شَهَدْنَا بِأَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ بِالْحَقِّ ظَاهِرٌ (٢)

أما معاني نقائضه فهي على نوعين: نوع ذو معاني إسلامية كالإيمان

(١) ابن مالك (كعب). الديوان: ص ١٩٠. القرم: أصله الفحل الكريم من الإبل، ذؤابة هاشم: أعاليها. الكوم: جمع كوما وهي الإبل العظيمة السنام. الجلاذ: القوية. الكمي: الشجاع. مجدلاً: ملقى على الجدالة وهي الأرض. يقتصد: يتكسر.
 (٢) ابن مالك (كعب)، الديوان: ص ٢٠٠.

والكفر والجنة والنار، والوحي والملائكة، يقول مناقضاً هبيرة بن أبي وهب في يوم
أحد :

وفينا رسول الله نتبع أمره إذا قال فينا القول لا نتطلع
تدلى عليه الروح من عند ربه ينزل في جو السماء ويرفع (١)

وآخر قريب من المعاني الجاهلية التي تشير إلى المآثر والأحساب
والأنساب والمثالب والأيام، بالإضافة إلى التهديد والوعيد، ومثال ذلك ما جاء
في القصيدة نفسها حين يقول:

وإننا بأرض الخوف لو كان أهلها سوانا لقد أجلوا بليل فأقشعوا
إذا جاء منا راكب كان قوله أعدوا لما يُزجي ابن حرب ويجمع
فمهما بهم الناس مما يكيدها فنحن له من سائر الناس أوسع
فلو غيرنا كانت جميعاً تكيده الـ برية قد أعطوا يداً وتورعوا
نجالد لا تبغي علينا قبيلة من الناس إلا أن يهابوا ويفظعوا
ولما ابتنوا بالعرض قال سرائنا علام إذا لم نمنع العرض نزرع؟ (٢)

ومما ينبغي الإشارة إليه أن كعباً وضع الأسس العملية للنقائض التي
ازدهرت وتعددت في العصر الأموي. فلقد كان يلتزم القول في موضوع الشاعر
وقافيته وبحره، أما الإلتزام بالمعاني ذاتها فلم يسمح لنفسه أو لم يسمح له
إيمانه العميق أن يجاري فيها شعراء المشركين.

ولا بد من التوقف قليلاً مع ألفاظ الشاعر وتراكيبه ومعانيه. فألفاظ كعب
كانت خالية من الغرابة والشذوذ وتنافر الحروف، ولا غرابة في ذلك فكعب نشأ

(١) ابن مالك (كعب)، الديوان: ص ٢٢٤.

(٢) ابن مالك (كعب)، الديوان: ص ٢٢٣ - ٢٢٤ ابتنوا: ضربوا أبنيتهم. العرض: موضع خارج المدينة، وكل وإد فيه شجر فهو عرض.

في يثرب ولم يتوغل في الصحراء بالإضافة إلى أنه شبّ فصيح اللسان واضح
البيان. وبعد الإسلام إزدادت تراكيبه وعباراته سهولة ورقة وعذوبة، واتسحت
بألفاظ القرآن الكريم، وازدانت بكلمات الحديث الشريف، فمن تلك
المفردات التي وردت في شعره، لفظة الفاجر في قوله:

بهنّ أبدنا جمعهم فتبدّوا وكان يلاقي الحين من هو فاجر (١)
ولفظة جهنم:

فأمسوا وقود النار في مستقرها وكلّ كفور في جهنم صائر (٢)
ومنها لفظة مجاهد في قوله:

فلما لقيناهم وكلّ مجاهد لأصحابه مستبسل النفس صابر (٣)

أما تراكيبه فهي طبيعية لا تعقيد فيها، ولا التواء، فكعب شاعر مطبوع، لم
يُعرف عنه أنه قوم شعره أو نقحه، فتركه يجري على سجيته. في حين كانت
معاني شعره فطرية، تمتاز بالصراحة والصدق، وفيها جميعاً نتلمس تأثيره
بالإسلام، يقول:

عجبتُ لأمر الله والله قادر على ما أراد، ليس لله قاهر (٤)
فمعنى هذا البيت متأثر بالآية الكريمة: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ
لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (٥).

(١) ابن مالك (كعب)، الديوان: ص ٢٠١.

(٢) ابن مالك (كعب)، الديوان: ص ٢٠١.

(٣) ابن مالك كعب، الديوان: ص ٢٠٠.

(٤) ابن مالك (كعب) الديوان: ص ٢٠٠.

(٥) الرعد: ١١.

وقوله:

فأمسوا وقودَ النارِ في مُسْتَقْرَها وكُلُّ كَفُورٍ في جَهَنَّمَ صائِرٌ (١)
متأثرٌ بالآيةِ الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ
الْمَصِيرُ﴾ (٢).

أو بالآيةِ الكريمة: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (٣).

وقوله:

وكان رسول الله قد قال أقبلوا فولّوا وقالوا: إنما أنت ساحرٌ (٤)
متأثرٌ بقوله تعالى: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم وقال الكافرون هذا
ساحرٌ كذابٌ﴾ (٥).

وقول ابن مالك:

لأمر أراد الله أن يهلكوا به وليس لأمر حمّة الله زاجرٌ
متأثرٌ بالآية: ﴿ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ (٦).

وأما المعنى الوارد في قول كعب بن مالك:

فإن يك موسى كلم الله جهرةً على جبل الطور المنيف المعظم (٧)
متأثرٌ بالآيةِ الكريمة: ﴿ورُسلًا قد قصصناهم عليك من قبل ورُسلًا لم
نقصضهم عليك وكلم الله موسى تكليمًا﴾ (٨).

(١) ابن مالك (كعب)، الديوان: ص ٢٠١.

(٢) الملك: ٦.

(٣) البقرة: ٢٤.

(٤) ابن مالك (كعب)، الديوان: ص ٢٠١.

(٥) ص: ٤.

(٦) الأنعام: ١٤٧.

(٧) ابن مالك (كعب)، الديوان: ص ٢٧٠.

(٨) النساء: ١٦٤.

وقول كعب بن مالك :

نُطِيعُ نَبِيَّنَا وَنُطِيعُ رَبًّا هُوَ الرَّحْمَنُ كَانَ بِنَا رُؤُوفًا (١)

متأثر بمعنى الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رُؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢).

ومعنى قول كعب:

وَإِن تَكُ نَمْلٌ الْبِرِّ بِالْوَهْمِ كَلَّمْتُ سُلَيْمَانَ ذَا الْمُلْكِ الَّذِي لَيْسَ بِالْعَمِيِّ (٣)

مأخوذ من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤). ومعنى قول كعب:

بأن الله ليس له شريك وأن الله مولى المؤمنين (٥)

مستقى من الآية الكريمة: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٦). أو من الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧).

ومعنى قول كعب بن مالك:

تَلْكُم مِّنَ التَّقْوَى تَكُونُ لِيَّاسِنَا يَوْمَ الْهِيَاجِ وَكُلَّ سَاعَةٍ مَّصْدَقٍ (٨)

(١) ابن مالك (كعب)، الديوان: ص ٢٣٦.

(٢) البقرة: ٢٠٧.

(٣) ابن مالك (كعب)، الديوان: ص ٢٧٠.

(٤) النمل: ١٨.

(٥) ابن مالك (كعب)، الديوان: ص ٢٨٠.

(٦) الأنعام: ١٦٤.

(٧) آل عمران: ٦٨.

(٨) ابن مالك (كعب)، الديوان: ص ٢٤٥.

مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سُوَاتِكُمْ
وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (١).

ونحن في التفاتنا للإشعاع القرآني في شعر ابن مالك لا نبغي الإحاطة
الشاملة والدراسة الدقيقة لتلك الإشعاعات المنبثقة من شعره، بل الإشارة إلى
تأثر كعب بن مالك بالقرآن الكريم والتعاليم الإسلامية، ولعل ابن مالك كان أكثر
تمثلاً للدين الإسلامي من زميله عبد الله وحسان، وربما ساعده في ذلك إسلامه
المبكر نسبياً، ومشاركته الفعلية في أكثر الحروب والغزوات الإسلامية إلى
جانب الرسول خلافاً لحسان، بالإضافة إلى أن شعره لم يتعرض للإهمال
أو الضياع شأن شعر ابن رواحة.

نكتفي بهذا القدر في تناول أغراض الشعر عند كعب بن مالك، فنحن
لا نبغي التبع الدقيق لنتاجه الشعري، بل نتلمس الإحاطة الأفقية مع شيء من
التعمق الكافي لاستيعاب الطالب، ولإعطاء صورة واضحة إلى حد ما عن
الأغراض التي تناولها شعراء صدر الإسلام.

وبعد فإن كعباً دافع عن الدين الإسلامي بلسانه وسنانه، وكأنهما كانا
يتنافسان في أيهما أشد فتكاً بالمشركين. كان يمدح الرسول ويفخر بالإسلام
فيؤلم المشركين، وكان يهجوهم ويعيرهم بالأيام والمثالب والألقاب وضعة
النسب والجبن والتخاذل فتخرس ألسنتهم، وتبادر قبائلهم إلى الدخول في دين
الله، وكان يرثي الرسول الكريم وصحابته فيصيب من نفوس المنافقين والمارقين
والماكثين مقتلاً، وكان يناقض شعراء المشركين فيعجزهم الرد إلا من كابر منهم
فازداد إثمًا. ولم يكن ليتأتى لكعب تلك المقدره، لو لم يكن محباً للرسول
والإسلام حباً صادقاً عميقاً، ولو لم يكن متمثلاً لقيم الدين الحنيف تمثلاً

(١) الأعراف: ٢٦.

حقيقياً، رغم أن تمثله كان دون المستوى المطلوب، لكنه تمثل كبير إذا ما قيس
بشعر بعض معاصريه.

٣٠ - عبد الله بن رواحة:

كان ابن رواحة سيداً عظيم الشأن في الجاهلية، سباقاً إلى الإسلام، شهد
العقبة مع السبعين من الأنصار. بالإضافة إلى أنه كان مؤمناً خالص الإيمان، تقياً
ورعاً، مقرباً من الرسول الكريم.

ويظهر أن العصور الإسلامية الأولى كانت تعرف كثيراً من أشعار الرجل،
حتى عدّه القرشي من أصحاب المذاهب، فجعل المذاهب الأولى لحسان،
والثانية لابن رواحة^(١). في حين رأى فيه ابن سلام الجُمحي أحد الشعراء
الفحول الثلاثة^(٢). كما أن القرطبي ذكر له قصيدة في رثاء حمزة.

ولكن رغم ذلك لم يدون له الرواة ومؤرخو الأدب شعراً يذكر. فأبوتام
في حماسته لم يذكر لابن رواحة بيتاً واحداً، كما أن الظبي لم يذكره بين
الشعراء، ومثله فعل ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء^(٣).

ولعل ذلك يعود إلى أن ابن رواحة كان يعبر قريشاً بالكفر، وهذا الشيء
كان هيناً عليها قبل الإسلام، شديداً بعده^(٤). مما اضطر قريش إلى إهمال شعره
فنسيه الناس قبل عصر التدوين. أو لأن عبد الله كان يتأثم من قول الشعر مخافة
أن يطاله قول الله تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾، أو لأن شعر ابن رواحة

(١) راجع: القرشي (أبوزيد، محمد). جمهرة أشعار العرب، القاهرة، ١٣٣٠هـ،
ص ٢٤٣.

(٢) راجع: الجمحي (ابن سلام، محمد)، طبقات فحول الشعراء دار المعارف مصر،
لا تاريخ ص ٨٣.

(٣) راجع: الجبوري (يحيى) شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ص ٨٥.

(٤) الأصفهاني (أبو الفرج) الأغاني مصورة عن طبعة بولاق، دار الفكر للجمع، بيروت
١٩٧٠، ج ١٥، ص ٢٩.

كان ملتبساً بشعر كعب بن مالك، فتروي بعض السير بعض هذا الشعر لهذا
أوذاك^(١).

أما شعر ابن رواحة المنشور في ديوانه^(٢)، أو الذي ما زال مبعثراً في أمات
الكتب، فهو لا يتناسب مع أهمية الشاعر الإسلامية، وفيه جميعاً لا تكاد تظهر
خصائصه الفنية، وتعدُّ الأغراض التي قال فيها الشعر. ففي شعره الجاهلي
نجد المذهبية التي يقول فيها:

تذكر بعد ما شطت نُجودا	وكانت تيمت قلبي نجودا
لعمرك ما يوافقني خليل	إذا ما كان ذا خلف كنودا
متى ما تات يثرب أو تردّها	تجدنا نحن أكرمها جدودا
وأغلظها على الأعداء ركناً	والينها لباغي الخير عودا
وأخطبها إذا اجتمعوا لأمر	وأقصدها وأفأها عهدودا
زعمتم إنما نلتم ملوكاً	ونزعم إنما نلنا عبداً ^(٣)

وبعد إسلام ابن رواحة المبكر، وقف إلى جانب الرسول والإسلام. قال
له الرسول يوماً: قل شعراً تقتضيه الساعة وأنا أنظر إليك، فانطلق ابن رواحة
يقول:

إني تفرست فيك الخير أعرفه	والله يعلم أن ما خانني البصر
أنت النبي ومن يحرم شفاعته	يوم الحساب فقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسن	ثبيت موسى ونصراً كالذي نصرنا ^(٤)

(١) السيرة: ق: ١٦٢/٢.

(٢) راجع: سلطان (جميل) ديوان عبد الله بن رواحة، دار القلم، دمشق ١٩٧٣.

(٣) ديوان ابن رواحة: ص ٩٦ - ٩٩.

(٤) نقلاً عن: ابن عبد البر (يوسف بن عبد الله). الاستيعاب في معرفة الأصحاب،
البحاوي، مصر، لا تاريخ م ٢، ص ٩٠٠.

ولا شك أن الشاعر متأثر بآيات كثيرة وردت في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (١). ومنها قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٢) كما إنه يستقي معانيه من الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَوْتِيَتْهُ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ (٣)، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٤).

وفي معركة بدر، قال ابن رواحة مخاطباً أبا سفيان:

وعدنا أبا سفيان بداراً فلم نجد	لميعاديه صدقاً وما كان وافياً
عصيتُ رسولَ الله، أفٍ لدينكم	وأمركم السيء الذي كان غاورياً
فإني وإن عنتُموني لقائلُ	فدئى لرسولِ الله أهلي وماليا
أطعنا ولم نعدله فينا بغيره	شهاباً لنا في ظُلْمَةِ الليل هادياً (٥)

فبالإضافة إلى تعبير الشاعر لأبي سفيان بالكفر والشرك ومعصية الرسول، وتبرمه من عبادة الأوثان والأنصاب والأزلام، فإنه يستمد معاني أبياته من القرآن الكريم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ (٦). وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطَلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٧).

ويقول ابن رواحة في مجال هجائه للمشركين أيضاً:

(١) الأحزاب: ٤٥.

(٢) إبراهيم: ٤١.

(٣) البقرة: ١٣٦.

(٤) المؤمنون: ٤٩.

(٥) ديوان ابن رواحة: ص ١٠٦.

(٦) التوبة: ٢٠.

(٧) محمد: ٣٣.

شهدت بأن وعد الله حقاً وأن النار مثوى الكافرين (١)

وهو بلا شك يستقي ألفاظه ومعانيه من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرُّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ (٣). وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٤).

وفي رثاء الحمزة قال عبد الله بن رواحة:

بكت عيني وحق لها بكاهما وما يغني البكاء ولا العويلُ
على أسد الإله غداة قالوا أحمزة ذاكم الرجل القتيلُ
أصيب المسلمون به جميعاً هناك، وقد أصيب به الرسولُ
عليك سلام ربك في جنان مخالطها نعيم لا يزولُ
ألا يا هاشم الأخيار صبراً فكلُّ فعاليكم حسن جميلُ
رسول الله مصطبرٌ كريمٌ بأمر الله ينطق إذ يقول (٥)

ويرى الدارس لهذه الأبيات أن ابن رواحة يرثي الحمزة رثاءً إسلامياً خالصاً، فهو «أسد الإله» و«أصيب به المسلمون» و«عليك سلام ربك في جنان» إلى ما هناك من معاني إسلامية، وهو بلا أدنى ريب متأثر بالقرآن الكريم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ﴾ (٦) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (٧).

(١) نقلًا عن: ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ص ٣٦٢.

(٢) لقمان: ٣٣.

(٣) غافر: ٥٥ و ٧٧.

(٤) العنكبوت: ٦٨ والزمر: ٣٢.

(٥) ديوان ابن رواحة، ص ١٠٧ - ١١٠.

(٦) لقمان: ٨.

(٧) الفتح: ١٧.

وابن رواحة كان مقرباً من الرسول، أثيراً عنده، يقول الشعر بين يديه داعياً إلى الإسلام، يقول:

نجالدُ النَّاسِ عن عرض فنأسرهم فينا النبي وفينا تنزل السَّورُ
وقد علمتم بأننا ليس غالبنا حيُّ من النَّاسِ إن عزّوا وإن كثروا
يا هاشم الخير إن الله فضلكم على البرية فضلاً ما له غيرُ (١)

وقوله متأثر بالآية الكريمة: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (٣) ولعلَّ عمق إيمان ابن رواحة، وتخوفه من أن يناله شيء مما أورد الله تعالى في شأن القرآن، منَعَاهُ من قول الشعر، ويذكر في هذا المجال، أن الرسول الكريم قال له مرّة وهما في سفر:

«أنزل فحرّك بنا الرّكاب»، فأجاب: «إني تركت قولي ذلك»، فنهره ابن الخطاب قائلاً: «إسمع وأطع» فنزل ابن رواحة وهو ينشد:

يا رب لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلينا
فانزلن سكيناً علينا وثبّت الأقدام إن لاقينا
الكافرون قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنةً أبينا (٤)

ومهما يكن من أمر، فابن رواحة ترك قول الشعر أوزهد فيه، وانصرف إلى الدفاع عن الإسلام بالسنان. وفي يومٍ مؤتة كان القائد الثالث لجيش المسلمين بعد زيد وجعفر، ويستشهد الثلاثة.

(١) الجمحي ابن سلام (محمد)، طبقات فحول الشعراء، ص ١٨٧.

(٢) آل عمران: ١٦٠.

(٣) الشورى: ٧.

(٤) ديوان ابن رواحة ص ٨٦.

وأما شعره الذي نُسِبَ إليه أو صحَّ أنه له، فهو ينضح بتأثره بالقرآن الكريم والقيم الإسلامية، وتمثّل إلى حدّ ما لتلك القيم والتعاليم، ولو حُفِظَ شعره جميعاً فلربّما ساعد على توضيح صورة الشعر في صدر الإسلام، لِمَا امتاز به من سهولة في اللفظ وشيوع للمعاني الدّينية، ولكن رغم ذلك فابن رواحة يُعدّ من شعراء الأنصار البارزين الذين ذبّوا عن الرسول ودافعوا عن الدّين الإسلامي بلسانهم ولسانهم.

ويلاحظ الدارس لشعر تلك الفترة أن شعراء المدينة كانوا أقل تمثلاً - من غيرهم - لقيم الدّين الإسلامي؛ فاقصر شعرهم على محاكاة ألفاظ القرآن محاكاة أفقية بعيدة عن التعمق والتمثّل الكافي، رغم جهود الرسول في توجيه الشعراء الوجهة الحسنة، ورعايتهم وتسيّد خطاهم. لكن تلك الجهود أتت ثمارها قبيل الفتح وبعده، فأضحى للشعر الإسلامي شخصيته التي تميزه عن الشعر الجاهلي، وأصبح الفخر الإسلامي فخراً مستمداً من القرآن الكريم وسيرة الرسول، فخراً بنوال الشهادة، ودخول الجنة، وكسب رضوان الله ورسوله، لا فخراً بكثرة العدد، وحسن بلاء القبيلة، ورفعة الحسب والنسب، كما كان الأمر في الجاهلية..

وبتعبير آخر فإنّ الشعراء بعد الفتح بدأوا يفهمون معنى الانتماء إلى الدولة الإسلامية، وشرعوا يصورون تلك الأجنّة التمهيدية لنشأة الدولة وبنائها، ذلك البناء الذي ارتفعت عماده في ما بعد. والملاحظ أن شعراء البادية الوافدين على الرسول الكريم، كانوا أكثر تمثيلاً للدّين الإسلامي من شعراء الحضرة، وشعرهم كان أصدق تعبيراً عن قيم الإسلام وتعاليمه.

ونرى أن شعر أهل الحضرة وخصوصاً شعر حسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، يمثل الحلقة الأولى من شعر المخضرمين، تلك الحلقة

التي نظمت بعض تعاليم الإسلام نظماً بعيداً عن التمثّل الواعي ، في حين يمثل شعر أهل المدر أو شعراء البادية الوافدين الحلقة الثانية من ذلك الشعر لبعده النسبي عن تأثير الجاهلية وعاداتها وتقاليدها، فجاء شعرهم أكثر صدقاً ووعياً وتمثلاً لقيم الدين الحنيف .

ثانياً - شعر المهاجرين والوافدين :

لم يقتصر الشعر الإسلامي على شعراء المدينة الذين اصطلح على تسميتهم بشعراء الأنصار، كعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت، فهؤلاء وإن كانوا يمثلون عماد الشعر الإسلامي، إلا أنهم لا يمثلون وحدهم ذلك الشعر، فهم لم يتمثلوا الإسلام حق تمثّل، ولم يستطيعوا أن يسكبوا أنفسهم فيه، ولا أن ينصهروا في تعاليمه وقيمه انصهاراً واعياً. بل كان إلى جانبهم شعراء وشاعرات بعضهم هاجر إلى المدينة أو الحبشة أو الهجرتين معاً، وبعضهم وقد من البادية لبياع الرسول، ويؤيد الإسلام بلسانه ولسانه . وهؤلاء جميعاً أسهموا في نصره الدين الإسلامي والدفاع عنه .

شعر المهاجرين :

بعد أن ترك الرسول الكريم مكة، ميّماً وجهه شطر المدينة، بقي في بلد الكعبة أنصار له ومؤيدون . وكان من الطبيعي أن تؤذيهم قريش وتضطهدهم في محاولة لردّهم عن تأييد الرسول، فاضطروا عندئذٍ إلى الهجرة وكان بينهم شعراء وشاعرات نشير إلى بعضهم إشارة قد لا تغني عن الرجوع إلى أمّات كتب السيرة والتاريخ .

يأتي في طليعة الشعراء المهاجرين :

(أ) عبد الله بن جحش :

وقد هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة، في محاولة لنشر الدين الإسلامي

ونصرته بالسنان واللسان. لذلك كان أثيراً عند الرسول الكريم، يحبه ويعتمد عليه في مهمات صعبة. وفي إحدى تلك المهمات العسكرية اضطر ابن جحش إلى منزلة قريش في الشهر الحرام، فاستنكر العرب وبينهم الرسول توقيت تلك الحرب. لكن الله سبحانه وتعالى أنزل الآية الكريمة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ، وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾^(١) فأنشد عبد الله أبياتاً يرد فيها مزاعم قريش، يقول:

تعدون قتلاً في الحرام عزيمةً وأعظم منه لا يرى الرشد راشداً
صدودكم عما يقول محمدٌ وكفرٌ به والله راءٍ وشاهدٍ
وإخراجكم من مسجد الله أهله لثلا يرى لله في البيت ساجداً^(٢)

فالشاعر يستقي معنى أبياته من الآية السابقة الذكر ومن مجمل القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾^(٣)، كما أنه استقى مجمل ألفاظه من القرآن الكريم، فاستعمل لفظة «الله» ثلاث مرات، ولفظة «الصمد» و«الكفر» و«ساجد» وغير ذلك، كما يلاحظ غياب المعاني والتعابير والألفاظ الجاهلية، مما يدل على عمق إيمان عبد الله وصدق تمثله للإسلام، ولو عمّر طويلاً لكان في طليعة شعراء المهاجرين المتأثرين بالإسلام، لكنه شهد يوم بدر وأبلى فيه بلاءً حسناً حتى نال الشهادة.

(١) البقرة: ٢١٧.

(٢) ابن هشام (عبد الملك)، السيرة النبوية، حققها مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، مطبعة البايي الحلبي، القاهرة ١٩٣٦، م ١، ص ٦٠٥.

(٣) المائدة: ٢.

(ب) عبد بن جحش :

وهو أخ عبد الله ، وكان كفيفَ البصر، لذلك لم يتمكن من الهجرة إلى الحبشة ، لكنه بعد أن ضيقت عليه قریش في مكة ، اضطر إلى تركها ميمماً تجاه المدينة وهو يقول :

إلى الله وجهي والرسولِ ومن يُقمِ إلى الله يوماً وجهه لا يُخَيَّبُ^(١)
ولعل الشاعر متأثر بآيات عديدة منها : ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢) ومنها قوله تعالى : ﴿وَمَنْ
يَسْلَمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾^(٣) كما أنه متأثر
بالفاظ القرآن الكريم ، فاستعمل لفظة «الله» مرتين ، و«وجه» مرتين و«الرسول»
مرة واحدة ، في حين لم نجد في ألفاظ البيت لفظة جاهلية واحدة ، وهذا يدل على
صدق تعلقه بالإسلام .

(ج) عبد الله بن الحارث السهمي :

وهو الذي شارك المسلمين مُصابهم ، وتعرض لأذى المشركين
وطغيانهم ، قال يصور معاناة المسلمين :

كُلُّ امرئٍ من عبَادِ اللَّهِ مُضْطَهَدٍ بِبَطْنِ مَكَّةَ مَقْهُورٍ وَمَفْتُونٍ
إِنَّا اتَّبَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ وَاطَّرَحُوا قَوْلَ النَّبِيِّ وَغَالُوا فِي الْمَوَازِينِ^(٤)
وعلى الرغم من أن شعر عبد الله بن الحارث - شأنه شأن شعر المهاجرين - قيل
في فترة مبكرة من عهد الإسلام ، فإنه متأثر بالقرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿رَبَّنَا

(١) ابن هشام (عبد الملك) ، السيرة النبوية ، م ١ ، ص ٤٧٣ .

(٢) الأنعام : ٧٩ .

(٣) لقمان : ٢٢ .

(٤) ابن هشام (عبد الملك) ، السيرة النبوية ، م ١ ، ص ٣٣٠ .

أَمَّا بِنَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿١﴾. وجاء في التنزيل العزيز: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (٣).

والملفت للنظر أن الشعر المهجري إذا جاز التعبير، لم يقتصر على الرجال، بل تعداه إلى بعض النساء المهاجرات من مكة. وهذا النوع من الشعر يشكّل الوجه الآخر لشعر المهاجرين، وبدونه لا يمكن أن تتوضّح الصورة وتكتمل.

(د) صفة بنت عبد المطلب :

وهي عمّة الرسول الكريم، ووالدة الزبير بن العوام، وأخت حمزة بن عبد المطلب الذي استشهد في أحد، ولأكت كبدّه هند بنت عتبة والدة معاوية، وإحدى شاعرات قريش؛ تقول صفة ترثي أخاها:

أسائلة أصحابي أحد مخافة	بنات أبي من أعجم وخبير
فقال الخبير إن حمزة قد نوى	وزير رسول الله خير وزير
فوالله لا أنساك ما هبت الصبا	بكاء وحزناً مخضري ومسيري
على أسد الله الذي كان مذرهما	يدود عن الإسلام كل كفور
دعله إله الحق ذو العرش دعوة	إلى جنة يحيا بها وسرور (٤)

فالشاعرة استلهمت آي الذكر الحكيم، قال تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ (٥)، وجاء في الذكر الحكيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ

(١) آل عمران: ٥٣.

(٢) الشورى: ٢٧.

(٣) الأنبياء: ٤٧.

(٤) ابن هشام (عيد الملك). السيرة النبوية، م ٢، ص ١٥٨.

(٥) طه: ٢٩.

كَفُورٌ ﴿١﴾ ، وورد في القرآن الكريم : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ ﴿٢﴾ ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ﴿٣﴾ .

(هـ) هند بنت أئانة بن عبد المطلب :

وهي التي قالت شعراً تبكي فيه عبيد بن الحارث بن عبد المطلب ، الذي استشهد يوم بدر .

لقد ضَمَّنَ الصفراء مجداً وسُودداً وحُلماً أصيلاً واقراً اللَّبِّ والعقل (٤)
ولقد بكت هندُ الرسولَ الكريم بقطعِ حزينته ، قالت في إحداها تخاطب فاطمة ابنة الرسول :

أشاب ذُؤابتِي وأذَلَّ ركنِي بكاؤكِ فاطمَ المَيِّتِ الفقيدا (٥)
(و) نَعَم بنت سعيد :

وهي زوجة شماس بن عثمان الذي قُتل في يوم أُحد ، فقالت ترثيه :

يا عينُ جودي بفيض غير أبساسِ على كريمٍ من الفتيانِ أباسِ
أقول لما أتى النَّاعي له جزعاً أودى الجوادُ، وأودى المُطعم الكاسي (٦)

(١) الحج : ٣٨ .

(٢) البقرة : ٨٢ .

(٣) آل عمران : ١٦٩ .

(٤) ابن هشام (عبد الملك) السيرة النبوية، م ١ ، ص ٧٠٦ .

الصفراء : موضع بين مكة والمدينة .

(٥) ابن سعد (محمد) الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت ١٣٧٦هـ .

(٦) ابن هشام (عبد الملك) السيرة النبوية، م ٢ ، ص ١٦٨ .

الأبساس : مسح ضرع الناقة لتدر ، وقد استعارت الشاعرة هذا المعنى للدمع الفائض من غير تكلف . الأباس : القوي الذي يقهر غيره ويغلبه .

والملاحظ أن شعر المهاجرات غلب عليه الرثاء، فكان في مُجمله شعر بكاء وندب ووعويل . لكنّه لم يعدم تأثراً بالقرآن الكريم والقيم الإسلامية، وتعاليم الدين الحنيف . ورغم أنّ أولئك الشعراء لم يتمثلوا الإسلام تمثلاً واعياً، إلا أنّ المسحة الدينية كانت فيه واضحة جليّة، فجاء خالياً من ألفاظ الجاهلية وأسلوبها، وشبيهاً بأسلوب القرآن الكريم ألفاظاً وتعابير ومعنى وموسيقى .

٢ - شعر الوافدين :

لم يكن الشعر المتأثر بالإسلام مُقتصراً على شعراء المدينة، أولئك الذين هاجروا إلى الحبشة أو المدينة، بل تعدّاهم إلى شعراء كانوا يسكنون البادية، ثم وفدوا على الرسول الكريم إبان الفتح أو بعده، بالإضافة إلى شعر شعراء هاجروا ليشاركوا في الفتوحات الإسلامية .

وفي التفاتة سريعة إلى شعر البادية، نجد أنّ التطور قد جرى فيه على نحو طبيعي . إذ أنّ النقلة من الجاهلية إلى الإسلام لم تكن مفاجئة، بل كانت مُتدرّجة بشكل منطقي إلى حدّ ما . فلغتهم الشعرية تُعتبر حلقة ضرورية في التدرّج اللغوي، بين لغة الجاهلية المتقرّرة، ولغة الإسلام السهلة العفوية . وذلك ربما يعود إلى أنهم لم يكونوا من محترفي الشعر وعبيده المحكّكين . بل ينساب على ألسنتهم في لحظات انفعالٍ أو تأثر حقيقي، لفقد عزيزٍ أو اغترابه في الفتوح، أو لحنين جارف إلى مواطنهم الأولى، أو لفخر بفروسيّتهم وبلائهم في حروب الفتوح . بالإضافة إلى أنهم كانوا لا يتمتّعون بذلك الإلمام الواسع بتراث الشعر الجاهلي، ولا يملكون ذلك الرّصيد الهائل من الألفاظ والعبارات والصور التي كان يتميّز بها الشّاعر المُحترف، ويتخذها ركيزة من ركائز النّظم . فجاءت أشعار هؤلاء المُقلّين تلقائية في مقطوعات قصيرة، أقرب ما تكون في لغتها وصورها إلى طبيعة العصر، مع ما يشوبها من توتّر يستدعيه أحياناً الانفعال

الجارف تجاه الأحداث^(١) ولذلك يمكن اعتبار شعر هؤلاء أكثر تمثلاً للدين الإسلامي وقيمه وتعاليمه. وهؤلاء الشعراء لا يمكن حصرهم وسنتناول أشهرهم:

(أ) عباس بن مرداس :

وهو ابن الخنساء الشاعرة ومن شعراء البادية الذين وفدوا على الرسول الكريم وتأثروا بالإسلام. وفد ابن مرداس إلى المدينة عام الفتح، والتحق بالرسول في ألف من بني سليم، وشارك في نصرته المسلمين بالسنان واللسان، يقول:

سَرِينَا وواعدنا قَدِيداً محمداً يَوْمَ بنا أمراً من اللّهِ مُحَكِّمًا
وجنّدٌ من الأنصار لا يخذلونه أطاعوا فما يَعْصُونَهُ ما تَكَلَّمَا^(٢)

والواضح أنّ الشاعر متأثر بالقرآن الكريم، ومتمثل إلى حدٍ بعيد تعاليم الإسلام، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾^(٣) وجاء في الذكر الحكيم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٥)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾^(٦).

(١) القط (عبد القادر). في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٧، ص ٤٩.

(٢) ابن هشام (عبد الملك)، السيرة النبوية: م ٢، ص ٤٦٩.

(٣) الإسراء: ١.

(٤) آل عمران: ٧.

(٥) النساء: ٨٠.

(٦) محمد: ٣٣.

ولعباس شعر قاله في مناسبات إسلامية متعددة، يقول في يوم حنين مادحاً
الرّسول الكريم:

يا خاتم النبأ إنك مُرسلٌ بالحقّ كلُّ هُدى السبيل هُداكا
إنّ الإله بنى عليك محبّةً في خلقه ومُحمداً سَمَكا

وهو متأثر بلا ريب بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ
وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (١) وبالآية الكريمة: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ
بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (٢). ويتابع ابن مرداس قصيدته مفتخراً بقومه الذين أبلوا بلاءً
حسناً في نصرة الرّسول والإسلام، يقول:

وينو سُلَيم مُعَنقون أمامه ضرباً وطعناً في العدو دراكا
ثم يقارن بين جاهليته وما كان عليه من شرك وضلال. وإسلامه حيث ينعم
بصحبة الرسول وقيم الإسلام وتعاليمه، يقول:

لعمري إني يوم أُجعلُ جاهِداً ضِمارةً لربِّ العالمين مُشاركا
وتركي رسول الله والأوس حوله أولئك أنصار له ما أولئكا
كتارك سهل الأرض والحزن يتغي ليسلك في غيب الأمور المسالك
فأمنتُ بالله الذي أنا عبده وخالفتُ في أمس يزيد المحالكا
ووجهت وجهي نحو مكة قاصداً وتابعتُ بين الأخشيين المُباركا
نبيّ أتانا بعد عيسى بناطقي من الحقّ فيه الفصل منه كذلكا
أميناً على الفرقانِ أول شافعٍ وأخيراً مبعوثٍ يُجيبُ الملائكا (٣)

(١) الأحزاب: ٤٠.

(٢) البقرة: ١١٩.

(٣) الأصفهاني (أبو الفرج) الأغاني: ج ١٤، ص ٣٠٤-٣٠٥. خمار: إسم صنم كان
يعبد قبل الإسلام. الحزن: ما غلظ من الأرض، وقلما يكون إلا مرتفعاً. الأخشيين:
جبلان محيطان بمكة هما: أبو قيس والأحمر.

وغني عن البيان تأثر ابن مرداس بالقرآن الكريم . وما ألفاظه وتعاييره «خاتم الأنبياء» و «مرسل بالحق» و «أمنت بالله» و «رسول الله» و «عبده» و «نبي أتانا بعد عيسى» و «أميناً على الفرقان» و «أول شافع» و «آخر مبعوث»، إلى ما هنالك، إلا ألفاظ وتعايير مستمدة من القرآن الكريم . ولم يكن ليُعقل أن يأتي أحدٌ بمثل ما أتى به ابن مرداس لو لم يكن متمثلاً للإسلام تمثلاً عميقاً إلى حد ما، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ (١)، وجاء في الآية الكريمة: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ (٢)، وجاء في الذكر الحكيم: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ (٣)، وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٤)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (٥).

(ب) عبده بن الطيب:

من أولئك الشعراء أيضاً عبده بن الطيب، فقصيدته ذات المطلع:

هل حبلُ خولة بعد الهجر موصولٌ أم أنت عنها بُعَيْدَ الدَّارِ مشغولٌ

وهذه القصيدة قالها ابن الطيب في أثناء هجرته إلى العراق، ليشارك في وقائع الحرب بين العرب والفرس . وفيها نلمس تعلق الشاعر بالمعاني البدوية التي اصطحبها معه في لا وعيه رغم أسلوبه الحضري الجديد، يقول:

حَلَّتْ خُوَيْلَةُ فِي دَارِ مُجَاوِرَةٍ أَهْلُ الْمَدَائِنِ فِيهَا الدَّيْكَ وَالْفَيْلُ

(١) النساء: ٣٦ .

(٢) الأنعام: ١٠٢ .

(٣) آل عمران: ٤ .

(٤) الحجر: ٦٤ .

(٥) النمل: ٧٩ .

لكنه ما إن تهدأ نفسه ويستقرُّ به الحال، تعود لُغته إلى عمقها الجاهلي

فيقول:

فخامرَ القلبَ من ترجيعِ ذكرتها رسٌ لطيفٌ ورهن منك مكبولُ
رسٌ كرسٍ أخِي الحمى إذا غَبرت يوماً تأوَّبه منها عقابيلُ

ثم يلوم الشاعر نفسه لأنَّ سنَّه لم يعد يسمح له بذكر الأحبة والتغزل والصباية. فيصف ثوراً وحشياً تطارده كلاب الصيد، لكنه ينتصر، وفي انتصاره تأكيدٌ على سنَّه البقاء؛ يقول بأسلوبه الجاهلي:

حتى إذا مضى طعناً في جواشنها ورَوَّقه من دم الأجواف معلولُ
ولتِ وصرَّعنَ من حيث التبسن به مُضرجاتٌ بأجراحٍ ومقتولُ
كأنه بعدما جدَّ النجاء به سيفٌ جلا متنه الأصناع مسلولُ
مستقبلُ الريح يهفو وهو معتركُ لسانه عن شمال الشدق معلولُ

والقصيدة في مجملها تصوير لوقائع القصيدة الجاهلية في مطلعها ومراحلها المتدرّجة المقررة، في وصف الناقة والرحلة، والصيد والأوابد وما شابه. ولكن فيها أيضاً معانٍ مُستقاة من الدين الإسلامي حين يقول:

نرجو فواضلَ رَبِّ سَيِّئه حسنُ وكلُّ خيرٍ لديه فهو مقبولُ
رَبُّ حَبَانَا بِأَمْوَالٍ مُخَوْلَةٌ وكلُّ شيءٍ حَبَاهُ اللهُ تخويلُ
والمراءُ ساعٍ لأمريس يُدركه والعيشُ شحٌّ وإنفاقٌ وتأويلُ^(١)

(١) راجع: القط (عبد القادر). في الشعر الإسلامي والأموي، ص ٥١ - ٥٣. مضي: أوجع، الجواشن: الصدور. الروق: القرن. الأصناع: جمع صانع: أي العامل الحاذق. معلول: حائل.

وإذا كانت قصيدة ابن الطيب تبدو في مجملها قصيدة جاهلية معنى وأسلوباً ولغة، فإن مقطوعات أخرى من شعره تصلح أن تكون أنموذجاً حياً لشعر صدر الإسلام. منها واحدة قالها في أواخر أيامه، يُوصي فيها أبناءه بتقوى الله وبرّ الوالدين، والحذر من النمام المناق الذي يبث الضغائن والأحقاد يقول:

أُبْنِيَّ إِنِّي قَدْ كَبَرْتُ وَرَابَسْنِي بَصْرِي وَفِيَّ لِمَصْلَحٍ مَسْتَمْتَعُ
أَوْصِيكُمْ بِتَقَى الْإِلَهِ فَإِنَّهُ يُعْطِي الرِّغَائِبَ مِنْ يَشَاءِ وَيَمْنَعُ
وَبِرِّ وَالِدِكُمْ وَطَاعَةَ أَمْرِهِ إِنَّ الْأَبْرَ مِنْ الْبَنِينَ الْأَطْوَعُ
وَدَعُوا الضُّغَيْنَةَ لَا تَكُنْ مِنْ شَأْنِكُمْ إِنَّ الضُّغَائِنَ لِلْقِرَابَةِ تَوْضَعُ
وَاعْصُوا الَّذِي يُزْجِي النَّمَائِمَ بَيْنَكُمْ مُتَّصِحاً ذَاكَ السَّهَامُ الْمَنْقَعُ (١)

ويلمح الدارس لأبيات الشاعر العلاقة الوطيدة بينها وبين آي الذكر الحكيم، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ (٢) والآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ (٣)، وما جاء في الذكر الحكيم: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيماً وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيراً﴾ (٤). وقوله تعالى: ﴿وَبِرّاً بِالَّذِينَ حَلَلْتَ لَهُمْ يَكُنْ جِبَاراً عَصِيّاً﴾ (٥). وتأثر بالآية الكريمة: ﴿وَلَا تَطْعَمِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى

(١) راجع: الضبي (المفضل بن محمد)، المفضليات، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٦١.

(٢) الطلاق: ٤.

(٣) الطلاق: ٥.

(٤) الإسراء: ٢٣ - ٢٤.

(٥) مريم: ١٤.

الله (١). لذلك يمكن القول أن امرأ ما ليعجز عن سبك وصيته بمثل هذه الدقة، لو لم يتمثل الإسلام تمثلاً معقولاً. وهذا ما يجعل هذا النوع من الشعر ممثلاً للحلقة المفقودة بين الشعر الجاهلي والإسلامي.

(ج) النابغة الجعدي:

يعتبر النابغة الجعدي من المعمرين، فلقد اتفق المؤرخون أنه تجاوز المائة، في حين ذهب بعضهم أنه عاش مائة وثمانين سنة أو مائتين وعشرين. ويستدل أصحاب الرأي القائل بالمائتين وما يزيد، بقول النابغة:

تذكرت والذكرى تهيجُ لذي الهوى ومن حاجة المحزون أن يتذكرا
نداماي عند المنذر بن مُحَرِّقِ أرى اليومَ منهم ظَاهِرَ الأرضِ مُقْفرا (٢)
أولئك أخذاني قَضَوْا لسبيلهم وأصبحتُ أرجو بعدهم أن أعمرا (٣)
كما يستدلون بقوله:

قالت أمانةُ كم عمّرتَ زمانةً ودَبَّحَتْ من عِثْرِ على الأوثانِ
ولقد شهدتُ عكاظَ قبل محلِّها فيها وكنتُ أَعِدُّ من الفتیانِ
والمنذر بن محرقٍ في ملكه وشهدتُ يومَ هجائنِ النعمانِ
وعُمِرتُ حتى جاء أحمدُ بالهَدْيِ وقوارعٍ تُتلى من الفرقانِ
ولبستُ مِ الإسلامِ ثوباً واسعاً من سيبِ لا حَرِمٍ ولا منانِ (٤)

ويستدل أصحاب الرأي القائل دون المائتين بقول النابغة الجعدي:

لبستُ أناساً فأقنيتُهُم وأقنيتُ بعدَ أناسٍ أناساً

(١) الأحزاب: ٤٨.

(٢) الجعدي (النابغة) الديوان: منشورات المكتب الإسلامي، دمشق ١٩٦٤، ص ٦١.

(٣) الجعدي (النابغة). الديوان: ص ٣٨.

(٤) الجعدي (النابغة). الديوان: ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

ثَلَاثَةَ أَهْلِينَ أَفْنَيْتُهُمْ وَكَانَ الْإِلَهُ هُوَ الْمُسْتَأَسَا (١)

كما يستدلون بقوله:

فَمَنْ يَكُ سَائِلاً عَنِّي فَأِنِّي مِنْ الْفِتْيَانِ فِي عَامِ الْخُتَانِ
مَضَتْ مِثْلَهُ لِعَامٍ وَلِدْتُ فِيهِ وَعِشْرُ بَعْدَ ذَلِكَ وَجِجَتَانِ (٢)

وإذا كان مولد النابغة تحدر في التاريخ الجاهلي، فإنه استمر طويلاً بعد الإسلام، فيذكر أبو الفرج الأصفهاني أن النابغة قَدِمَ على عبد الله بن الزبير وقد دعا لنفسه، وعبد الله هذا بُويع بالخلافة سنة ٦٤ هـ عقب موت يزيد بن معاوية.

وكما اختلف الرواة في تحديد عمر النابغة، فكذلك اختلفوا في تحديد إسمه. هل هو قيس بن عبد الله، أم حبان بن قيس بن عبد الله، أم غير ذلك. لكنهم اتفقوا على أن كنيته «أبو ليلي» رغم أنهم لم يشيروا إلى سبب هذه الكنية. وأما سبب لَقْبِهِ بالنابغة فلربما لأنه قال الشعر في الجاهلية ثم تركه دهرأ، ثم عاد إليه بعد أن أسلم فقليل: نبيغ (٣).

وفي وقفة سريعة مع شعر النابغة الجعدي، نجد أنه شمل أغراض الشعر جميعاً، فقال يفتخر بقومه يوم وفد على الرسول الكريم في السنة التاسعة للهجرة:

وَنَحْنُ أَنْاسٌ لَا نَعُوذُ خَيْلِنَا إِذَا مَا التَّقِينَا أَنْ تَحِيدَ وَتَنْفِرَا
وَمَا كَانَ مَعْرُوفاً لَنَا أَنْ نَرُدَّهَا صِحَاحاً وَلَا مُسْتَنْكَراً أَنْ تُعْقِرَا

(١) الجعدي (النابغة) الديوان: ص ٧٧ - ٧٨. أنشد النابغة هذه الأبيات أمام عمر بن الخطاب فقال له عمر، كم لبثت مع كل أهل؟ أجاب: ستين سنة.

(٢) الجعدي (النابغة) الديوان: ص ١٦٠ - ١٦١.

(٣) راجع شعر النابغة الجعدي ص: ح، ط.

شربتُ بها والديكُ يدعو صباحه إذا ما بنو نعشٍ ذنوا فتصوبوا
وبيضاء مثل الرثم لو شئتُ قد صبتُ إليّ وفيها للمحاضر ملعباً^(١)

وقد يعجب الدارس لشعر صدر الإسلام من وجود شعر ينسب إلى العديد من شعراء المسلمين، ويُعنى بوصف الخمرة ومعاقرتها، وتصوير أثرها في النفوس والأجساد. وهنا نُسارع إلى القول أنّ مثل تلك الأبيات أو المقطوعات والقصائد إمّا أنّ أصحابها نظموا القسم المتعلق منها بالخمرة والغزل في الجاهلية، ثم أتمّوا القسم الآخر بعد إسلامهم، وإمّا أنّ تلك الأبيات والمقطوعات حُمِلتْ عليهم ونحلت كما نُحل كثير من الشعر الجاهلي، وإمّا أنّ المسلمين كانوا يتغاضون أو يتساهلون مع الشعراء الذين يصفون الخمرة ومجالسها، وأثرها في النفوس كوسيلة من وسائل التقليد ومجارة فحول شعراء الجاهلية. ولكن إذا تعدّى الوصف إلى الممارسة والفعل فهناك الحدّ والقصاص.

ونحن لا نبغي تتبّع شعر الفخر والسياسة والخمرة عند النابغة الجعدي، بل نكتفي بالإشارة إلى تلك الأغراض لذلك أنه لم يترك غرضاً من أغراض الشعر إلّا وطرقه، كما أننا لا ندّعي الإحاطة بشعره المتأثر بالإسلام، رغم أنّ وقفنا معه ستطول نسبياً. فمن الثابت أنّ النابغة كان أحد الشعراء الذين استضاءوا بالإسلام وتعاليمه الروحية وقيمه. خرج يجاهد في سبيل الله وهو يتلو القرآن آتاء الليل وأطراف النهار يقول:

لوى الله عِلْمَ الغيبِ عَمَّن سِوَاهُ وَيَعْلَمُ مِنْهُ مَا مَضَى وَتَأَخَّرَا^(٢)

(١) الجعدي (النابغة) الديوان: ص ٤. وصهباء: أي وربّ صهباء وهي الخمر. التصفيق: تحويل الشراب من إناء إلى آخر ممزوجاً ليصفو. الراوق: وعاء الشراب الذي يروق به فيصفي. بنو نعش: أي بنات نعش وهي الكواكب السبعة. تصوبوا: ساعة الأفق. وبيضاء: أي ورب بيضاء وهي المرأة. الرثم: الطبي الخالص البياض.

(٢) الجعدي (النابغة) الديوان: ص ٣٥.

ومعنى البيت متأثر بالآية الكريمة: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (١) ومتأثر أيضاً بالآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ (٢) ومتأثر كذلك بقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٣) ويقول النابغة في قصيدة أخرى:

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتاباً كالمجرة نيرا
 بلغنا السما مجداً وجوداً وسودداً وأنا لنبغي فوق ذلك مظهرا
 ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادئ تحمي صفوه ان يكذرا
 ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصرا (٤)

وغني عن البيان أن أحداً لا يستطيع مثل هذا القول، إذا لم يكن متمثلاً بتعاليم الإسلام وقيمه تمثلاً حقيقياً. فنفس النابغة هنا كالمصهر تلتقط العناصر من «الكل» الإسلامي، فتخرجه شعراً سلساً ينضح بالتعاليم الإسلامية. وفي هذا الإطار يأتي قول كعب:

حتى أتى أحمدَ الفرقانَ يقرؤه فينا وكُنَّا بغيب الأمر جهالاً
 فالحمدُ لله إذ لم يأتني أجلي حتى لبستُ من الإسلام سربالاً (٥)

فكلمة الفرقان وهي إسم من أسماء القرآن الكريم مأخوذة من آيات كثيرة وردت فيها لفظة الفرقان (٦). كما أن المعنى العام للأبيات متأثر بالتأكيد بقيم الإسلام وتعاليمه.

(١) الأنعام: ٥٩.

(٢) آل عمران: ١٧٩.

(٣) الجن: ٢٦.

(٤) الجعدي (النابغة) الديوان: ص ٧٣.

(٥) الجعدي (النابغة) الديوان: ص ١٠١.

(٦) البقرة: ٥٣ و ١٨٥ وآل عمران: ٤.

ولعل أفضل قصائد النابغة الجعدي المتأثرة بالإسلام وقيمه تلك التي يقول فيها:

الحمْدُ لله لا شريك له متن لم يقلها فنفسه ظلما
المولج الليل في النهار و في الليل نهارة يفرج الظلما
الخافض الرافع السماء على الـ أرض ولم يبين تحتها دعما
الخالق الباريء المصور في الـ أرحام ماء حتى يصير دما
من نطفة قدما مقديرها يخلق منها الأبخار والنمسا
ثم عظاماً أقامها عصب ثمت لحمأ كسأه فالتأما
ثم كسا الريش والعقائق أبشاراً وجلداً تخاله أدما
والصوت واللون والمعاش والأخلاق شتى وفرق الكلما (١)

وفي قراءة جديدة لهذه الأبيات نجد أن ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه تزدهم فيها إزدحاماً كثيفاً متراصاً، مما يجعل من المستحيل على شاعر مجاراته في أسلوبه ونظمه ووصفه وتمثله وصهره لتلك الألفاظ والمعاني والقيم. ففي كل لفظة من ألفاظ الشاعر وفي كل معنى من معانيه، وفي كل صورة من صورته وبيت من أبياته، وفي الأبيات جميعاً تحس إحساساً يقينياً صدق الشاعر وعمق إيمانه، واستيعابه العميق الواعي لمجمل القرآن الكريم.

فالشاعر يحمد الله الذي لا شريك له فهو متأثر بسورة الحمد، كما أنه استقى قوله: من لم يقلها فنفسه ظلما من الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٢). ثم يتحدث عن نظام الكون المنبىء عن قدرة الله وجليل صنعه وتقديره على نظام بديع، متأثراً كل التأثر

(١) الجعدي (النابغة) الديوان: ص ١٣٢-١٣٣.

(٢) يونس: ٤٤.

بالآية الكريمة: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِنْ مَنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلِّعُ مَنْ تَشَاءُ وَيُبَدِّلُ الْخَيْرُ لَكُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ (١). كما أنه متأثر دون أدنى ريب بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ (٢)، بالإضافة إلى أنه متمثل لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَبَسْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (٣).

وفي رحلتنا مع شعر النابغة الجعدي الإسلامي نجدته يقول:

يا ابنة عمي كتابُ الله أخرجني طوعاً وهسل أمتعنَّ الله ما فعلا
فإن رجعتُ فربُّ الناسِ يُرجعني وإن لحقتُ بربي فابتغي بدلا
ما كنتُ أعرجُ أو أعمى فيعذرنِي أو ضارِعاً من ضنِّي لم يستطع حولا (٤)

نتوقف مع هذه الأبيات أمام ظاهرتين: الأولى تأثره بالقرآن الكريم، فالجهاد في سبيل الإسلام واجب على المسلمين، انطلاقاً من آيات كثيرة وردت في هذا الخصوص منها: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ (٥) ومنها أيضاً: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ (٦) ومعنى: أخرجني طوعاً متأثر بالآية الكريمة: ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن

(١) آل عمران: ٢٦ وما بعدها.

(٢) الرعد: ٢.

(٣) المؤمنون: ١٢ - ١٤.

(٤) الجعدي (النابغة) الديوان: ص ١٩٤.

(٥) البقرة: ٢١٨.

(٦) الحج: ٧٨.

العالمين ﴿١﴾ . كما أن تلك الأبيات متأثرة بلا ريب بقوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ﴾^(٢) . وأما الظاهرة الثانية فهي ظاهرة الجهاد في سبيل الله ، فبعد أن وطّد الإسلام أركانه في الجزيرة ، امتدّ إلى الشام ومصر وإيران ، وصاحَب ذلك الامتداد حروب ومعارك بطولية ، صاحبها كثير من شعر الفتوحات . لكن بعض الشيوخ والنساء كانوا يحسون المأ عميقاً لفراق ذويهم ، فبكاهم بعضهم بكاءً مرّاً كما فعل أمية بن حرثان بن الأسكر حين هاجر ابنه كلاب إلى حرب الفرس فأنشد يقول :

لمن شيخان قد نشداً كلاباً كتابُ الله إن حَفِظَ الكِتَابَا
إذا هتفت حمامة بطن وَجَّ على بيضاتها ذَكَرَا كِلَابَا
تركت أباك مُرْعَشَةً يداهُ وأمك ما تسيغُ لها شرابَا

لكن بعض المستشرقين ومن تبعهم من الدارسين وجدوا في هذه الظاهرة نوعاً من الرّدة المستترة ، ورأوا أن الفتوح الإسلامية لم تكن ابتغاء الثواب والتقرب من الله ، وحباً بنشر تعاليم الإسلام إلى أصقاع بعيدة ، بل طمعاً في الغنائم وخيرات البلاد المفتوحة ، فجاء ردّ النابغة الجعدي مَقْطَعٌ فَصْلٌ يؤكد أن الجهاد ، لم يكن إلا جهاداً في سبيل الله ليس غير . فالشعراء المجاهدون في سبيل الله بألسنتهم وأستهم لا ييغون مغايم الدنيا وخيراتها ، بل يرجون الفوز بمرضاة الله والثواب وهم متأثرون بقوله تعالى : ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وقال تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَن

(١) العنكبوت : ٦ .

(٢) النور : ٦١ ، والفتح : ١٧ .

(٣) نقلاً عن : ضيف (شوقي) . العصر الإسلامي ، دار المعارف مصر ، لا تاريخ ص ٥٧ .

(٤) النساء : ٧٤ .

تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم والله يعلمُ وأنتم لا تعلمون ﴿١﴾ . فالشاعر استلهم ذلك كله وهو يردُّ على ابنة عمِّه التي تلومه على خروجه إلى الجهاد في سبيل الله، فيقول:

يا ابنة عمِّي كتابُ الله أخرجني طوعاً وهل أمنَعَن الله ما فعلا
فإن رجعتُ فربُّ البيت يُرجِعُني وإن لحقتُ برِّي فابتغني بدلاً
كما يستمدُّ من الآية الكريمة: ﴿ليس على الأعمى حرجٌ ولا على الأعرج حرجٌ﴾ (٢) قوله:

ما كنت أعرجٌ أو أعمى فيعذرُني أو ضارِعاً من ضنِّي لم يستطع جِولاً (٣)
وفي نظرة سريعة إلى شعر النابغة الجعدي من زاوية رؤيوية جديدة، نجد أن شعره أخذ بعض مفرداته من القرآن الكريم، فيقول:

الحمدُ لله لا شريكَ له من لم يقلها فنفسه ظلماً (٤)
فالشاعر اقتبس بعض ألفاظه من سورة الفاتحة، ويقول أيضاً:

فائتمروا الآن ما بدا لكم واعتصموا إن وجدتم عُصماً (٥)
فقد استقى بعض مفرداته من قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا﴾ (٦) .

(١) البقرة: ٢١٦ .

(٢) النور: ٦١ .

(٣) الجعدي (النابغة) الديوان: ص ١٩٤ .

(٤) الجعدي (النابغة) الديوان: ص ١٣٢ .

(٥) الجعدي (النابغة) الديوان: ص ١٣٤ .

(٦) آل عمران: ١٠٣ .

كما نجد أن الشاعر تأثر بمعنى السور القرآنية يقول:

وأكنى بغير اسمها وقد علم الله خفيات كلِّ مُكْتَمٍ (١)

فالشاعر استلهم معنى هذا البيت من الآية الكريمة: ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ (٢). وبالإضافة إلى ذلك فإن النابغة الجعدي استلهم بعض أقايصه من القرآن الكريم، يقول:

أو سبأ الحاضرين مأربُ إذ بينون من دون سيله العرما (٣)

فقصة سبأ وردت في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمطٍ وأثلٍ وشيءٍ من سدرٍ قليل﴾ (٤).

كما استلهم من القرآن الكريم قصة نوح وابنه، قال تعالى: ﴿ونادى نوحُ ابنه وكان في معزلٍ يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال ساوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رجم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ (٥). فأخذ الجعدي هذه القصة وقال:

في هذه الأرضِ والسماءِ ولا عصمةٌ إلا لمن رحما (٦)

(١) نقلًا عن: الدارجي (محمد عباس) الإشعاع القرآني في الشعر العربي، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، بيروت ١٩٨٧، ص ١٠٥.

(٢) إبراهيم: ٣٨.

(٣) الجعدي (النابغة) الديوان: ص ١٣٤.

(٤) سبأ: ١٥ - ١٦.

(٥) هود: ٤٢.

(٦) الجعدي (النابغة) الديوان: ص ١٣٤.

وهكذا فإن النابغة الجعدي عاش عمراً مديداً، كان في الجاهلية شاعراً مجيداً ينهج نهج الفحول أسلوباً وأغراضاً، وبعد إسلامه وهب نفسه للإسلام، وأخذ يتلو القرآن الكريم آناء الليل وأطراف النهار، يستقي منه معاني شعره التي جاءت متمثلة لقيم الإسلام وتعاليمه تمثلاً واعياً عميقاً، بالإضافة إلى أنه استعار كثيراً من ألفاظه وصوره البيانية، فبلغ بها حداً لا يجارى. كما أنه استمد من قصصه كثيراً من مادته الشعرية، فجاء شعره معبراً عن شعر تلك المرحلة تعبيراً صادقاً.

(د) لبيد بن ربيعة العامري :

يُعتبر لبيد من أصحاب المعلقات ومطلع معلقته :

عَفَّتِ الدِّيَارُ مَحَلَّهَا فَمَقَامُهَا بِمَنَى تَأْبُدُ غَوْلُهَا فَرِجَانُهَا (١)

وهو من عشيرة ذات سيادة وشرفٍ من بني كلاب العامريين، لذلك لم يخرج شعره الجاهلي عن إطار الفخر بأجداده وآبائه، والاعتداد إعتداداً لا حد له بالأقربين من أسرته. فمعلقته بدأها بذكر الديار والأحبة، ثم مضى يصف إقتحامه للصحراء على ناقته التي يشبها بالأتان الوحشية، مسترسلاً في الحديث عنها، وعن حمار وحشي كان يصاحبها ويلعبها، فيشبهها ببقرة وحشية مذعورة لفقد صغيرها، ثم يصف تعقب الرماة لها وإرسالهم جوارح الكلاب لاصطيادها، حتى يصل إلى الفخر بكرمه وبسالته وقومه وكثرة ساداتهم، فيقول:

إِنَّا إِذَا التَقْنَا المَجَامِعَ لَمْ يَزَلْ مِنَّا لِرِزَاؤِ عَظِيمَةٍ جَشَامُهَا (٢)

(١) ابن ربيعة (لبيد)، شرح الديوان، حققه إحسان عباس، سلسلة التراث العربي رقم ٨، الكويت ١٩٦٢، ص ٢٩٧. محلها ومقامها: بدل من الديار: وهما مكان الحلول والإقامة. منى ورجام: ما ارتفع من الأرض. غولها: ما انهبط من الأرض.

(٢) اللزاز: الذي يلزم الشيء الجشام: المتكلف للأمر.

وَمُقَسَّمٌ يُعْطِي الْعَشِيرَةَ حَقَّهَا وَمُعْذِرٌ لِحُقُوقِهَا هَضَامُهَا (١)
 مِنْ مَعَشِرٍ سُنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا (٢)
 فَبِنَا لَنَا بَيْتاً رَفِيعاً سَمَكُهُ فَسَمَا إِلَيْهِ كَهْلُهَا وَعُغْلَامُهَا (٣)
 فَاقْتَعِ بِمَا قَسَمَ الْمَلِيكُ فَإِنَّمَا قَسَمَ الْخَلَائِقَ بَيْنَنَا عِلَامُهَا (٤)

فشعره الجاهلي يتميز بالإغراب الشديد في لفظه، حتى ليحس القارئ
 بضجرٍ لكثرة ما يُورد من أوابد الألفاظ وحوشيتها وغريبها.

وبعد إسلام لبید إمتنع عن نظم الشعر، وتذكر الروايات في هذا المجال
 أنّ عمر بن الخطاب أرسل إلى واليه على الكوفة المغيرة بن شعبة: أن استنشد
 شعراء مضرٍ ما قالوا في الإسلام، ولما سأل لبیداً عن شعره إنطلق فكتب سورة
 البقرة في صحيفة: ثم أتاه بها وقال: أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر.
 ويمضي الرواة فيزعمون أنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً لكنهم اختلفوا
 فيه، فمن قائل أنه:

الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجْلِي حَتَّى كَسَانِي مِنَ الْإِسْلَامِ سِرْبَالاً (٥)
 ومن قائل أنه:

مَا عَاتَبَ الْمَرْءَ الْكَرِيمَ كَنْفَسَهُ وَالْمَرْءُ يُصْلِحُهُ الْجَلِيسُ الصَّالِحُ (٦)

(١) المغذمر: الذي يضرب بعض حقوق الناس ببعض فيأخذ من هذا ويعطي ذاك، أو هو
 الذي لا يعطي ولا يرد. الهضام: الذي يعطي قوماً ويحرم آخر بتدبير.

(٢) لكل هؤلاء الذين عدتهم: لزاز العظيمة الجشام والمقسم والمغذمر وذو الكرم هم من
 معشر سنت لهم آباؤهم سنة تحتدى.

(٣) السمك: الإرتفاع، والبيت تمثيل يكن به عن الشرف.

(٤) راجع شرح ديوان لبید بن ربيعة، ص ٣٤٩ - ٣٢١.

(٥) ابن ربيعة (لبید)، شرح الديوان: ص ٣٥٨.

(٦) ابن ربيعة (لبید)، شرح الديوان: ص ٣٤٩.

ولكن المتمعن في ما نسب إلى لبيد من شعر يجد فيه إشعاعاً قرآنياً لا يمكن لامرئٍ الإتيان بمثله إلا إذا كان متعمقاً في معاني القرآن، ومتمثلاً للإسلام إلى حدٍ بعيدٍ. فقراءة لبيد للقرآن الكريم هذبت لفظه، وأعطته طلاوة ورواقاً وظلالاً إسلامية ماثلة في تضاعيف أبياته يقول:

بكيننا وما تبكي النجومُ الطوالعُ وتبقي الجبالُ بَعْدَنَا والمصانعُ
فلا جزعُ إن فرَّقَ الدهرُ بيننا وكلُّ فتى يوماً به الدهرُ فاجعُ
وما الناسُ إلا كالذيَّارِ وأهلها بها يومٌ حلُّوها، وَعَدُوا بَلَاغِعُ
وما المرءُ إلا كالشهابِ وُضُوئِهِ يحورُ رماداً بَعْدَ إذ هو سَاطِعُ
وما البرُّ إلا مُضْمَرَاتُ من التقي وما المالُ إلا عارياتُ ودائعُ (١)

وفي قراءة متمعنة لهذه الأبيات نجد أنها متأثرة لفظاً ومعنى بالقرآن الكريم، فالإنسان يبلى ويفنى، وتبقى الجبال إلى أمدٍ معلومٍ قال تعالى: ﴿ألم نجعل الأرضَ مهاداً، والجبالَ أوتاداً﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿والجبالُ أرساهم متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ (٣) ثم إن الطبيعة يبشرها وحجرها والكون جميعاً يُصبح رماداً برماذٍ قال تعالى: ﴿كلُّ من عليها فانٍ ويبقى وجهُ ربِّك ذو الجلال والإكرام﴾ (٤) ثم بعد أن يفنى كل شيء لا يبقى سرمدياً إلا العمل الصالح قال تعالى: ﴿يوم لا ينفع مالٌ ولا بنونٌ إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ (٥) وبالإضافة إلى ذلك فإن لبيداً لم يقتصر على إستبدال ألفاظه الحوشية في الجاهلية، بأخرى سلسلة طليّة في الإسلام، بل تغلغل الإسلام في ضميره وفي وعيه ولا وعيه،

(١) ابن ربيعة (لبيد)، شرح الديوان: ص ١٦٨. المصانع: الأبنية الضخمة، بلاقع: جمع بلقع وهو الأرض القفر. يحور: يصبح.

(٢) النبأ: ٦ - ٧.

(٣) النازعات: ٣٢ - ٣٣.

(٤) الرحمن: ٢٦ - ٢٧.

(٥) الشعراء: ٨٨ - ٨٩.

فاتَّجِه في أشعاره إلى ربِّه منيباً إليه، والوجل يملأ نفسه من يوم الحساب يقول:

إِنَّمَا يَحْفَظُ التُّقَى الْأَبْرَارُ وَإِلَى اللَّهِ يَسْتَقِرُّ الْقَرَارُ
وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُونَ وَعِنْدَ اللَّهِ بِهِ وَرُدُّ الْأُمُورِ وَالْأَصْدَارُ
كُلُّ شَيْءٍ أَحْصَى كِتَاباً وَعِلْماً وَلَدَيْهِ تَجَلَّتْ الْأَسْرَارُ
إِنْ يَكُنْ فِي الْحَيَاةِ خَيْرٌ فَقَدْ أَنْ ظَرْتُ لَوْلَمْ يَنْفَعِ الْإِنْظَارُ
عَشْتُ دَهْرًا وَلَا يَدُومُ عَلَى الْآيَةِ سَامٌ إِلَّا يَرْمَرَمُ وَتَعَارُ (١)

ففي هذه الآيات يتحدث عن التقوى والبر والعمل الصالح، وإن الناس معروضون على الله يوم القيامة، وقد أحصى كل شيء في كتاب وأن الموت حق لا شك فيه، وعلى الإنسان أن يفكر في آخرته الباقية، وهذه المعاني جميعاً وردت في غير آية في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ (٤).

وفي مجال آخر يؤكد لييد أن الموت سيظال الجميع فيقول:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ

(١) ابن ربيعة (لييد)، الديوان: ص ٤٣، الانظار: التأخير. يرمرم وتعار: جبلان في نجد.

(٢) النمل: ٧٥.

(٣) سبأ: ٢-٣.

(٤) الحديد: ٢٢.

وكلُّ أناسٍ سوف تدخل بينهم دُوَيْهَةٌ تصفرُّ منها الأناملُ (١)

ويرى الدارس لشعر لبيد أنَّ الشاعر يستمدُّ ألفاظه ومعانيه من القرآن الكريم ولا سيما قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٢)، كما أنه متأثر بالآية الكريمة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٣) ويقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ (٤) ويقول لبيد في مجال آخر:

لله نافلةُ الأجلِ الأفضلِ وله العُلَى وأتيتُ كلَّ مُؤنِّلِ
لا يستطيعُ النَّاسُ مَحْوَ كتابه أنى وليسَ قضاؤه بمُبدِّلِ (٥)

فهو يستلهم الذكر الحكيم، وما فيه من أوصاف الذات العلية، وإن كل ما يجري في الكون بقضائه، وإن كل ما يأتي من عمل فهو في كتاب مبین، وأن كلاً سيُجزى بما سجّل عليه كتابه، قال تعالى: ﴿وكلُّ شيءٍ أحصيناه كتاباً﴾ (٦) وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مُقْدُورًا﴾ (٧) وقال تعالى: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨) وهكذا فإن تلاوة القرآن ملكت على لبيد نفسه ومشاعره، فتعمق الإسلام في وعيه، فاستشعر معانيه ومواعظه، فأحالتها أبياتاً وأشعاراً بل قصائد دينية تنضحُ بعمق تمثل لبيد للإسلام يقول:

إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرٌ نَقَلَ وبإذن الله رَيْثِي وَعَجَلُ

(١) ابن ربيعة (لبيد)، الديوان: ص ٢٥٦.

(٢) الرحمن: ٢٦ - ٢٧.

(٣) آل عمران: ١٨٥.

(٤) الحجرات: ١٠.

(٥) ابن ربيعة (لبيد)، الديوان: ص ٢٧١.

(٦) النبأ: ٢٩.

(٧) الأحزاب: ٣٨.

(٨) غافر: ٦٨.

أحمدُ الله فلا نِدُّ له بيدَيه الخيرُ ما شاءَ فعَلُ
من هداهُ سُبُلَ الخيرِ اهتدى ناعِمَ البالِ وَمَنْ شاءَ أضلَّ
واكذبَ النفسَ إذا حدَّثتها إنَّ صدقَ النفسِ يُزري بالأمَلِ
غيرَ أنْ لا تكذِبَها في التُّقى وأخزها بالبرِّ الله الأجلُ (١)

فلولم يكن ليبد قد قرأ قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ (٢)، والآية الكريمة: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً﴾ (٣). وقوله تعالى: ﴿ومن يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ (٤) لو لم يكن ليبد متأثراً بالقرآن الكريم لما استطاع تمثّل تلك المعاني والأفكار في شعره. ولولم يكن متعمقاً في معنى الآية الكريمة: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ (٥) لما استطاع أن يقول:

وكلُّ امرئٍ يوماً سيعلمُ سعيه إذا كُشِفَتْ عند الإله المَحاصِلُ (٦)
ولو لم يكن متمعناً بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارةٍ تُنجيكم من عذابٍ أليمٍ﴾ (٧) لما استطاع خياله أن يتوهج ويبدع:
رأيتُ التُّقى والحمدَ خيرَ تجارةٍ رباحاً إذا ما المرءُ أصبحَ ثاقبلاً (٨)
وبالإضافة إلى ذلك فإن ليبدأ استعار بعض صور القرآن وأخصها: ﴿يومَ

(١) ابن ربيعة (ليبد)، الديوان: ١٧٤ - ١٨٠. النفل: العطية. أخزها: أقرها.

(٢) الشورى: ١١.

(٣) الإنسان: ٣٠.

(٤) الأعراف: ١٧٨.

(٥) العاديات: ١٠.

(٦) ابن ربيعة (ليبد)، الديوان: ص ٢٥٧.

(٧) الصف: ١٠.

(٨) ابن ربيعة (ليبد)، الديوان: ٢٤٦.

تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴿١﴾، وذلك حين وفد على الرسول
وخاطبه قائلاً:

أَتَيْنَاكَ يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا لَتَرْحَمَنَا مِمَّا لَقِينَا مِنَ الْأَزْلِ
أَتَيْنَاكَ وَالْعِذْرَاءُ يَدْمَى لُبَانِهَا وَقَدْ ذَهَلَتْ أُمُّ الصَّبِيِّ عَنِ الطِّفْلِ
وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا إِلَيْكَ فَرَارُنَا وَأَيْنَ يَقْرَأُ النَّاسُ إِلَّا إِلَى الرَّسْلِ ﴿٢﴾

وسواء أكفَّ لبيد عن قول الشعر بعد إسلامه كما يزعم بعض الرواة، أم
ترك مقطوعات شعرية تصوّر عمق تمثله تعاليم الإسلام وقيمه، فإنما هوفي
الحاليتين يدل على إيمان صادق، وتعلّق وثيق بالرسول والدين الحنيف، وإن كنا
نرى أنّ الشاعر الذي شارك في نصرته الإسلام، ودفع الشرك والوثنية بيانه
وبلاغته إلى جانب سنانه، لهو أرفع درجة ممّن ترك القول تخوفاً من الإثم وأتباع
الغبي . وعلى آية حال، فإن ما أثر له من مقطوعات شعرية قالها بعد إسلامه، تدل على
أنه مُفْرَق في شاعريته، بحجم عود الشعر وخبره، وملك ناحية القول، فأخذ من
الأسلوب الجاهلي فخامته وجرسه البدوي، ومن المعاني الإسلامية عمقها
وقيمها التي لا تبلى على الدهر، فأضحى أسلوبه نموذجاً حياً للحلقة التي تربط
الشاعر الجاهلي بالشعر الأموي .

(هـ) كعب بن زهير :

تكاد تكون مدرسة أوس بن حجر بديهة معرفيّة بين دارسي الأدب
العربي . تلك المدرسة التي وضع لبنتها الأساسية أوس، وبلغت قمة النضج مع
زهير بن أبي سلمى، حتى كادت تُنسب إليه وتقترن به . اشتهرت تلك المدرسة
بأنها مصنع الشعراء، إذا صح القول بأنّ للشعر مصنعاً . فشيخها زهير كان ما أن
يلمح موهبة أو نبوغاً حتى يتعهدا بالعناية والصقل، ويخضعها لنمط خاص من

(١) الحج : ٢ .

(٢) ابن ربيعة (لبيد)، الديوان : ٢٧٧ . الأزل : ضيق العيش .

الدربة والمِمران، ولم يكن يسمح لتلامذته، بإذاعة شعرهم في الآفاق، إلا بعد التأكد من أن الزُغب تصلَّب، وأضحى قادراً على مقاومة الأعاصير. وكأني بزهير كان يُدرك تماماً أهمية الكلمة، ويعرف أن النظم يتطلب إرهاصاً وتعملاً كي لا أقول وحيّاً. كان يعي أن لا ترادف في العربية، وأن لكل لفظة معنى خاصاً، لا يمكن أن يكون لغيرها، مهما تقاربت المعاني وتمائلت. فكما أن الفرد منا يمتاز بخصائص مفردة ظاهرة ومستترة، مما يستحيل معها التماثل التام، فكذلك شأن الكلمة المفردة، فابن زهير لم يكن ليذيع شعره إلا بعد مُدارسة وتصحيح وتنقيح، وحين يطمئن أن لا كلمة قلقة في موضعها، كان يذيع شعره في الآفاق دون خوف من نقد أو انتقاد، ولذلك سُمي شعره الحوليّ المُحكَّك.

وكان لمدرسة زهير تلامذتها ومؤيدوها كولديه كعب وبُجَيْر بالإضافة إلى الحُطيئة. ويبدو أن كعباً كان في الجاهلية أكثر شهرة شعرية من بُجَيْر والحُطيئة. قال له الحطيئة ذات يوم: قد علمت روايتي لكم أهل البيت، وانقطاعي إليكم، وقد ذهبت الفحول غيري وغيرك، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً بعدك، فإنَّ الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع^(١)، فأنشد كعب قصيدته ذات المطلع:

أَلَا بَكَرَتْ عِرْسِي تَلُومُ وَتَعَزُّوْ
وَعَيْرُ الَّذِي قَالَتْ أَعْفُ وَأَجْمَلُ
إلى أن يقول:

فَمَنْ لِلْقَوَافِي شَأْنَهَا مَنْ يَحْوِكُهَا إِذَا مَا ثَوَى كَعْبٌ وَفَوَزَ جَرَوَلُ^(٢)

(١) ابن سلام الجمحي، (محمد) طبقات فحول الشعراء، ص ٨٧، والأصفهاني (أبو الفرج) الأغاني، مصورة عن طبعة بولاق، دار الفكر للجميع، بيروت ١٩٧٠، ص ٢٠٢، ص ١٦٥.

(٢) ابن زهير (كعب) الديوان، حققه علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧، ص ٦٨.

وهذا الخبر كما جاء في طبقات فحول الشعراء، يدل على أمرين: الأول إنَّ عهد الفحول قد انقضى قبيل الإسلام، وما قيل من أن الشعر خَبَتَ وَلَانَ مع الإسلام فيه شيء من المبالغة، والثاني يدل على مكانة كعب الشعرية في الجاهلية.

وبعد الهجرة تدارس كعب وأخوه بُجَيْر أخبار الإسلام، فاستقر رأيهما أن يَفِدَ بُجَيْر إلى الرسول ويرى شأنه وسرعان ما فتح الله قلبه للإسلام فأسلم. لكن كعباً هاله إسلام أخيه فأرسل إليه يهجوهُ:

ألا أبلغا عني بُجَيْراً رسالةً فهل لك فيما قُلْتَ - ويحك - هل لكا
شَرِبْتَ مع المأمون كأساً رويّةً فأنهلك المأمونُ منها وعلكا
وخالفت أسباب الهدى وتبعته على أي شيء - وب غيرك - دامكا
على خُلُقٍ لم تَلْفِ أماً ولا أباً عليه ولم تُدرك عليه أخاً لكا(١)

ولقد تأذى الرسول الكريم من هجاء كعب لأخيه بُجَيْر، فتوعده وأهدر

دمه.

وقد يتهم متهم سوء الرسول بالتسرع حين توعد كعباً، خصوصاً أن ظاهر الأبيات لا تستدعي التوعُد وإهدار الدم، ولكن حاشا الرسول التسرع. ويبدو أن كعباً وأخاه بُجَيْراً كانا قد أضمرنا سوءاً للرسول، وليست وُقادة بجير إلى الرسول إلا لينال منه بسوء، لكنه اهتدى بهدي الإسلام واستنار بنوره، فعدل عن اتفاقه مع أخيه ودخل الإسلام.

ولكن المتمعن في أبيات كعب يجد فيها أكثر من المُعَاتبة، بل فيها حثٌ صريح على تنفيذ ما اتفقا عليه، وهذا واضح في قوله: «فهل لك فيما قلت»،

(١) ابن هشام (عبد الملك) السيرة النبوية، م ٤، ص ١٤٥.

وفي قوله: «وخالفت»، و«ويب غيرك»، و«تبعته على خلق لم تلف عليه أمأً ولا أباً»، ويبدو أن هذه المعاني هي التي حَدَّثَ بالرَّسول الكريم إلى توعُّد كعب وإهدار دمه.

ومهما يكن من أمر فإنَّ بُجَيْراً أرسل إلى أخيه رسالة يبين فيها، أن حثه على تنفيذ ما اتَّفقا عليه أصبح باطلاً، ويدعوه إلى التَّنكُّر ليلات والعزَّى، والإيمان بالله والرَّسول الكريم، فبمثل هذا الإيمان ينجو المرء من النار يوم القيامة، يقول:

مَنْ مَبْلَغُ كَعْباً فَهَلْ لَكَ فِي الَّتِي تَلُومُ عَلَيْهَا بَاطِلاً وَهِيَ أَحْزَمُ
إِلَى اللَّهِ لَا الْعُزَّى وَلَا اللَّاتِ وَحَدَهُ فَتَنْجُو إِذَا كَانَ النُّجَاءُ وَتَسَلَّمُ
لَدَى يَوْمٍ لَا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمُقْلَبٍ مِنَ النَّارِ إِلَّا طَاهِرُ الْقَلْبِ مُسْلِمٌ (١)

لكن كعباً بقي على وثنيته، وبعد الفتح ضاقت به الأرض ذرعاً، وفي هذه الأثناء كتب إليه بجير يقول: إن النبي قتل كل من أذاه من شعراء المشركين، إلا من أعلن إسلامه، ودعاه أن يقدِّم على الرَّسول تائباً. فقدم كعب إلى المدينة وبدأ بأبي بكر الذي قصد به إلى الرَّسول وهو يصلي صلاة الصبح، وكعب متلثم بعمامته. فقال الصديق: يا رسول الله هذا رجل جاء يُبايعك على الإسلام، فبسط النبي يده فبايعه، عندئذٍ حسر كعب عن وجهه وقال: هذا مقام العائذ بك يا رسول الله، أنا كعب بن زهير، فأمنه الرَّسول (٢)، فأنشده كعب قصيدته الخالدة ذات المطلع:

بِأَنْتَ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَّبُولُ مُتَمِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يَفِدْ مَكْبُولُ (٣)

(١) ابن هشام (عبد الملك) السيرة النبوية، م ٤، ص ١٤٥.

(٢) الأصفهاني (أبو الفرج) الأغاني، م ١٤، ص ١٤٢.

(٣) ابن زهير (كعب) الديوان: ص ٦٠.

ولقد أعجب بها الرسول كثيراً، وكساه بُردته فَسُمِّيت القصيدة بالبردة .

يستهل كعب قصيدته بذكر حبيبته سُعاد التي كَبَلت قلبه وأسرته، ليصف محاسنها وصفاً جاهلياً صرفاً، فيشبهها بالظبي، وريقها بالخمير، فيقول:

هَيْفَاءُ مُقْبِلَةٌ، عَجْزَاءُ مُدْبِرَةٌ لَا يُشْتَكِي قِصْرَ مِنْهَا، وَلَا طُولُ
تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي ظُلْمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالسَّرَاحِ مَعْلُولُ

ثم ينتقل إلى وصف ناقته فيقول:

ضَخْمٌ مُقْلَدُهَا، فَعَمٌ مُقَيِّدُهَا فِي خَلْقِهَا، عَنِ بَنَاتِ الْفَحْلِ، تَفْضِيلُ
غَلْبَاءُ، وَجَنَاءُ، عُلُكُومٌ مُذْكَرَةٌ فِي ذَفِّهَا سَعَةٌ، قُدَامُهَا مَيْلُ.

وبعد أربعة وأربعين بيتاً من الشعر يصل كعب إلى مدح الرسول فيقول:

فَقُلْتُ: خَلَّوْا طَرِيقِي، لَا أَبَا لَكُمْ فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ
كُلُّ ابْنِ أَتْنَى، وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلَةِ حُدَبَاءَ مَحْمُولُ
أَنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
مَهْلًا هَذَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْـ قُرْآنَ فِيهَا مَوَاعِيظُ، وَتَفْصِيلُ
لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ، فَلَمْ أَذْنِبِ، وَلَوْ كَثُرَتْ عَنِي الْأَقَاوِيلُ

وواضح أن هذا المقطع من قصيدة كعب متأثر بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا﴾^(١)، وجاء في الذكر الحكيم: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِيَشْرَ قَبْلَكَ الْخُلْدَ﴾^(٢)، كما أنه متأثر بالآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾^(٣)، ويقول تعالى: ﴿كِتَابٌ فَصَّلْتُ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا

(١) الأحزاب: ٣٨.

(٢) الأنبياء: ٣٤.

(٣) الجمعة: ٨.

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ ، وبالأية الكريمة: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ
يُعْظَمُ بِهِ﴾ (٢) . ويتابع كعب إنشاده فيقول:

إن الرسول لسيفٌ يُستضاء به مَهْنَدٌ من سيوف الله مَسْلُوكٌ
في عُصْبَةٍ من قريشٍ قال قائلهم بيطن مَكَّةَ، لما أسلموا زُولو
ولعل هذه الأبيات مستقاة من قوله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله
بِالهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (٣).

وفي مقارنة بين أبيات كعب التي قالها في وصف حبيته، ووصف الناقة
وغيرها من الموضوعات الجاهلية، وبين أبياته التي قالها في مدح الرسول، نجد
إختلافاً وتمايزاً. ففي حين كانت المقاطع الأولى تكراراً لمعاني الجاهلية
وألفاظها وتعابيرها، جاءت الثانية متأثرة بروح الإسلام وألفاظه وتعابيرها وقاموسه
اللغوي، حتى ليظن ظاناً أن هذه القصيدة هي لشاعرين نظم أولها القسم
المتعلق بالمعاني الجاهلية، ونظم الثاني القسم المتعلق بمدح الرسول ومعاني
الإسلام، أو هي لشاعر واحد نظم القسم الأول منها في الجاهلية، في حين نظم
القسم الثاني في الإسلام.

وإذا كان المرء على يقين أن هذه القصيدة هي لكعب بن زهير، نظمها
جميعها في أثناء إسلامه، لا بد له من التساؤل عن الأسباب في اختلاف الأسلوب
والألفاظ والتعابير جميعاً، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على أن ألفاظ
الإسلام وتعابير ومعانيه، كانت شائعة ومنتشرة في الجزيرة العربية، حتى بين
أولئك الذين لم يفتح الله قلوبهم للإسلام بعد، ويدل أيضاً أن كعباً شأنه شأن

(١) فصلت: ٣.

(٢) البقرة: ٢٣١.

(٣) التوبة: ٣٣.

شعراء صدر الإسلام جميعاً، كانوا يتطلعون إلى التراث الجاهلي في مقاربتهم للموضوع الجاهلي، فيكررون الألفاظ والتعابير والصور المقررة التي تُشكل القاموس اللغوي للشاعر الجاهلي عموماً، ويتطلعون إلى القرآن الكريم والتعاليم الإسلامية وقيم الدين الحنيف فيستلهمون ألفاظ القرآن وتعابيره في مقاربتهم للموضوع الإسلامي، فأوضحت تلك تشكل القاموس اللغوي لشعراء صدر الإسلام.

(و) الحُطَيْثَةُ :

ولد الحطيثة (جَزُول) مضطرب النسب لأمّة تدعى الضراء، وأب لعله أوس بن مالك من بني عبس، أو الأفقم بن رياح من بني ذهل ولا شك أنه كان يدرك أن نسبه لا تصح في هؤلاء، ولا في أولئك، فأصبح مضطرب الحال لا يكاد يستقرّ على قرار . ومما زاد في اضطرابه النفسي أنه كان أفقماً^(١) قصيراً ، قريباً من الأرض ، لا تكاد تأخذه العين ، والدّمامة تغلب على ملامحه جميعاً ، وربما لذلك سمي بالحُطَيْثَةُ .

كان الاختلال يَعتري الحُطَيْثَةَ في جسده، ويجعله يتوهّم أنه في حالة تخالف أحوال الناس جميعاً، فهو لا يشبههم، أو بالأحرى يراهم ينعمون بما يستحيل عليه أن ينعم به من شعور بالتكافؤ وصحة البدن، والظهور بمظهر الرجولة^(٢). وزاد من اضطراب الحطيثة النفسي أن والدته تزوجت بعد أن أعتقت بـرجل مضطرب النسب أيضاً، مما زاده عاراً. والظاهر أنّ أمّه ذات المنبت السيء، لم تكن تحسّ بالعار، ولا تتورع عن فعل السيء، ولم يكن

(١) الأفقم : الذي كان فكه الأسفل بارزاً.

(٢) حاوي (إيليا). الحطيثة، منشورات دار الشروق الجديد، بيروت ١٩٦١، ص ٨.

لديها استعداد لصيانة نفسها إذا أحلني بينها وبين شأنها.

ومثل هذه الوالدة، وهذا النسب المضطرب، وتلك الخلقة الدميعة لا يمكن أن تجر على الحطيئة إلا الضعة والمهانة، وخصوصاً أنه كان يعيش في مجتمع جاهلي، يقدر الأحساب والأنساب تقديراً عظيماً، بالإضافة أن تقاليد ذلك المجتمع ترفع من شأن الفارس الشجاع الذي يصرع الأبطال فيصرعهم، ويحمي الذمار، ويدافع عن الحياض، وليس الحطيئة واحداً منهم.

لذلك سلك الحطيئة مسلك الهجاء تنفيساً عن عقده النفسية، وكانت والدته أحق بذلك الهجاء يقول:

تقول لي الضراء لست لواحدٍ ولا اثنين، فانظر كيف شرك أولثاكا
وانت امرؤ تبغي أباً قد ضللته هبئت ألما تستفق من ضلالكا؟^(١)

كما خاطبها وقد ضاق ذرعاً بتصرفاتها قائلاً:

جَزَاكِ اللَّهُ شَرًّا مِنْ عَجْوِزٍ وَلَقَّاكِ الْعُقُوقَ مِنَ الْبَنِينِ
وقال يخاطبها أيضاً:

تَنَحِّي فَاجْلِسِي عَنِّي بَعِيداً أَرَاكِ اللَّهُ مِنَ الْعَالَمِينَا
ألم أظهر لك البغضاء مني ولكن لا أخالك تعقلينا
أغر بالاً إذا استودعت سراً وكأئوناً على المتحدثينا
حياتك ما علمت حياة سواءٍ وموتك قد يسر الصالحينا^(٢)

(١) طه (نعمان أمين) ديوان الحطيئة، مطبعة البابي الحلبي، مصر ١٩٥٨، ص ٢٧٦ -
الجنوبي (درويش) الحطيئة: البدوي المخضرم، مكتبة النهضة، مصر ١٩٦٢،
ص ٧٢.

(٢) الحطيئة، الديوان: ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

والواقع أن الحطيئة كان يعاني وطأة الخطيئة الأصلية، ويحمل في نفسه لعنة ذاته ولعنة القدر، لأن النقص والتشويه لم يكونا وليدي يديه، وإنما حبلت بهما أمه، وسكبتهما في الدم الذي تدفق من أحشائها في عروقه.

وبالإضافة إلى هجاء الحُطيئة لوالدته، فقد هجا زوجته فقال :

أَطُوفُ مَا أَطُوفُ ثُمَّ آوِي إِلَى بَيْتِ قَعِيدَتُهُ لِكَاعِ (١)

وأطرف من هذا وذاك هجاء الحطيئة لنفسه، فلقد خرج يوماً وفي نفسه رغبة في الهجاء، فقال مُردداً:

أَبْتُ شَفَتَايَ الْيَوْمَ أَلَا تَكَلُّمَا بِسُوءٍ فَمَا أُدْرِي لِمَنْ أَنَا قَائِلُهُ

فلم ير أحداً، وبينما هو يجوب الطريق أطلّ على بشر، فرأى صورته فأنشد يقول:

أَرَى لِي وَجْهًا شَوَّهُ اللَّهُ خَلَقَهُ فَقُبِّحَ مِنْ وَجْهِهِ وَقُبِّحَ حَامِلُهُ (٢)

وما هجاء الحُطيئة لوالدته وزوجته ونفسه، إلا هجاء للواقع الذي عاشه، وفُرض عليه فرضاً. فهو تنفيسُ رجل عصبي المزاج، متوتر الحواس، كثير الإنزعاج من نفسه ومما يحيط به. ولا عجب في ذلك فالحُطيئة مُهاجِمٌ من جميع نواحيه، مُهاجِمٌ من زاوية ضعف إيمانه، وعدم إسلامه إسلاماً حقيقياً عميقاً، ومن زاوية فقره وبؤسه وقلة ماله وإنعدام ميراثه ومن زاوية دمامته وبشاعته وإضطراب نسبه. لذلك فهو مضطربٌ أن يدفع عن نفسه تلك الهجمات جميعاً، فيتقي عواقب ضعف إيمانه، ويردّ عن نفسه عوادي الفقر والبؤس بالتكسب حتى في هجائه،

(١) الحطيئة، الديوان: ص ٢٨٠.

(٢) الأصفهاني (أبو الفرج) الأغاني، نسخة مصورة عن طبعة بولاق، بيروت ١٩٧٠، م ٢، ص ٤٦.

ويحمي نفسه من سخرية الآخرين وهزئهم منه ولا سبيل له إلا الهجاء المقذع المباشر حيناً والمستتر حيناً آخر.

ويبدو أن الحُطَيْثَةَ كان يحتفظ ببقية فضيلة، ولعله لم يكن مولعاً بالهجاء لأجل الهجاء، أو بتعبير أدق لم يكن يهجو أحداً بلا سبب أو مبرر. فأكثر هجائه كان له دوافعه ومسبباته البيئية والاجتماعية والنفسية. وبقية فضيلته دفعته إلى الهجاء المستتر غير المباشر، لكنه جاء أشد أنواع الهجاء إيلاماً، وهذا ما نودّ إيضاحه.

ولعل قصة الحطَيْثَةَ مع الزبرقان بن بدر معروفة لكل دارس لأدب صدر الإسلام، وما يهمنا قوله في هذا المجال أن الزبرقان صادف الحطَيْثَةَ في سنة مجدبة، فأرسله إلى دياره، وبعث إلى زوجته أن أحسنه وفادته. لكن زوجة الزبرقان تنكرت للحطَيْثَةَ وجفته بعد دسياسة دبرها بنو أنف الناقة وصدقها وأمعت زوجة الزبرقان في إذلال الحطَيْثَةَ، وبالمقابل ألحّ بنو أنف الناقة في ترغيبه للالتحاق بهم، وبعد لأي غلبته إغراءات الرحيل فرحل. ومنعته بقية فضيلته من هجاء الزبرقان خصوصاً أنه لم يقترف ذنباً وليس له جريرة في خطأ زوجته. ولكن الزبرقان بعد عودته إلى دياره ألحّ في طلب الحطَيْثَةَ الذي اختار بني أنف الناقة وشرع في مدحهم. ولم يقف الزبرقان عند هذا الحد، بل شجع دثار بن شيان على هجاء بني أنف الناقة ففعل. حيثنذ شرع الحطَيْثَةَ في مدح بني أنف الناقة وهجاء الزبرقان هجاءً مستتراً أقرب إلى العتاب في ظاهره لكنه أشد أنواعه إقذاجاً وخصوصاً عندما يقول:

دعِ المكارمَ لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي^(١)

(١) نقلًا عن: حاوي (إيليا) الحطَيْثَةَ: ص ٥٢.

فالحطيئة هجا الزبرقان بالمعاني اليسيرة القليلة الصخب والضجيج،
التموهة الظلال، لكنه هجاء يضمير وراءه أقسى أنواع السخرية والهزاء، فأظهره
خاملاً ضئيل القدر، يكتفي من الحياة بالمأكل والملبس، وهي لعمري تتعارض
مع صفات الحر الكريم، كما تتعارض مع كثير من تقاليد الجاهلية وقيمها.

وهجاء الحطيئة للزبرقان بشكله المستتر المبطن الذكي، كاد يُحَدِّثُ هزة
في المجتمع الأدبي آنذاك، فعمر بن الخطاب يقول للزبرقان: «ما أسمع هجاء،
ولكنها معاتبه» في حين يرى حسان بن ثابت «أنه لم يهجه، ولكن سلح عليه».
كما أن ليبدأ يقول: «ما يسرني أنه لحقني من هذا الشعر ما لحقه (الزبرقان) وإن
لي حُمر النعم». عندئذٍ أمر عمر أن يُجْعَلَ الحطيئة في قعر بئر، لكنه أنشد عمر
يقول:

ماذا تقول لا فراحٍ بذي فرخٍ زُغِبِ الحواصلِ لا ماءً ولا شجرُ
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمةٍ فاغفر عليك سلامُ الله يا عمرُ
فأخرجه عمر وقال له: إياك وهجاء الناس، فأجاب: إذا يموت عيالي
جوعاً، هذا مكسبي ومنه معاشي، فقال عمر: فإياك والمقذع من القول،
واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم^(١).

ومهما يكن من أمر، فهجاء الحطيئة هجاءً جاهلي مشبع بروح الصحراء،
يقتبس منها ألفاظه وتعابيرهِ وصوره وأجواءه، بالإضافة إلى أن معانيه مستمدة من
واقع البيئة الجاهلية كالكرم والضيافة والشجاعة وحماية الجار والمستغيث.
ولا غرو في ذلك فلقد نشأ في بيئة بدوية جاهلية رافقته حتى مماته، وعاش في
كنف مدرسة أوس بن حجر وممثلها زهير، فأصبح أحد تلامذته، ومن ثم أشهر

(١) الحطيئة (الديوان) ص ٢٠٨.

حاملي لواء مدرسته في الشعر المحكك، وتخيّر الألفاظ والفن الموسيقي، فجاء معبراً عن تلك البيئة الجاهلية.

وما يحلو ذكره أنّ الحطيئة كان شاعراً في الجاهلية، وما إن بدأ يركز أوتاد شعره حتى حدثت الثورة في الجزيرة، واختلّ التوازن القبلي، وساد الإسلام ودخلته جموع الأعراب رغبة أو رهبة. ما عدا قلة اضطرت إلى الهرب أو التخفي. وحده الحطيئة لم يضطر إلى ذلك بسبب إضطراب نسبه وضعته فبقي على جاهليته قلباً وقالياً. لذلك اختلف الرواة في زمن إسلامه، فمنهم من ذهب إلى أنه وفد على الرسول الكريم وأسلم على يديه ثم ارتد مع المرتدين أيام أبي بكر، ثم تاب مع التائبين. ومنهم من زعم أنه لم يُسلم أيام الرسول، وإنما ظلّ على شركه وجاهليته، حريصاً على حياته الأولى، وما حفلت من لهو ومتاع وحرية لا تُحدّ (١). حتى كانت الردة فشارك المرتدين بلسانه فقال:

أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننا فيا لهفتي ما بال دين أبي بكرِ
أيورثها بكرةً إذا مات بعده فتلك لعمر الله قاصمة الظهر (٢)

وهكذا فإنّ الحطيئة لم يُسلم إسلاماً حقيقياً، ولم يمس الإسلام شغاف قلبه، بل عاش في غربة دائمة زادتة نقمة على الناس والمجتمع. فاتخذ من الإسلام رداءً، يستر به تعلقه بعبادات الجاهلية وتقاليدها، فكان شديد الحنين إليها، شديد الامتناع على الإسلام. فهو غريب في وطنه، غريب في المجتمع. له عاداته وتقاليده، وللمسلمين قيمهم التي لا تعنيه.

وإذا كانت ظروف الولادة والنشأة قاسية عليه، فإنه كان يعرض على

(١) أنظر: حسين (طه). حديث الأربعاء، دار المعارف بمصر ط ١٢، لا تاريخ.

(٢) نقلاً عن الأصفهاني (أبو الفرج) الأغاني، م ٢، ص ٤٣.

نواجهه، ويكظم غيظه، لذلك لم يصوره الرواة في جاهليته شاذاً ولا غريباً، ولا مضطرب النفس، بل انقشع غبار تلك الصورة إبان خلافة الراشدين، وخصوصاً ابن الخطاب، فبان اضطرابه النفسي وتغربه، وقلقه على المصير وتبرمه من الإسلام. ويبدو ذلك جلياً في مؤاساته للوليد بن عتبة، عامل عثمان على الكوفة الذي أقيم عليه حدّ الشرب فواساه قائلاً:

شهد الحطيئة حين يلقى ربه أن الوليد أحقّ بالعدو
 خلعوا عنانك إذ جرّيت ولو تركوا عنانك لم تنزل تجري
 ورأوا شمائل ماجد أنفٍ يُعطي على الميسور والعسر
 فنزعت مكذوباً عليك ولم تزد إلى عوز ولا فقر (١)

ولكن بعد أن أطلّ عصر الأمويين وما اشتهر به من لهو ويزخ وتهتك، ابتسمت نواجذ الحطيئة واطمأنت نفسه، وعاد إليه شبابه فيصوره الرواة يختلف إلى مجلس سعيد بن العاص الذي أحاط نفسه بأبهة الجاهلية، ويمدحه بأبيات يقول فيها:

لعمري لقد أمسى على الأمر سائسٌ بصيرٌ بما ضرّ العدو وأريبٌ
 إذا غاب عنا غابَ عنا ربيعنا ونسقى الغمامَ الغرّ حين تئوبُ
 فننعم الفتى تعشوا إلى ضوء ناره إذا الرّيحُ هبتْ والمكانُ جديبٌ (٢)

وشعر الحطيئة لم يقتصر على الهجاء وحسب. بل تعداه إلى أغراض الشعر المعروفة آنذاك، من مدح وفخر ورثاء ووصف ونسيب وشكوى واعتذار وحكمة، وهي جميعاً تدور في إطار المعاني الجاهلية التي بقيت حيّة فيه.

(١) الحطيئة، (الديوان) ص ٢٣٧.

(٢) الحطيئة، الديوان: ص ٢٤٧.

فالحطيئة عاش زمنياً في صدر الإسلام، ولكنه كان يعيش فنياً في العصر الجاهلي لذلك يعتبر شعره إمتداداً للشعر الجاهلي، وأنموذجاً أثرياً باقياً من مخلفات ذلك العصر، فلا عجب أن لا يكون فيه مظنة ضعف أو مغمز لغامز من ركاكة لفظ أو غضاضة معنى أو اضطراب قافية^(١). ولولا ما وصم به الحطيئة من هنات، ولو استطاع أن يخلص للإسلام ويتمثل معانيه وقيمه تمثلاً حقيقياً، لكان زعيم الشعراء المخضرمين على الإطلاق.

وعلى العموم فإن شعر الحطيئة لم يعدم ألفاظاً وصوراً ومعانٍ إسلامية، بل جاء بعض منها مبعثراً في ثنايا أبياته يقول مخاطباً عمر:

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمةٍ فأغفر عليك سلامُ الله يا عمرُ
أنت الأمين الذي من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليدُ النهي البشرُ^(٢)

ويرى المتفحص لهذين البيتين أن الحطيئة يستقي معانيه من الآية الكريمة: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٣). ومن قوله تعالى: ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾^(٤) كما أنه متأثر بمجريات الخلافة وتاريخ صدر الإسلام.

وفي مجال هجاء الحطيئة للزبرقان ومدحه لبني أنف الناقة يقول:

ولمّا أن مدحتُ القومَ قُلتُم هجوتَ ولا يحلُّ لك الهجاءُ
ألم أك مسلماً فيكونَ بيني وبينكم المودةُ والإخاءُ^(٥)

(١) الهاشمي (أحمد) جواهر الأدب. مؤسسة المعارف، مصر، لا تاريخ ج ٢، ص ١٤٢.

(٢) الحطيئة، الديوان: ص ٢٠٨.

(٣) الجاثية: ١٤.

(٤) التغابن: ١٧.

(٥) الحطيئة، الديوان: ص ٤٨.

ولعل الحطيثة يستقي معانيه في هذين البيتين من معاني آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن «الشعراء الذين يتبعهم الغاؤون» كما أنه متأثر بلفظ المسلم ومعنى الإسلام عموماً.

ويقول الحطيثة في مجال مدحه لآل شماس:

إني لَعَمْرُ الَّذِي يَسْرِي لِكَعْبَتَيْهِ عَظْمُ الْحَجِيجِ لِمِيقَاتِ يُوَافِيهَا
فَلْيَجْزِهِ اللهُ خَيْراً مِنْ أَخِي ثِقَةً وَلْيَهْدِهِ بِهُدَى الْخَيْرَاتِ هَادِيهَا (١)

ولعل الشاعر متأثر في أبياته هذه بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (٢) ويقول تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (٣)، وبالآية الكريمة: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٤) ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥)، وبالآية الكريمة: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (٦).

وفي مجال آخر يقول الحطيثة:

سِيرِي أَمَامَ فَإِنَّ الْمَالَ يَجْمَعُهُ سَيْبُ الْإِلَهِ وَإِقْبَالِي وَإِدْبَارِي (٧)
فتقسيم الأرزاق موكول إلى الله شرط السعي، وهو يستقي معناه من الآية

(١) الحطيثة، الديوان: ص ٢٠٣.

(٢) البقرة: ١٨٩.

(٣) الروم: ٤٥.

(٤) سبأ: ٤٠.

(٥) الحج: ٥٤.

(٦) الانعام: ٨٨.

(٧) الحطيثة، الديوان: ٧٨.

الكريمة: ﴿وما من ذابّة في الأرض إلا وعلى الله رزقها﴾ (١).

ويخاطب الحطيئة ابن الخطاب قائلاً:

كثروا عليّ فلا يموت كبيرهم حتى الحساب ولا الصغير الرضع (٢)

ولعله استمدّ معناه من الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (٣) كما أنه متأثر بقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٤). وبالآية الكريمة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٥).

وأما قول الحطيئة:

وكانوا العروة الوثقى إذا ما تصعدت الأمور إلى عراها (٦)

فهو مستمدّ من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ (٧) ومتأثر بالآية الكريمة: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ (٨) وقال الحطيئة في مجال المدح:

مُتْرَاخِي الْحَبَا ثَقِيلِينَ فِي الْمِي زَانٍ يَشْفُونَ صُورَةَ الْجُهَالِ (٩)

(١) هود: ٦.

(٢) ابن سلام الجمحي (محمد) طبقات فحول الشعراء، دار المعارف مصر، لا تاريخ، ص ٥٤١.

(٣) ص ٢٦.

(٤) العنكبوت: ٥٧.

(٥) آل عمران: ١٨٥.

(٦) الحطيئة، الديوان: ص ٦١.

(٧) لقمان: ٢٢.

(٨) البقرة: ٢٥٦.

(٩) الحطيئة، الديوان: ص ٢٦٠.

فهو متأثر بقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (١)
وبالآية الكريمة: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ (٢).

وفي مجال آخر ينشد الحطيئة قائلاً:

ولست أرى السعادة جمعَ مالٍ ولكنَّ التَّقِيَّ هو السعيدُ
وتقوى اللُّهُ خيرُ الزَّادِ ذِخْرًا وعندَ الله لِلاتَّقَى مَزِيدُ
وما لا بُدَّ أن يَأْتِيَ قَرِيبُ ولكنَّ الذي يمضي بعيدُ (٣)

فالحطيئة في أبياته هذه متأثر بمعاني القرآن الكريم وخصوصاً قوله تعالى:
﴿وما تفعلوا من خيرٍ يَعْلَمُهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى، وَاتَّقُونِ يَا أُولِي
الْأَلْبَابِ﴾ (٤) وبالآية الكريمة: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً
وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٥)، ويقول تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهُ
يَعْبَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (٦) وبالآية الكريمة: ﴿وما يُذْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ
قَرِيبٌ﴾ (٧).

وهكذا فإنَّ الحطيئة لم تقتصر إجادته الشعرية على معاني الهجاء، فحتى
تلك الأبيات التي تنمُّ عن معاني إسلامية، جاءت في قمة الإجابة تخيراً للفظ،
وسبكاً للمعنى، وموسيقى منبعثة من ثنايا الحروف القرية المخارج، والألفاظ

(١) الأنبياء: ٤٧.

(٢) الأعراف: ٨ - ٩.

(٣) الحطيئة، الديوان: ص ٣٩٣.

(٤) البقرة: ١٩٧.

(٥) النحل: ٦١.

(٦) الحج: ٧.

(٧) الشورى: ١٧.

المتجانسة المؤتلفة، رغم أن آياته تلك كانت مجارة أو تزلفاً أو عدوى لا شعورية بلغة العصر الإسلامي ومعانيه وقيمه.

ثالثاً - الشعر المناهض للإسلام:

كان لعرب الجاهلية معتقداتهم الدينية القائمة على عبادة الأوثان والأنصاب، وقيمهم الذاتية المستمدة من الفخر بالأحساب والأنساب، وتجارتهم في مكة المزدهرة مع رحلتي الشتاء والصيف. فجاء الإسلام وحطّم الأوثان والأنصاب، وحثّ العرب على الإيمان بالله كخالقٍ واحدٍ أحد فرد صمد. وبذلك هدم أهم أركان المجتمع الجاهلي، لكنه أبقى على ما لا يتعارض مع أركان الإسلام وقيم الدين الحنيف.

لكن العرب لم يذعنوا جميعاً وبسرعة لنداء الإسلام، آمنت به قلة منهم، وحاربه كثيرون بالسنان واللسان. ولا عجب في ذلك فالمتضررون من الإسلام كثر، منهم من تضرر بمكانته القبلية، أو الاجتماعية، أو بتجارته، أو عقائده التي ورثها عن الآباء والأجداد، ويمثل هذا الجانب شعراء مكة والطائف. ومنهم من تضرر تضرراً إستراتيجياً إذا جاز التعبير، ويمثل هذا الجانب شعراء اليهود.

١ - شعراء المعارضة في مكة:

قد يكون من الصواب القول أن الشعر يروج في الحروب والمشاحنات والثورات، ويَزدهر في البوادي. لكنه يخمل مع الازدهار التجاري والاستقرار المادي، ويكاد ينعدم في المدن المستقرة نسبياً. ولعلّ هذا القول ينطبق على مكة كمدينة، فحظ الشعر كان فيها قبل الإسلام خاملاً ضعيفاً، ولم يعرف بين المكيين شاعر واحد من الفحول أو ما يقاربهم ويدانيهم.

ولكن بعد البعثة النبوية وجد المكيون أنفسهم أمام تحدٍ لم يعرفوا مثله من قبل. فهم مهتدون في كياناتهم ووجودهم وتجارتهم. فهبوا للدفاع عنها بسنانتهم

ولسانهم، ونبغ بينهم الشعراء رجالاً ونساءً، ولعل أشهرهم عبد الله بن الزبيري، وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب، فنظم هؤلاء الشعراء وغيرهم شعراً كثيراً تعرّضوا فيه للرسول الكريم وشعرائه وصحابته، بالإضافة إلى تعرّضهم للذّين الحنيف. ولقد كان طبيعياً أن يتنكر بعض هؤلاء لشعرهم هذا بعد إعتناقهم للإسلام، سواء أكان إسلامهم إسلاماً حقيقياً أم سياسياً، وأن يهمله الرّواة والمؤرخون، ولا سيّما أنّ التاريخ للأدب الإسلامي، لم يتم إلا في مراحل لاحقة بعد أن إستقر الإسلام وانتشر.

(أ) عبد الله بن الزبيري :

يعتبر عبد الله بن الزبيري ألمع شعراء قريش، وأشدّهم عداوة للمسلمين، فكان يناقض حسناً وكعب بن مالك، ويردّ على المسلمين فخرهم، ويشمت بقتلاهم، ويبيكي قتلى المشركين، يقول في معركة بدر:

ماذا على بَدْرٍ وماذا حَوْلُهُ من فِتْيَةٍ بيضِ السُّجُودِ كرام (١)
أما في معركة أحد، فله قصيدة يناقض فيها حسّان، يقول:

بَا غُرَابَ الْبَيْنِ أَسْمَعْتَ فَقُلْ	إِنَّمَا تَنْطِقُ شَيْئاً قَدْ فُعِلْ
كَمْ قَتَلْنَا مِنْ كَرِيمٍ سَيِّدٍ	مَاجِدِ الْجَدِّينِ مَقْدَامِ بَطْلٍ
لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرِ شَهِدُوا	جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسْلِ
فَقَتَلْنَا النُّصَفَ مِنْ سَادَاتِهِمْ	وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرِ فَاعْتَدَلْ (٢)

وأما في الخندق فلا بن الزبيري قصيدة يذكر فيها قوة المشركين

(١) ابن هشام (عبد الملك) السيرة النبوية، م ٢، ص ١٥.

(٢) ابن ثابت (حسان) الديوان: ص ٣٥٤.

ابن هشام (عبد الملك) السيرة النبوية، م ٢، ص ١٣٦.

وجمعهم، وما أعدوا للمسلمين من سيوفٍ قاطعة، وموتٍ محتوم. يقول مخاطباً المسلمين:

لولا الخنادق غادروا من جمعهم قتلى لطير سُغْب وذئاب(١)

وبعد أن استسلمت مكة عام الفتح، ضاقت الأرض بابن الزبيري، أو أخذته العزة بالإثم، فولّى وجهه نحو نجران هرباً من غضب المسلمين. لكنه لم يلبث أن قَدَمَ على الرسول، فأسلم واعتذر إليه، وقال شعراً كَفَّر به عما بدر منه، مُعترفاً بأن الشيطان كان قد أضلّه وأغواه: يقول:

يا رسولَ المليك إنَّ لساني راتقٌ ما فَتَقْتُ إذ أنا بُورُ
إذ أجاري الشيطان في سننِ الفيرِ بي ومن مال ميله مثبورُ
أمن اللحم والعظام بما قد ستَ فنفسِي الفِدا وأنتَ النذيرُ(٢)

ومن الواضح أن ابن الزبيري استقى مادته من القرآن الكريم جاء في الذكر الحكيم: ﴿إنا آمننا برّبنا ليغفرَ لنا خطايانا﴾(٣). وقال تعالى: ﴿يا أيها النبيّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾(٤). وقال تعالى: ﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾(٥) وينشد ابن الزبيري مخاطباً الرسول الكريم:

يا خيرَ من حَمَلت على أوصالها عيرانةٌ سُرحُ اليدين غُشومُ
إني لمعتذرٌ إليك من التي أسديتُ إذ أنا في الضلالِ أهيمُ
فاليوم آمن بالنبي محمدٍ قلبي ومخطيءُ هذه محرومُ

(١) ابن هشام (عبد الملك) السيرة النبوية، م ٢، ص ٢٥٨.

(٢) نقلًا عن: ضيف (شوقي) العصر الإسلامي، دار المعارف مصر، لا تاريخ ص ٦٩.

(٣) طه: ٧٣.

(٤) الأحزاب: ٤٥.

(٥) النساء: ٦٠.

مضت العداوة وانقضت أسبابها وأتت أوامرُ بيننا وحلوم
فاغفر فداً لك والديّ كلاهما وارحم فإنك راحمٌ مرحوم
وعليك من سِمة المليك علامة نورٌ أغرٌ وخاتمٌ مختومٌ
أعطاك بعد محبةٍ برهانه شرفاً وبرهانُ الإله عظيمٌ^(١)

ويبدو أن هذه الأبيات متأثرة بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا
أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾^(٢)، وجاء في الذكر الحكيم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿أَقَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ
فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾^(٤) وجاء في التنزيل العزيز: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ
رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ
لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٦)، وجاء في الذكر الحكيم: ﴿وَقُلْ رَبِّ
أَغْفِرْ وَأَرْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٧). وهكذا فابن الزبير سلس أسلوبه
ولان، واقتربت ألفاظه من ألفاظ الإسلام.

(ب) (ضرار بن الخطاب :

يُعد ضرار بن الخطاب شاعراً له أثره وخطره في مناهضة الدِّين
الإسلامي، وهو معدودٌ في فرسان قريش وشجعانهم وشعرائهم المطبوعين
المجيدين، بالإضافة إلى أنه كان متعصباً لقومه، مُفتخراً بهم. وكثيراً ما كان

(١) راجع: ابن ثابت (حسان) الديوان: ص ٤١٣.

(٢) آل عمران: ٥٣.

(٣) البقرة: ٣٩.

(٤) الزمر: ٢٢.

(٥) الأحزاب: ٤٠.

(٦) الأعراف: ٢٣.

(٧) المؤمنون: ١١٨.

ابن الخطاب يحرض قومه على قتال المسلمين إذ هم تخاذلوا أو تقاعسوا. وقد برز ذلك واضحاً إبان الحروب الدائرة بين مكة والمدينة. كان همّه حين يهجو المسلمين أن ينال من الأوس والخزرج، ويحزنه أن يكون القرشيون - أبناء قومه - بين هؤلاء. ويروى في هذا المجال أن الأوس والخزرج اختلفوا يوماً في من كان أشجع يوم أحد، فمر بهم ابن الخطاب، فقالوا: هذا شهدا، وهو عالمٌ بها، فبعثوا إليه فتى عنهم يسأله فقال: لا أدري ما أوسكم من خزرجكم، ولكن زوجت يوم أحد أحد عشر رجلاً من الحور العين^(١).

وشهد ضرار بن الخطاب يوم أحد، وكان النصر يومذاك - إلى جانبهم - في صفوف المشركين، فقال:

إني وجدك لولا مقدمي فرسي إذ جالت الخيلُ بين الجزع والقاع
ما زال منكم بجنب الجزع من أحدٍ أصوات هامٍ تَزاقى أمرها شاعي^(٢)

وفي الخندق كان ابن الخطاب أيضاً إلى جانب المشركين، فقال قصيدة يفتخر فيها بقومه، ويذكر حسن عدته وشدته على الأعداء، بالإضافة إلى هجائه للمسلمين، يقول:

أناس لا ترى فيهم رشيداً وقد قالوا ألسنا راشديننا
فأحجرناهم شهراً كريئاً وكنّا فوقهم كالفاهرينا

(١) راجع: ابن عبد البر (يوسف بن عبد الله) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، البجاوي، مصر، لا تاريخ، ج ١، ص ٣٣٧.

(٢) ابن هشام (عبد الملك) السيرة النبوية، م ١، ص ١٤٥، الجزع منعطف الوادي. القاع: المنخفض من الأرض. الهام جمع هامة وهي الطائر التي يزعم العرب أنها تخرج من رأس القتيل، فيصبح اسقوني اسقوني، حتى إذا أخذ بثأره سكت. شاعي: أصلها شائع فقلبت.

نُراوِهم ونغدو كل يوم عليهم في السّلاحِ مُدَجِّجينا (١)
لكن ابن الخطاب أسلم بعد الفتح، واعتذر إلى الرسول الكريم، وقدم
بين يديه شعراً يقول فيه:

يا نبيّ الهدى إليك لجاحيد سيّ قريش وأنت خير لجراء
حين ضاقت عليهم سعة الأَرْضِ وعاداهم إله السماء (٢)

ولعل ابن الخطاب يستقي قوله من الآية الكريمة: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ
رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ (٣)، وبقوله تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ
هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤). فضرار تأثر تأثراً مباشراً بالقرآن الكريم وتعاليمه وقيمه
فسلس أسلوبه ورقت ألفاظه، واقتربت من لغة القرآن الكريم.

(ج) هبيرة بن أبي وهب:

يعتبر هبيرة من شعراء قريش المعروفين بشعرهم في الجاهلية، وبعد
البعثة ناهض الدين الإسلامي باللسان، وقارع المسلمين بالسنان، كما عرف
بدفاعه عن قومه ومعتقداتهم. ولعلّه من شعراء المشركين البارزين بين البعثة
والفتح، شهد بدرًا، وقاتل فيها قتالاً مريراً حتى أعياه القتال. كما شهد أحد التي
كان النصر فيها للمشركين، فأنشد مزهواً بنفسه وسلاحه وفرسه وعدته، متشقيماً
بهزيمة المسلمين، يقول:

قُدنا كَنانة من أطراف ذي يَمينِ عَرَضَ البلادِ على ما كان يُزجِئها

(١) ابن هشام (عبد الملك) السيرة النبوية: م ٢، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ احجرناهم:
حاصرناهم، شهراً كريئاً: شهراً كمللاً.

(٢) ابن عبد البر (يوسف بن عبد الله) الاستيعاب. في معرفة الأصحاب، ج ١، ص ٣٣٧.

(٣) التوبة: ٣٣.

(٤) الحج: ٦٧.

نَحْنُ الْفَوَارِسُ يَوْمَ الْجُرِّ مِنْ أَحَدٍ هَابَتْ مَعِيدُ فُقَلْنَا نَحْنُ نَأْتِيهَا (١)

وقد بقي هيبرة مكابراً معتزلاً بالإثم، فلم يُسلم، ولم يمسس الإسلام شغاف قلبه، فهرب بعد الفتح إلى نجران، ومات فيها كافراً. وقد غاضه أن تُسلم زوجته أم هانئ (صفية بنت أبي طالب) فأرسل يعاتبها قائلاً:

أشأقتك هند أم أتاك سؤلها كذلك النوى أسبابها وانفتالها (٢)

٢ - شعراء الطائف:

كان المتضررون من الإسلام كدين، ومن محمد بن عبد الله كرسول يتعاضدون، لينالوا من الإسلام وتعاليمه وقيمه. وفي هذا المجال سلك شعراء الطائف مسلك جيرانهم شعراء مكة، فناهضوا الدين الإسلامي، وسلط شعراؤهم ألسنتهم تحريضاً على المسلمين، ودعموا للمشركين. ولعل أشهر شعراء الطائف أمية بن أبي الصلت، وأبا محجن الثقفي.

(أ) أمية بن أبي الصلت:

كان من الأحناف على دين إبراهيم، والأحناف فئة كانت تتوقع مجيء رسول الله يخلص الناس من الشرك وعبادة الأوثان، وأمية فيهم يتوقع أن يكون ذلك الرسول. ولكن حين إختار الله سبحانه وتعالى محمداً رسولاً له وحمله أمانة الرسالة، إغتاظ أمية وتنكر له لا حباً بالجاهلية، وتعلقاً بعباداتها وتقاليدها، بل حسداً وحقدًا. لذلك نظم إلى شعراء المشركين، وأخذ يحرض على قتال المسلمين، ويرثي قتلى المشركين، يقول في بدر:

ألا بكيت على الكرا م بني الكرام أولى الممادخ

(١) ابن هشام (عبد الملك) السيرة النبوية، م ٢، ص ١٢٩.

(٢) ابن هشام (عبد الملك) السيرة النبوية، م ٢، ص ٤٢٠.

كَبِكَ الحمام على فرو ع الأيك في الغصن الجوانح
ثم يمضي محرّضاً المشركين على معاودة الكرّة، وشن حملة شعواء على
المسلمين:

بُزْهَاءِ أَلْفٍ ثُمَّ الـ فِ بَيْنِ ذِي بَدَنِ وَرَامِحٍ (١)

(ب) أبو محجن الثقفي :

وكان شاعراً وفارساً معدوداً في أولي البأس والنجدة. قال في الجاهلية:

لا تسألني الناس عن مالي وكثرتي وسألني القوم عن ديني وعن خلقي
أعطي السنان غداة الرّوع نحلته وعامل الرمح أرويه من العلق (٢)

اشترك أبو محجن مع قومه في مناهضة المسلمين، لكن شهرته تمت في
معارضته لقيم الدين الإسلامي وتعاليمه، وخصوصاً في موقفه المتذبذب من
الخمير قبل الإسلام وبعده.

وشعر أبي محجن يكاد ينحصر في وصف الخمير ذماً أو مدحاً، فتارة كان
يمدح الخمير ويدعو إلى معاقرتها، واصفاً تعلقه بها وسيطرتها على نفسه ونفوس
شاربيها. فهو لا يطيق صبراً على فراقها، ويستهيئ بعذاب النار في سبيلها.
يقول بعد إسلامه في أثناء معركة القادسية:

الأسقني يا صاح خميراً فإنتني بما أنزل الرحمن في الخمر عالم

(١) ابن هشام (عبد الملك) السيرة النبوية، م ٢، ص ٣٠.

الجبوري (يحيى) شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ص ١٨٤.

(٢) راجع: ابن سهل (الحسن بن عبد الله) ديوان أبي محجن الثقفي، مطبعة الأزهار
البارونية، مصر، لا تاريخ ص ٥. المقصود بالنحلة مجازاً: القيام بالأمر حق قيامه.
عامل الرمح: على بعد ذراع من السنان. العلق: الدم الذي يعلق بضم الجرح ثم كثر
حتى سمي كل دم علقاً.

وَجُدُّ لِي بِهَا صِرْفًا لِأَزْدَادَ مَائِمًا فِي شَرْبِهَا صِرْفًا تَمَّ الْمَائِمُ
هِيَ النَّارُ إِلَّا أَنَّنِي نَلْتُ لَذَّةً وَقَضَيْتُ أوتَارِي وَإِنْ لَمْ لَائِمٌ (١)

وتارةً أخرى نراه بدم الخمر، يقول قبل إسلامه:

يَقُولُ أَنَسٌ إِشْرَبَ الْخَمْرَ أَنَهَا إِذَا الْقَوْمُ نَالُوهَا أَصَابُوا الْغَنَائِمَا
فَقُلْتُ لَهُمْ جَهْلًا كَذَبْتُمْ أَلَمْ تَرَوْا أَخَاهَا سَفِيهًا بَعْدَ مَا كَانَ حَالِمًا
وَأُضْحَى وَأَمْسَى مُسْتَحَقًّا مَهِيمًا وَحَسْبُكَ عَارًا أَنْ تَرَى الْمَرْءَ هَائِمًا (٢)

وأنشد بعد إسلامه مُعلنًا توبته بعد معاودة، يذم الخمر:

رَأَيْتِ الْخَمْرَ صَالِحَةً وَفِيهَا مَنَاقِبُ تَهْلِكُ الرَّجُلَ الْحَكِيمَا
فَلَا وَاللَّهِ أَشْرَبْتُهَا حَيَاتِي وَلَا أَشْفِي بِهَا أَبَدًا سَقِيمَا (٣)

ولعل أبا محجن إستقى معنى البيت الأول من الآية الكريمة: ﴿يَسْأَلُونَكَ
عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ
نَفْعِهِمَا﴾ (٤)، كما انه يستقي معنى البيت الثاني من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ
الشَّيْطَانُ أَنْ يُوَقِّعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ (٥).

وينشد أبو محجن مُعلنًا توبةً نَصُوحًا:

أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ الرَّحِيمِ فَإِنَّهُ غَفُورٌ لَذَنْبِ الْمَرْءِ مَا لَمْ يُعَاوِدِ
وَلَسْتُ إِلَى الصُّهْبَاءِ مَا عَشْتُ عَائِدًا وَلَا تَابِعًا قَوْلِ السَّفِيهِ الْمُعَاوِدِ

(١) أبو محجن الثقفي (الديوان) ص ١٧.

(٢) أبو محجن الثقفي (الديوان) ص ١٦.

(٣) نقلًا عن: الجيوري (يحيى) شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ص ١٩١.

(٤) البقرة: ٢١٩.

(٥) المائدة: ٩١.

وكيف وقد أعطيت ربِّي موائقاً أعود لها والله ذو العرش شاهدي
سأتركها مذمومة لا أذوقها وإن رَغِمَتْ فيها أنوف حواسدي (١)

ولأبي محجن مشاركات في الفتوح إلى جانب المسلمين، ويذكر في
ترجمة سيرته، أنه كان مولعاً بالخمير، فحبسه سعد بن أبي وقاص يوم القادسية،
حتى إذا احتدمت المعركة، توّسل أبو محجن إلى سلمى زوج سعد أن تطلقه،
على أن يعود إلى قيده بعد المعركة، فأطلقته وأبلى فيها بلاءً حسناً، ثم عاد إلى
سجنه وهو ينشد:

لقد علمت ثقيفٌ غيرُ فخرٍ بأننا نحن أكرمهم سُيوفاً
فإن أُحْبَسَ فقد عرفوا بلائي وإن أُطلقَ أُجرّعهم حُتوفاً (٢)

والملاحظ أنّ أبا محجن لم يشارك بسنانه أو لسانه ضد المسلمين، بل
تمثّلت مناهضته للإسلام بشعره الخمري.

٣ - شعراء اليهود:

كان اليهود يناهضون الإسلام إلى جانب شعراء مكّة والطائف، ومن موقع
استراتيجي هذه المرّة. فاليهود بما يمثلون تاريخياً من فئة لها خصوصياتها الذاتية
القائمة على التّرجسيّة والانقضاض على القيم جميعاً، تناسوا أنهم أصحاب دين
وتوحيد وعضدوا قريشاً في قراعها للمسلمين. ونبغ فيهم شعراء عديدون،
أشهرهم كعب بن الأشرف الذي كان شديد العداوة للإسلام، فلم يتورّع عن
التشبيب بنساء الرّسول والمسلمين، لكنّ شعره المقذع طُمِس، ولم يَبْقَ إلا
بعضاً منه خالٍ من الاقذاع، كثرثائه لأصحاب القليب، يقول:

(١) أبو محجن الثقفي (الديوان) ص ١٦.

(٢) أبو محجن الثقفي الديوان ص ٢١.

طحنت رحي بدرٍ لمهلك أهله ولمثل بدرٍ تُستهل وتدمعُ
قُتلت سراةُ الناس حوي حياضهم لا تبعدوا أن الملوك تُصرعُ (١)

ونختم قولنا حول الشعر المناهض للإسلام، أنه تعرّض للإهمال فالنسيان والضياع، سواء في ذلك شعر المشركين في مكّة والطائف والقرى اليهودية، وهذا أمر طبيعي، لأن العرب دخلوا الإسلام بعد الفتح وارتضوه ديناً، وأصبح الشعر الذي نظموا في هجاء الإسلام والمسلمين يتنافى مع الإيمان الجديد، بل عاد ذلك الشعر سبّة عليهم وعاراً، فلا بد أن يشيحوا أنظارهم عنه ويتبرأوا منه. ولكن ما حُفظ منه لا يصح أن يُهمل، كونه يمثل جانباً من جوانب الشعر في تلك المرحلة.

وإذا كانت بقية شعر مكّة قد حُفظت، فذلك يعود إلى العصبية ضدّ الأوس والخزرج. فقد حفظ الرواة ما يمكن حفظه إلى أصحاب السير وكتّبة الأيام والغزوات، وكان الشعر الذي حفظ مُبرأ من الإساءة إلى الدين الإسلامي تقريباً، ومقتصرأ على الأمور العامة في تهاجي الشعراء، ومناقضات الحروب، ورتاء الموتى، والهجاء القبلي بصورته الجاهلية.

ومحافظة الشعر المكي على خطّه الجاهلي شكلاً ومضموناً يُستدلّ منه أنّ أصحابه لم يؤمنوا بالإسلام إيماناً عميقاً، فهم لم يتمثلوه تمثلاً ملحوظاً، بل بقي شعرهم يدور في إطار التعصّب القبلي والعداء الشديد لأهل المدينة من الأوس والخزرج، فليس من الغرابة أن تنحصر موضوعاته في وصف الحروب والمعارك، والفخر بحسن البلاء فيها والصبر على شدّتها، وهذه وتلك من مميزات الشعر الجاهلي.

(١) ابن هشام (عبد الملك). السيرة النبوية: ص ٥٢.

أما شعر الطائف فلم يكن بارزاً في الأحداث الإسلامية، ولم يُشارك شعراء الطائف مشاركة بارزة واضحة في الخصومة بين المشركين والمسلمين، إلا ما أثر من شعر لأمية بن أبي الصلت في رثاء قتلى بدر، وشعر لأبي محجن الثقفي في وصف الخمرة التي حرّمها الإسلام. لكنها جميعاً لا تبلغ مستوى الشعر المكي في عدائها ومناهضتها للدين الإسلامي.

وأما اليهود فلقد ناهضوا الإسلام، وعضدوا المشركين، لكن شعرهم لم يذكر الدين مطلقاً، بل اقتصر على تحريض قريش ضد المسلمين، بالإضافة إلى بكاء قتلى المشركين وقتلاهم من بني قريظة والنظير.

وعلى أية حال فإن شعر المشركين كان متقطعاً محدوداً، ولا يصح أن يقال أنه كان إمتداداً طبعياً للشعر الجاهلي، بل يشكل شعر مرحلة لا بدّ منها في تصوير الصراع العسكري والشعري، ورغم أنه لم يستطع الصمود أمام الرسالة الإسلامية وقيمها الحضارية فإن ما بقي منه يصور بعضاً من شعر تلك المرحلة الزمنية من عمر الإسلام.

المصادر والمراجع

- ١ - ابن ثابت الأنصاري (حسان). الديوان، دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨١م.
- ٢ - ابن جُزي الكلبي (محمد بن أحمد). كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣م.
- ٣ - ابن خلدون (عبد الرحمن) المقدمة، دار الكتاب اللبناني بيروت، ١٩٦٦م.
- ٤ - ابن ربيعة العامري (لبيد) شرح الديوان، حققه إحسان عباس، سلسلة التراث العربي رقم ٨ الكويت ١٩٦٢م.
- ٥ - ابن رشيق القيرواني (أبو علي، حسن) العُمدة في محاسن الشعر وأدبه، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٥م.
- ٦ - ابن زهير (كعب) الديوان، حققه علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧.
- ٧ - ابن سعد (محمد) الطبقات الكبرى، دار صادر بيروت ١٣٧٦هـ.

- ٨ - ابن سلام الجُمَحي (محمد) طبقات فحول الشعراء، دار المعارف، مصر، لا تاريخ.
- ٩ - ابن سهل (الحسين بن عبد الله) ديوان أبي مَحَجَن الثَّقفي، مطبعة الأزهار البارونية، مصر، لا تاريخ.
- ١٠ - ابن عبد البر (يوسف بن عبد الله) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، البجاوي، مصر، لا تاريخ.
- ١١ - ابن عبد ربّه (أحمد بن محمد) العَقْد الفريد، دار المسيرة، بيروت ١٩٨١.
- ١٢ - ابن عبد الله (أبو عمر، يوسف) جامع بيان العلم وفضله، المطبعة المنيرية، مصر، لا تاريخ.
- ١٣ - ابن مالك (كعب) الديوان، حققه سامي مكّي العاني، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٦.
- ١٤ - ابن منظور (محمد بن مكرم) لسان العرب، دار صادر بيروت ١٩٥٦.
- ١٥ - ابن هشام (عبد الملك) السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، مطبعة الحلبي القاهرة، ١٩٣٦ م.
- ١٦ - الأصبهاني (أبو نعيم) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥.
- ١٧ - الأصفهاني (أبو الفرج) الأغاني، مصوّرة عن طبعة بولاق دار الفكر للجميع، بيروت، ١٩٧٠.
- ١٨ - الأملدي (علي بن محمد) الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق السيد الجميلي، دار الكتاب العربي بيروت، ١٩٨٤.
- ١٩ - أمين (أحمد) فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٩.

- ٢٠ - الأميني (عبد الحسين) الغدير في الكتاب والسنة والأدب، دار الكتاب العربي بيروت، ١٩٨٣م.
- ٢١ - البستاني (فؤاد أفرام) حسان بن ثابت، الروائع، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٤م.
- ٢٢ - البنداق (محمد صالح) المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣م.
- ٢٣ - التفتازاني الهروي (ابن الحفيد) الدرّ النضيد لمجموعة ابن الحفيد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠م.
- ٢٤ - الجاحظ (أبو عثمان، عمرو) البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي القاهرة، ١٩٦٩م.
- ٢٥ - الجبوري (يحيى) الإسلام والشعر، منشورات مكتبة النهضة بغداد، ١٩٦٤.
- ٢٦ - الجبوري (يحيى) شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٤م.
- ٢٧ - الجعدي (النابغة) الديوان منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٦٤.
- ٢٨ - جمعة (محمد إبراهيم) حسان بن ثابت، دار المعارف، مصر ١٩٦٥.
- ٢٩ - الجندي (درويش) الحُطَيْثَةُ: البدوي المخضرم، مكتبة النهضة، مصر، ١٩٦٢.
- ٣٠ - الحاج حسن (حسين) نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٥.
- ٣١ - حاوي (إيليا) الحُطَيْثَةُ، منشورات دار الشروق الجديد، بيروت، ١٩٦١م.

- ٣٢ - حسين (طه) حديث الأربعاء، دار المعارف مصر، لا تاريخ.
- ٣٣ - خضر (محمد) أدب صدر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨١م.
- ٣٤ - خلف الله (محمد أحمد) دراسات في الأدب الإسلامي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٧م.
- ٣٥ - الدارجي (محمد عباس) الإشعاع القرآني في الشعر العربي، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٧م.
- ٣٦ - الدواليبي (محمد معروف) المدخل إلى السنة وعلومها، مطبعة الجامعة السورية، دمشق، ١٩٥٦م.
- ٣٧ - الرافعي (مصطفى صادق) تاريخ آداب العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٤م.
- ٣٨ - سلطان (جميل) ديوان عبد الله بن رواحة، دار العلم، دمشق ١٩٧٣.
- ٣٩ - السيوطي (جلال الدين) الاشباه والنظائر في النحو، قدم له فايز ترحيني، دار الكتاب العربي، ١٩٨٤م.
- ٤٠ - الشريف الرضي (محمد بن الحسين) المجازات النبوية، مؤسسة الحلبي، القاهرة، لا تاريخ.
- ٤١ - شمس الدين (محمد مهدي) بين الجاهلية والإسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٤م.
- ٤٢ - الشنقيطي (أحمد) شرح المعلقات العشر، قدم له فايز ترحيني، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٤م.
- ٤٣ - الصالح (صبحي) علوم الحديث ومصطلحه، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧١م.

- ٤٤ - الصالح (صباحي) مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٩م.
- ٤٥ - طه (نعمان أمين) ديوان الحُطَيْثَة، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٨م.
- ٤٦ - الضبيّ (المفضل بن محمد) المفضليات، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.
- ٤٧ - ضيف (شوقي) العصر الإسلامي، دار المعارف، مصر، لا تاريخ.
- ٤٨ - عبد الباقي (محمد فؤاد) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لا تاريخ.
- ٤٩ - الفيروزآبادي (محمد محي الدين) القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، لا تاريخ.
- ٥٠ - القاسمي (جمال الدين) قواعد التحديث، دمشق، ١٩٣٥م.
- ٥١ - القرشي (أبو زيد، محمد) جمهرة أشعار العرب، القاهرة، ١٣٣٠ هـ.
- ٥٢ - القسطلاني (أبو العباس، أحمد) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، بهامشه صحيح مسلم بشرح النووي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٣م.
- ٥٣ - القط (عبد القادر) في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٧م.
- ٥٤ - مصطفى (محمود) تاريخ الأدب العربي، مطبعة الحلبي، ١٣٥٦ هـ.
- ٥٥ - الموسوي الزنجاني النجفي (إبراهيم) عقائد الإمامية الاثني عشرية، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣م.
- ٥٦ - نوفل (عبد الرزاق) الإعجاز العددي للقرآن الكريم دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣.

- ٥٧ - نوفل (عبد الرزاق) معجزة الأرقام والترقيم في القرآن الكريم، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣.
- ٥٨ - النّووي (محي الدين بن شرف) التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير، تقديم وتحقيق وتعليق محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٥ م.
- ٥٩ - الهاشمي (أحمد) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، مؤسسة المعارف، بيروت، لا تاريخ.
- ٦٠ - اليحصبي (القاضي عياض) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الكتاب العربي، ١٩٨٤.

بطاقة المؤلف الأدبية

أصدر المؤلف عدداً من الكتب، ونشر عدداً آخر من البحوث والمشاركات الأدبية؛ وهي كما يلي:

أولاً - في الكتب:

١ - الشيخ أحمد رضا والفكر العاملي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣م.

٢ - الشيخ عبد الله العلايلي مفكراً ولغوياً وفقهياً، إتحاد الكتاب اللبنانيين، توزيع دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٨٤م. (مشارك مع د. رمزي بعلبكي، ود. عفيف دمشقية، ود. علي سعد، ود. حسين مروة).

٣ - الشيخ عبد الله العلايلي والتجديد في الفكر المعاصر، منشورات عويدات، بيروت - باريس، ١٩٨٥م.

٤ - الدراما ومذاهب الأدب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨م.

٥ - أدب الخطابة في صدر الإسلام، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٠م.

٦ - الإسلام والشعر، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٠م.

ثانياً - في التحقيق :

١ - الشعر غاياته ووسائطه، إبراهيم عبد القادر المازني، دار الفكر اللبناني بيروت، ١٩٩٠ .

ثالثاً - في البحوث :

١ - المدينة معناها ونشأتها، مجلة الفكر العربي، بيروت، سنة ١٩٨٢م، العدد ٢٩، ص ٢٧ .

٢ - جولة أفقية في سيرة العلايلي، مجلة الباحث، بيروت، سنة ١٩٨٢م، العدد ٢٧، ص ٣٧ .

٣ - العلايلي والتاريخ، مجلة العرفان، بيروت، سنة ١٩٨٤م، مجلد ٧٢، العدد ٦، ص ٥٨ .

٤ - العلايلي أدبياً وناقداً أدبياً، مجلة الطريق، بيروت، سنة ١٩٨٤م، مجلد ٤٣، العدد ٤، ص ٢٠٥ .

٥ - الملاحم بانوراما حضارية حيّة، مجلة الباحث، بيروت، سنة ١٩٨٦م، العدد ٤٢، ص ٤٣ .

٦ - مراجعة الكتب بين مخاض الرجال ودُمي الأطفال، مجلة الفكر العربي، سنة ١٩٨٦م، العدد ٤٢، ص ٤٠٢ .

٧ - الواقعية وتجربة الأدب المستمرة، مجلة الفكر العربي، بيروت، سنة ١٩٨٦م، العدد ٤٤، ص ٢٨٤ .

٨ - العربية والمُعجَمات، مجلة الباحث، بيروت، سنة ١٩٨٨م العدد ٥٠، ص ١٢٣ .

٩ - شكسير في التمييز العنصري والخلود الانساني، مجلة الطريق، سنة ١٩٨٨م، مجلد ٤٧، العدد ١، ص ٩٦ .

- ١٠ - الرّومانية في الأدب، مجلة دراسات عربية، سنة ١٩٨٨م، العددان ٨/٧، ص ١١٩ .
- ١١ - الدراما الإغريقية نشأتها وتطورها، مجلة دراسات عربية، بيروت، سنة ١٩٨٨م، العدد ٩، ص ٥٤ .
- ١٢ - الكلاسيكية في الأدب، مجلة الفكر التّقديمي، بيروت، سنة ١٩٨٨م، العدد ٦، ص ٤١ .
- ١٣ - الواقعية وثورة اللامعقول، مجلة الفكر التّقديمي، بيروت، سنة ١٩٨٨م، العدد ٨، ص ٤٣ .
- ١٤ - تطوّر العقل اللّغوي وأبنية العربيّة، مجلة الباحث، بيروت، سنة ١٩٨٩م، العدد ٥٣، ص ١١ .

رابعاً - في مُقدّمات الكُتب:

- ١ - شرح المعلّقات السّبع للزّوزني، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م .
- ٢ - شرح المعلّقات العشر للشّنقيطي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٤م .
- ٣ - الأشباه والنظائر في النّحو للسيوطي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٤م .

خامساً - في المُشاركات الأدبية:

- ١ - ديوان شعر الخوارج، مجلة الفكر العربي، بيروت، سنة ١٩٨٢م، العدد ٢٦، ص ٢٤٩ .
- ٢ - الدّراسات اللّغوية في الأندلس، مجلة الفكر العربي، بيروت، سنة ١٩٨٢م، العدد ٢٦، ص ٢٧٨ .

- ٣ - الاستشراق، مجلّة الفكر العربي، سنة ١٩٨٣م، العدد ٣٢، ص ١٥٢.
- ٤ - دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، مجلة الفكر العربي، بيروت، سنة ١٩٨٣م، العدد ٣٢، ص ٢٠٣.
- ٥ - الأصول الوسيطة للدولة الحديثة، مجلة الفكر العربي، بيروت، سنة ١٩٨٣م، العددان ٣٥/٣٦، ص ١٩٢.
- ٦ - الديمقراطية الأثينية، مجلة الفكر العربي، بيروت، سنة ١٩٨٣م، العددان ٣٥/٣٦، ص ١٩٧.
- ٧ - الحجاز والدولة الإسلامية، مجلة الفكر العربي، بيروت، سنة ١٩٨٣م، العددان ٣٥/٣٦، ص ٢٦٨.
- ٨ - التحليل السياسي الناصري، مجلة الفكر العربي، بيروت، سنة ١٩٨٣م، العددان ٣٥/٣٦، ص ٢٩٧.
- ٩ - لبنان والصيغة المأساة، مجلة حاليات، بيروت، سنة ١٩٨٣م، العدد ٢٩، ص ٦١.
- ١٠ - تلك الأيام، مجلة حاليات، سنة ١٩٨٣، العدد ٣٠، ص ٦١.
- ١١ - تطوّر الصحافة السّورية في مائة عام، مجلة حاليات، سنة ١٩٨٣م، العدد ٣٢، ص ٧٤.
- ١٢ - لبنان والعرب، مجلة حاليات، بيروت، سنة ١٩٨٤، العدد ٣٥، ص ٦٨.
- ١٣ - تيارات معاصرة في علم الاجتماع، مجلة الفكر العربي، بيروت، سنة ١٩٨٥، العددان ٣٧/٣٨، ص ٤٩٨.

- ١٤ - الإسلام لا يتجدد ولا يتطوّر في كل عصر وزمان لأنه كامل وليس بعد الكمال شيء. جريدة اللّواء، تاريخ ١٩٨٦/٣/٧م، العدد ٥٣٣٦، ص ٧.
- ١٥ - قراءة لوحة لحسن الجوني، جريدة السفير، تاريخ ١٩٨٧/١/١١م، العدد ٤٥٣٠، ص ١٠.
- ١٦ - حديث «العصملة» بالمحكّية المعاصرة، جريدة السفير، تاريخ ١٩٨٩/١١/١١م، ص ١٠.
- ١٧ - إتجاهات في التربية، مجلة الباحث العدد ٥٤، ص ١٤٤.
- سادساً - في الصحف والمجلات:
- ١ - عبد الله العلايلي موضوعاً لدكتوراه، فايز محمد ترحيني أجاده جداً، النهار، تاريخ ١٩٨٢/٦/٢٩، ص ٩.
- ٢ - اللبنانيون وتكريم الأدباء، عبد الله العلايلي اللغوي الأديب، كتبه نسيب نمر، الأنوار، تاريخ ١٩٨٢/٧/١٨، ص ٨.
- ٣ - الشيخ أحمد رضا والفكر العاملي، السفير، تاريخ ١٩٨٣/٥/٢٦، ص ٧.
- ٤ - الشيخ أحمد رضا والفكر العاملي، النهار، تاريخ ١٩٨٣/٥/٢٧، ص ٩.
- ٥ - الشيخ أحمد رضا والفكر العاملي، بقلم محمود شريح، النهار، تاريخ ١٩٨٣/١٠/١٨، ص ٩.
- ٦ - الشيخ أحمد رضا العاملي، فايز ترحيني في أصول وبواعث، بقلم جورج

- كلاس، النهار، تاريخ ٧/١٢/١٩٨٤، ص ١٣.
- ٧ - الشيخ عبد الله العلايلي مفكراً ولغوياً وفقهياً، السفير، تاريخ ٧/١٢/١٩٨٤.
- ٨ - الشيخ عبد الله العلايلي، النهار، تاريخ ١٦/١٢/١٩٨٤، ص ٩.
- ٩ - الشيخ عبد الله العلايلي والتجديد في الفكر المعاصر. عرض بانورامي لممثل تجربة تجديدية متعددة، كتبه محمد فرحات، السفير، تاريخ ١٢/٤/١٩٨٥، ص ١٠.
- ١٠ - الشيخ عبد الله العلايلي والتجديد في الفكر المعاصر، كتبه جورج كلاس، مجلة حاليات، العدد ٤٣، ص ٨٢-٤٣.
- ١١ - الشيخ أحمد رضا والفكر العاملي، بقلم حسين سليمان، مجلة الفكر العربي، العددان ٣٩ - ٤٠، حزيران - تشرين الأول ١٩٨٥، ص ٣٦٥ - ٣٧٥.
- ١٢ - الشيخ عبد الله العلايلي وتجديد الفكر المعاصر، الدكتور ترحيني يكتب السيرة وواقع عصر الرجل، كتبه زينب حمّود، الأنوار، تاريخ ٢٣/٥/١٩٨٦، ص ٨.
- ١٣ - الشيخ عبد الله العلايلي والتجديد في الفكر المعاصر، كتبه زينب حمّود، مجلة الباحث، العدد ٤٣، تاريخ تموز - أيلول ١٩٨٦، ص ١٥٣ - ١٥٧.
- ١٤ - الدراما ومذاهب الأدب، السفير، تاريخ ١/١١/١٩٨٨.
- ١٥ - الدراما ومذاهب الأدب، للدكتور فايز ترحيني، تعميق المنطلق لتبرير

- المنهج التحليلي، كتبه زينب حمّود، الأنوار، تاريخ ١٩٨٩/١/٢٠، ص ٨.
- ١٦ - الدراما ومذاهب الأدب، كتبه زينب حمّود، مجلة الباحث، العدد ٥٣، كانون الثاني - آذار ١٩٨٩، ص ١٤٧.
- ١٧ - الدراما ومذاهب الأدب، النهار، تاريخ ١٩٨٩/١٠/١٩، ص ١٠.
- ١٨ - أدب الخطابة في صدر الإسلام، اللواء، تاريخ ٩٠/٢/٢٨، ص ١٠.
- ١٩ - الخطابة في صدر الإسلام، السفير، تاريخ ٩٠/٢/٢٨، ص ١٠.
- ٢٠ - أدب الخطابة في صدر الإسلام النهار تاريخ ٩٠/٣/١٤، ص ٥.
- ٢١ - أدب الخطابة في صدر الإسلام: فايز ترحيني والثاني للاستعمال الجامعي، زينب حمود، الأنوار، تاريخ ٩٠/٣/١٨، ص ٦.

الفهرس

الإهداء	٥
المقدمة	٧
الفصل الأول: الإسلام وعلوم القرآن	١٥
القسم الأول: معنى الإسلام	١٥
القسم الثاني: تعاليم الإسلام	٢٠
القسم الثالث: علوم القرآن الكريم	٢٩
أولاً: مقدمة في معنى الوحي والقرآن	٢٩
ثانياً: نزول القرآن	٣٢
ثالثاً: القرآن جمعاً وكتابةً	٣٥
رابعاً: الأحرف والقراءات	٤٢
خامساً: تحدي القرآن وإعجازه	٤٨
١ - الإعجاز والقبان	٥٠
٢ - الإعجاز والمكننة	٥٨
أ - الإعجاز العددي	٥٩
ب - الإعجاز العلمي - الطبي	٦٢

٦٧	الفصل الثاني: الإسلام وعلوم الحديث
٦٧	القسم الأول: الحديث النبوي الشريف
٦٧	أولاً: الحديث والسنة
٧١	ثانياً: الحديث رواية وتدويناً
٧٨	القسم الثاني: أنواع الحديث
٧٨	أولاً: الصحيح وأنواعه
٨٠	ثانياً: الحسن وأنواعه
٨١	ثالثاً: الضعيف وأنواعه
٨٣	القسم الثالث: أثر الحديث في الأدب
٨٧	الفصل الثالث: الشعر والإسلام
٨٧	القسم الأول: الشعر في ميزان الإسلام
٩٤	القسم الثاني: المخضرم في التسمية والمعنى
٩٧	القسم الثالث: الشعر في صدر الإسلام
٩٩	أولاً: شعراء المدينة أو شعراء الأنصار
٩٩	١ - حسان بن ثابت الأنصاري
١١٩	٢ - كعب بن مالك
١٣٥	٣ - عبد الله بن رواحة
١٤١	ثانياً: شعر المهاجرين والوافدين
١٤١	١ - شعر المهاجرين
١٤١	أ - عبد الله بن جحش
١٤٣	ب - عبد بن جحش
١٤٣	ج - عبد الله بن الحارث السهمي

١٤٤	د - صفية بنت عبد المطلب
١٤٥	هـ - هند بنت أثانة
١٤٥	و - نعم بنت سعيد
١٤٦	٢ - شعر الوافدين
١٤٧	أ - عباس بن مرداس
١٤٩	ب - عبدة بن الطيب
١٥٢	ج - النابغة الجعدي
١٦٢	د - لييد بن ربيعة العامري
١٦٨	هـ - كعب بن زهير
١٧٤	و - الحطيثة
١٨٥	ثالثاً: الشعر المناهض للإسلام
١٨٥	١ - شعراء المعارضة في مكة
١٨٦	أ - عبد الله بن الزبيري
١٨٨	ب - ضرار بن الخطاب
١٩٠	ج - هبيرة بن أبي وهب
١٩١	٢ - شعراء الطائف
١٩١	أ - أمية بن أبي الصلت
١٩٢	ب - أبو محجن الثقفي
١٩٤	٣ - شعراء اليهود
١٩٧	المصادر والمراجع:
٢٠٣	بطاقة المؤلف الأدبية
٢١٠	الفهرس



تَقْدَفُ المطابع - يوسباً - كُتِباً لا تُعَدُّ ولا تُحصى ، منها ما يذهبُ جُفَاءً ،
وسنما ما يَمَكُثُ في الأرضِ وهذا الكتابُ أرادَ له مؤلفه أن يكونَ في القِلَّةِ التي لا غنى عنها
للعمامةِ والخاصةِ

فالعمامةُ تحتاجُ هذا الكتابَ لأنه يعلمُ الناسَ بعضَ أمورِ دينهم ودُنْياهم . يعرفهم إلى
معنى الإسلامِ وبعضِ تعاليمه ، ويُقربهم من علومِ القرآنِ الكريمِ ومباحثه نزولاً وجمْعاً وأحرفاً
وقراءاتٍ وإعجازاً ، ويصلهم بعلومِ الحديثِ الشريفِ روايةً وتدويناً وأنواعاً

والعمامةُ تحتاجُ هذا الكتابَ أيضاً لأنه يُعيدُ إلى أذهانهم بعضَ أحداثِ الإسلامِ وما رافقها
من شعرٍ كانَ عُضدَ الإسلامِ الأقوى ، والشعرُ دائماً ديوانَ العربِ .

وأما الخاصةُ فتستجدُّ فيه جديداً يعينها على تَتَبُّعِ أثرِ الإسلامِ في علومِ العربيَّةِ ،
وخصوصاً الشعرِ ، ومدى تأثيرِ هذا الشاعرِ أو ذاكَ بالقرآنِ الكريمِ والحديثِ الشريفِ .

من جديدِ هذا الكتابِ أنَ مؤلفه تناولَ فيه أهمَّ مباحثِ القرآنِ والحديثِ ، بالإضافة إلى
دراسةِ الشعرِ المُخضرمِ ، تناولاً ودراسةً عميقةً إلى حدِّ ما ، تُغني عن الرجوعِ إلى أماتٍ كتب
عديدة .

ومن جديدِ هذا الكتابِ أيضاً أنه يُثيرُ رُؤىً فكريةً جديدةً أمامَ الدارسينَ ، لمن أرادَ
المتابعةَ أو التَّقْضِ حينَ تيسَّرَ له مُكوّناتِ البحثِ الأكاديميِّ الجادِ

فهذا الكتابُ جديرٌ بالمطالعةِ ، يفني المكتبةَ العربيةَ ، بالإضافة إلى أنه حاجةٌ مُلحَّةٌ
لطلابِ الجامعاتِ العربيةِ .

الناشر

دار
المكر اللبناني